riwayat2025
بية و عالمية

إن ثورة ١٨٨٢ كانت ضربة فظيعة لمصر. لقد مدت أطناب الفوضى في كل مكان، وحطمت كل شيء. وفقد كل فرد طيفه بين هذا الضياع العام. واختفت فكرة الواجب عند موظفي الدولة، ولم يعد هؤلاء يعرفون طريقًا إلى السلام، وحملتهم غرائزهم صوب المصالح الذاتية، أكثر من أن تحملهم صوب العمل الشريف المتجرد، والتفاني في خدمة الوطن.

وكان الشعب وحده هو الذي بقي دون أن يفسد، وقاسى دون أن يشكو من أفعال سادته وخيانتهم. وكان ينتظر وهو صابر أيامًا أفضل، وهم دائمًا خاضعون بتواكلهم التقليدي للرغبة البعيدة لسيد الوقت.

١٩١٤-١٨٩٢

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

نُزهة إلى المرآة، مزهوة بجسد بض حليبي يشع نورًا، وخصر مُستدير، وكرتين من المرمر تُطلان في شمم. انبهرت الواقفة بتدلل أمام صورتها، وهي تُدندن مُتغنية بجمالها، مُعجبة بقدها الرشيق، وضفيرتيها البنيتين المتضافرتين في تناغم فني بهيج. راجعت ثوبها، الذي هو في الأصل ثوب سيدتها، ذا اللون الوردي والفتحات المتعددة، ثم تأكدت من دهان رقبتها وصدرها وإبطيها، بعطر الياسمين المفضل لدى السيدة الكبيرة، التي اشترتها قبل ساعات.

ظلت نُزهة في دار حسن الجلاب نحو أسبوعين، تتمنى أن يدفعها القدر إلى واحد من الأكابر الفقربين من الجناب الخديوي، فيُوله بها وتتبدل حياتها من الشقاء إلى التنعم، مُحققة أُمنية سابقة لأمها جميلة، والتي رحلت في وباء العام المُنصرم. بدت الفتاة الطامحة مُتقنة لابتسامة مُصطنعة، رسمتها رسمًا على وجهها الناعم، المُزدان بجوهرتين عسليتين، وشفتين دقيقتين، آملة أن تخطف إعجاب أحد الزبائن السريين، الذين يمرون على تاجر الرقيق في بيته كُل بضعة أيام. طالت الأيام، ونُزهة المُفارقة لمعارفها قسرًا في مدينة بيت لحم، تحلم بمالك طيب، وثري، وكريم، يُقدر هذا الجمال الرباني النادر، لكن يبدو أن القدر كان يُدبر لها طريقًا آخر.

بعد وفاة أمها، باعها صاحب حوانيت زيت الزيتون الأشهر في المدينة القديمة، إلى تاجر مغربي، مُعتذرًا بضائقته المالية التي تدفعه إلى البحث عن أي مصدر رزق عاجل. كان الثمن المُفترض لنُزهة مُرتفعًا في سوق الجواري، باعتبارها صغيرة السن لم تتجاوز السادسة عشرة، وبيضاء اللون مثل قمر مُنتصف الشهر، وبكرًا لم تُمس. وإذا كان المُشتري المغربي الذي قادها من مدينتها إلى مصر قد دفع فيها ثلاثمئة قرش فضة، فقد اشتراها حسن الجلاب بخمسمئة قرش فضة، واعدًا إياها بحياة هانئة في قصور الباشاوات، وأصحاب الحظوة في القاهرة.

في الطريق طلب منها حسن الجلاب ألا تتحدث مع أحد من المارة، وأن تتحاشى عساكر الإنجليز المُرابطين على حدود المُدن، وأن تدّعي إن سألها أي عابر أنها ابنته؛ لأن الكُفار المُتسلطين على البلد، عطلوا الشرع وحظروا بيع الجواري في سوق الجلابة الشهير، بعد أن تحكموا في المحروسة عقب كسر عرابي باشا قبل عشر سنوات.

في الماضي، وكما أخبرها التاجر الكهل، كان المُلاك والأعيان وبكوات القصر، يمرون على السوق كُل صباح، يعاينون الفتيات والغلمان الجُدد. ألوان وأجناس شتى من البشر، كانت تُعرض كُل صباح. بعضهم وفد من اليونان، والبعض الآخر من المغرب والسودان، وكثيرون من بلاد بعيدة لا يعرف العامة نُطق اسمها. لم يكُن بيع الجواري والرقيق محظورًا بفرمان أو مُقيدًا بمرسوم، بل كانت دار الحسبة تُحصّل رسومًا على كُل رأس. ويتذكر الناس أن كثيرين من العبيد صاروا بكوات كبارًا بعد أن اشتراهم الوالي، وكثيرات من الجواري المِلاح صرن حاكمات قصور.

عندما بيعت نُزهة إلى السيدة أم الحسن، حرم عبد الغفار باشا شكري، بعد زبائن عِدة عاينوها واستكثروا ثمنها، لم تشعُر بارتياح، خاصة عندما لمحت نظرات حسد وكراهية مُنبعثة من عيني تلك السيدة الأربعينية السمينة، ذات البشرة البيضاء والعينين الكحيلتين. طمأنها البائع حسن الجلاب بابتسامة تشجيع، ثُم سلمت نفسها كما اعتادت مُنذ مولدها لما يفعله بها القدر، دون مُقاومة أو تمرد. نظرت أم الحسن بإعجاب إلى الجارية البيضاء، قبل أن تتحسس كفُها ذلك الجيد المرمري اللامع، ثُم تهبط أصابعها ببطء على نتوء صدرها، لتلمس في شبق حلمتها اليُمنى. أدارت جسدها كمَن يُعيد وضع قطعة أثاث في غرفة سئم ترتيبها، ثُم تحسست خصرها ووركيها في اهتمام، والصمت ثالثهما. لم يكن من حق الجارية أن تنطق، إلا إذا سألها الزبون الذي هو دائمًا وأبدًا على حق. مُنحت السيدة الكبيرة التاجر السرّي كيسًا من النقود، ونظرة رضا، وغادرت وخلفها جاريتها الجديدة.

ابتسمت نُزهة وهي تتذكر شظف الحياة في بيت لحم، بعد أن تعرضت المدينة لوباء قاس نهش أجساد الضعفاء، وأجدب المراعي، ورسَّ الفقر على الناس جميعًا، فدفع سيدها لبيع عبيده قبل مواشيه، وكان ذلك السيد قد قتر عليهم أطعمتهم، فصار معاشهم اليومي نصف رغيف مُبلل بالزيت والزعتر، وتمادى في القسوة، فرفض تطبيب جواريه عندما فتك بهن الوباء، فكانت أمها أولى الضحايا.

مدّت إصبعها لتمسح كُحلاً خارجًا عن مسار حاجبها الأيسر، وتذكرت ما أملته أم الحسن عليها من تعليمات، بشأن الطاعة الكاملة، وضرورة الحرص على النظافة، ومساعدة الجارية مأمونة في أعمال البيت. مأمونة التي لمحتها فور دخولها دار الباشا امرأة سمراء طويلة، دقيقة الساقين، تقوس ظهرها وفرت الدماء من عروقها، وأوصدت بقايا رموشها على عينين زائغتين، شربتا العذاب عقودًا. أفهمتها السيدة الكبيرة أن مأمونة التي اشتروها قبل زيع قرن وهنت، ولم تعُد قادرة على العمل، واستوطن المرض المميت ثدييها. وقالت السيدة أم الحسن لنُزهة، إن عليها أن تبدأ يومها فجرًا، بجلب الماء في ثلاث زلعات كبيرة، من السقّاء العمومي، ثُم كنس أوراق الشجر المتساقطة أمام بهو المدخل، ورش الماء على جانبي الطريق، وعليها بعد ذلك رفع السجاجيد، وتلميع الشمعدانات والكراسي والمناضد جيدًا، قبل أن تُجهّز الحمام للباشا، وتعد بعد ذلك الفطور للأسرة. فضلاً عن ذلك، فإن هُناك مهمة أخرى للجارية الصغيرة، تتلخص في إيقاظ همة الباشا مساءً، بعد أن يبدأ الشراب، من خلال مُداعبات وملاطفات تستدعي المارد الغائب وتُشعل توهجه، مُستخدمة في ذلك ثياب سيدتها وعطرها، بحيث تُعده وتؤهله لها، ليُصبح نهبًا لافتراش زوجته الأربعينية. ولم تنس صاحبة القد الفستدير والعينين الصارمتين، أن تُحذر الجارية الصغيرة من أي شطط أو خروج عن مسار المهمة الموكولة إليها، أو السماح للباشا بأكثر من القُبلات أو التلامس، بل إنها قالت لنُزهة صراحةً، إنها ستُحضر لها الداية كُل شهر، لتتأكد من بكارتها؛ لأنها تُريد أن تبيعها بعد عام أو اثنين كما اشترتها بِكرًا، حتى لا تخسر شيئًا من الألف قرش التي دفعتها.

داعبت نُزهة خديها أمام المِرآة، قبل أن تسمع صوت أم الحسن يناديها بعجلة، سارعت إليها فرمقتها بنظرات غيرة وكراهية، وتفرست في ثوبها الوردي، ثُم ربتت على خصرها ودعتها للدخول إلى الباشا، بإبريق النبيذ وكأسين.

قالت لها أم الحسن:

ـ أنت تعرفين ما ينبغي لك فعله.

فأومأت نُزهة بالإيجاب، وقالت في خوف:

ـ نعم يا سيدتي.

طرقت الباب ولم تسمع إجابة، فانتظرت هُنيهة وطرقت مرة أخرى، فأجابها صوت غليظ يأمرها بالدخول. فتحت الباب الخشبي المُرصع بألوان من الصدف المُزركش، لتدلف إلى حجرة واسعة تتحلق أمام جدرانها أرائك ناعمة، تنقطع عند شُباك خشبي موصد. طالعتها سحنته الخمرية المميزة لرجل سمين، غادر الشعر رأسه فبدا لامعًا كحجر نيلي غارق، وتدلى شاربه راسمًا هِلالاً مقلوبًا فوق شفتين غليظتين، وعلا حاجباه السميكان إعجابًا قبل أن يسألها في تبسُم عن اسمها وعمرها. أجابت بتدلل قبل أن تتذكر أوامر سيدتها بألا تتجاوز مهمتها إثارة الرجل فقط.

ـ نُزهة. اسم جميل. على مُسمى.

غمغم الباشا قبل أن تمنحه ابتسامة خجل، مُتذكرة حكايات جواري تعرفت إليهن في بيت حسن الجلاب، عن طريقة جذب الرجل وبث الشوق في نفسه.

«امنحي زمان صدرك حرية الحركة، وفُكي ضفائر شعرك، واقتربي بوجهك الغارق في العطر من أنف فريستك وصائدك، وأقنعيه أنك لُقمة شهية وسهلة، ثُم قودي الركب رويدًا رويدًا». هكذا تذكرت وهي تتخيل

المشهد، كلام الجارية نبوية المغربية، التي كان حلم حياتها القدوم إلى أم الدُنيا. تصورت نُزهة المشهد جميلاً، وهي بحضرة فارس جميل، طيب المحيا، صغير السن، لكنها لم تتخيل أبدًا أن يكون فريستها وصيادها في الوقت نفسه، ذلك الكهل الخشن الذي يتدلى كرشه كجوال بصل مُخزن.

دعاها للجلوس إلى جواره على أريكة مُستطيلة، تغوص عليها وسائد مُزركشة. حاصرها الخجل كأخطبوط كريه، ففزا الدم وجنتيها وارتعشت أناملها وهي تضب النبيذ، قبل أن تستريح كف الباشا الغليظة على وركها الخارج من إحدى فتحات الثوب الجانبية. شعرت بقشعريرة تسري بين أطرافها، لكنها تحلّت بالصمت والابتسام وهي تضب كأس سيدها، وترفعها بيديها قائلة في أدب جم:

- تفضل يا باشا.

نظر إليها مليًا، وسألها عن بلدها وأهلها، فأجابته بما تعرف وسكتت عما تجهله، وبدا واضحًا أنه لا يستمع إليها، وأن ذهنه مشغول بأمرٍ ما. ناولته الكأس الثانية، فأمسك بها، ثم بحركة عصبية مُضطربة، دلقها على صدرها، لتلسعها زخة النبيذ البارد فتصرخ مذعورة، قبل أن ينقض الكهل الشبق على ذلك الصدر نصف العاري، يرتشف بقايا الكأس المسكوبة في نهم، مُلقيًا بنحو ١٤٠ رطلاً فوق عصفور صغير يئن خوفًا ووجعًا.

شاربه الغريب ونبت ذقنه ولعابه الكريه، أصابها بالتقزز، وأثار في أمعائها الخاوية رغبة التقيؤ. امتدت أصابعه فوق فخذيها، بينما كانت شفتاه تواصلان نهش ثديها المتدلي، وفجأة انفتح الباب، لتدخُل أم الحسن تتخطّر في ثوب مُشابه، والياسمين يُحلق حولها. جذبت نُزهة من تحت الجسد الضخم، ودفعتها مُشيرة إلى الباب، ثم ألقت بجسدها المترهل بين رجلي الباشا، وضحكت في خلاعة، واندفعت نُزهة إلى الخارج موصدة الباب بذراع سلسلها الذُعر.

***

كان الناظرون إلى وجه الرجل الطويل، الجالس فوق دكة خشبية مُستطيلة، أمام مقهى السعادة ببولاق أبو العلا، يخافون إن تلاقت عيونهم مع عينيه. لقد أقامت القسوة جدرانًا من التجهم على ملامحه المُنفرة، ورسمت الغلظة خطوطًا متعرجة في ثنايا وجهه الأسود، وصار من الواضح أن الرجل الضخم، ذا العينين الجاحظتين، والفم الواسع، قادر على بث الرُعب في نفوس الناس، من خلال نظرات هادئة عميقة، تحمل الكراهية للجميع وتوزع الشرر على الكُل، كأنه على موعد دائم مع الثأر من كل البشر.

جلس عُثمان الطوشي يتأمل سير الناس في روتينية مُملة، كأنهم تروس تدور دون اختيار، وزفر زفرة سأم من قيظ لاسع يتكرر كُل صيف. استرجع الذهن الناعس غمزًا من الوجع، خدم خلاله تُجارًا وأعيانًا وأجانب حتى ساقه القدر إلى ذلك الشاب الثري، غريب الأطوار، الذي يُدير عدة بيوت ومقاهٍ للسعادة، فاشتراه ومنحه حُريته، بشرط أن يعمل لديه عشر سنوات طائعًا دون نقاش.

قبل أربعين عامًا لم يكن سوى طفل بائس مُطلق البراءة، يدور مع صبية جوعى وعُراة، بحثًا عن ثمرة مانجو أو أناناس تسد جوع بشر لا يمتلكون شيئًا؛ لأن أهلهم لم يمتلكوا شيئًا. لم يتذكر وجوه أشقائه أو أسماءهم، أو حتى أعدادهم، فجميعهم تشابهوا في الفقر والبؤس، والعظام النحيلة، والحياة الأقرب إلى العهود الحجرية؛ حيث العراء هو البيت الأكبر، والقوة هي الحاكم الأقوى. كان مجرى نهر السوباط يتعرج بين غابات موغلة في السكون، لم تعبرها خُطى غريب، ولم تعرف المدنية سبيلاً إليها مُنذ قرون طويلة، حتى إن القبائل الساكنة كانت تعبد الأوثان، لأنها لم تعرف آلهة غيرها. في قرية صغيرة تدنو من مشرق الرُق، وبعيدًا عن موطن أهله، شارك الصبي الصغير أقرانه في جمع الصمغ، مُقابل تمرات، حتى جاء اليوم الذي أغار فيه الخرطوميون على القرية، مُسلحين برماح من النُحاس وأفخاخ من الصاج وبنادق خشبية، يقودهم رجل أبيض الوجه. هبط الصبية من فوق فروع الأشجار، ليجدوا حلقات مُتسعة لرجال ضخام، يحملون في أياديهم هراوات وبنادق، ويصيحون في الواقفين أن يجلسوا على مناكبهم، ويُشبكوا أكفهم خلف ظهورهم، إعلانًا للاستسلام. «رزية»

كما كانوا يُسمونها، أصابت القرية المسكونة بالغزلة، لاصطياد عبيد وجوارٍ جُدد، من هؤلاء الهمج العائشين في قاع الحياة. كان الإعدام الفوري هو جزاء كل ذكر بالغ، قادر على المقاومة أو التمرد، فضلاً عن غير الملتزمين بالتعليمات والنواهي من الصبية، أما النساء فكُن طائعات في هدوء لأوامر صائدي البشر، مُستبشرات بحيوات أفضل في أماكن أخرى.

قبل ساعات من هجوم الخرطوميين سمع أهالي القرية نعيق الغربان، فتوجسوا شرًا وتوقعوا وقوع رزية، وسارع بعضهم إلى القفز من أعالي الشجر، مُفضلين الموت على صلابة الصخور، بدلاً من الإعدام ذبحًا على أيدي الغاجمين.

سيق الطفل الصغير، الذي كان يحمل اسمًا غير عثمان لكنه لم يتذكره فيما بعد، إلى مُعسكر الرقيق في منطقة برية، إلى جوار بحر الغزال، حيث اصطف مع مئات الأطفال والنساء عرايا، تحرقهم أشعة الشمس، فيسقطون صرعى الجوع والهُزال. كانت مجموعة من الرجال طوال القامة، يمرون كُل يوم ليختاروا بعض الأطفال والسيدات، يسقونهم مياهًا ثُم يأخذونهم إلى ركب الجلابة الفتجه إلى مصر. سمع الفتى الصغير كلامًا لم يفهمه، ثُم قُبل أن يُردد في خوفٍ ما كرره أمامه حارس المُعسكر، بأن اسمه غثمان.

أطال غثمان النظر إلى وجوه العابرين أمام مقهى السعادة في صمت، وهو يحلُم أن يُمزقها إربًا. هؤلاء الدونيون الذين يحكمهم الخوف، ويسيّرهم السوط، مصيرهم إلى الجحيم، مثلما كان ذلك مصيره وهُم يُرسلونه صغيرًا إلى مِصر. في الطريق إلى أسيوط، سقط عشرات الصبية والجواري، صرعى المرض والخوف والضعف. وصلوا إلى قرية تل الجنادرية بأسيوط، حيث تم تجميع خمسة وثلاثين صبيًا دون العاشرة، في مبنى قديم يخُص النصارى، عليه صلبان حجرية وتعلوه قِباب صغيرة مُتعددة. تفحص رجل قصير يسمونه الجلاب وجوه وأجساد الأطفال، وهو يبتسم، قبل أن ينادي بضرورة إطعامهم حتى لا يفترسهم الموت. أطاع أحد الخراس الأمر الصادر له من سيده، فوضع ثلاث حبات من التمر أمام كُل صغير، ثُم مرر قُلة باردة عليهم ليشربوا بعض الماء، قبيل إجراء الإخصاء. بكى الأطفال الواقفون عندما علموا مصيرهم، من صرخات مكتومة وصلتهم عبر النوافذ وفتحات التهوية، ورأوا عبيدًا يحملون أطفالاً مُمددين على جذوع نخل مقطوعة إلى الجبل، لدفنهم بعد أن ماتوا؛ لأنهم لم يتحملوا بتر أعضائهم. خرجر غثمان إلى غرفة ضيقة في آخر ممر الدير الكبير، الذي خشروا فيه، والفزع ينهش روحه، والرعشات تغزو أوصاله، صرخ بحدة وهم يخلعون سروالًا كسوه به يوم وصوله مُعسكر بحر الغزال، ومددوه بعد أن فرجوا ساقيه. بكى بشدة، ثُم صرخ مرة أخرى بهلع، لكن أحدًا لم يلتفت إليه، حتى اقترب منه كهل دقيق الساقين واليدين، يلبس جلبابًا أبيض، ويُمسك في يمينه مشرطًا صغيرًا، والبسمة لا تفارق شفتيه، وقال له في برود: «اهدأ. استرخ تمامًا وستنجو. ألم ساعة ولا كُل ساعة»، ثُم تحسس بطنه، وهبط بكفه إلى مُبتغاه، وأردف مُبتسمًا: «يا غثمان، ستنفتح لك أبواب الجاه وسيعلو سعرك». مدّ مشرطه بسرعة وحسم، بينما كان غثمان يُنادي الرب الخالق بكُل اللهجات التي عرفها، دون مُجيب. كان ذلك الوجع هو الجحيم التي تمنى غثمان أن يُضلي بها كُل بني البشر. قُطع الرأس، فصار كجذع شجرة ذاوية، وسال الدم ساخنًا على فخذيه، قبل أن يصبوا زيتًا حارًا على العضو المبتور رأسه، ثُم رشوه بالحِناء، فشعر كم هو جميل أن يموت الناس، دون أن يعرفوا معنى الوجع. الوجع، هذه الكلمة التي ليس لها تعريف واضح في معاجم الطب، لكن غثمان تمكن من تعريفها ودراستها وحفظها، حتى صار قادرًا أن يُعرّفها للآخرين بطريق واحد فقط، هو صبها عليهم صبًا.

راجعت عيناه مشاهد العربات المجرورة ببغال قوية، إلى جوار النيل، مُتصورًا أن دماء صغار المُختطفين جرت أنهارًا عندما تم إخصاؤهم، فهلك مَن هلك وحيي مَن حيّ. غرسوه غرسًا في رمال بالجبل المُقابل للدير، مع ثمانية صبية، أفلتت أرواحهم من الموت خلال العملية. غاصت أعضاؤه في لهيب التُربة الرملية، ولم يبق فوق سطح الأرض سوى رأسه، الذي اكتفوا برشه كُل بضع ساعات بماء بارد. ثلاثة أيام قضاها يبحث عن معنى لكونٍ بلا ضمير، وبشر بلا قلوب، مُنتظرًا خاطفي الأرواح ليحملوه إلى العدم، لكن ذلك لم يتحقق.

صحا عثمان الطوشي من ذكرياته عندما لمح عربة سيده الفخمة، تجرها ثلاثة خيول شهباء، تخترق شارع السعادة مُقتربة من البيت الكبير، الذي تُغطيه ألواح الخشب والطين الممزوج بالزلط الدقيق، والمطلي باللون الأبيض اللامع. اقتربت العربة فوقف جُلساء مقهى السعادة، وانتبه عمال المكان لذلك القادم المهيب، ترك حامل النارجيلة أدواته، وخرج صانع القهوة إلى الشارع، وانتفضت قدما عثمان ليعاين الوارد الجديد. وقفت العربة وهبط منها جسد طويل أسمر، حليق اللحية والشارب، كحيل العينين، مُضفّر الشعر، دقيق الفم والأنف، يرتدي عباءة واسعة مُزركشة، وتُشخشخ في ساعديه أسورة من الذهب، ويتدلى من أذنيه حلقان ثقيلان. بدا مُبتسمًا وعطر العنبر يفوح من ثيابه. تبعته ثلاث فتيات حاسرات الرأس، إحداهُن سوداء أقرب للزرقة، لها عينان واسعتان، وفم عنقودي جميل، والأخرى خمرية اللون، بارزة الجبهة، ينسدل شعرها البُني على مفرقيها، والثالثة بيضاء باردة كلوح الثلج، لها عينان زرقاوان، وفم صغير، وشعر أصفر، وقوام ممشوق، وحول عُنقها عقد من الفضة.

تقدم عثمان ليُقبل اليد الفزدانة بالأسورة، التي مدها الرجل الأسمر أمامه، وقال مُرحبًا بأدب وذلة:

- أهلاً سيدي إبراهيم بك. نورت الأرض.

تبعه عُمال القهوة واحدًا تلو آخر، وبدا صوت إبراهيم أنثويًا، وهو يهز خصره مع كُل كلمة تخرج من فيه.

- هؤلاء الجواري هدية والدي لنا. حبشية ونبوية ونور.

وأشار إبراهيم بيديه إلى كُل واحدة، مُعرفًا عثمان الطوشي بهن، وطالبًا منه أن يُجهزهُن لضيوف الليلة، قائلاً بغنج:

- أنت يا تاجر السعادة: حدد لكل واحدة عدد الواطئين كُل ليلة، حسبما يحتمل جسدها، واجعل حوا تُزينهُن وتُعلمهُن أصول الشُغل، وفي الصباح ابعثهن إلى جرجس أفندي في الإسبتالية، ليكتب لكل واحدة رخصة.

انفرجت أسارير عثمان الطوشي، وود لو يُقبل قدم سيده، الذي بدا رغم هيئته المُخنثة، قادرًا على إدارة البيت الكبير، وبيوت عديدة في أماكن مختلفة، في هذه المدينة القاسية، بحرفة واقتدار. كان إبراهيم، الذي لا يعرف أحد كيف غادر بلدته جنوب أسوان، ووصل إلى القاهرة، وأسس فيها أكبر إمبراطورية للبغاء، حتى تندّر الرحالة والزائرون الأجانب، بأن مَن زار مصر ولم يدخل أحد بيوت إبراهيم الغربي، كمَن لم يزُرها أبدًا، مُنتشيًا من السعادة وهو يستعرض الواردات الجديدات من نسائه.

قرأ إبراهيم في عيني عبده رغبة تقبيل قدمه، فرفعها وخلع عنها بُلغة قُماشية ملونة، وقال له بثقة:

- بوس يا عُثمان. بوس يا ولد.

لمعت القدم التي تخضبت بالحناء في الشمس، وفغرت عيون الجواري الواقفات، وهُن يشهدن درسًا أوليًا يُلقنه لهن سيدهن. هبطت شفتا عثمان على القدم الممدودة، وقبلتها في رقة، مرة ثُم أخرى وثالثة، قبل أن يرفع إبراهيم كفه قائلاً:

- يكفي يا ولد. جهز البنات بهمة وشرعة. اصنع بهنّ معروفًا.

ومضى ليستنشق الحضور أنفاسهم، بعد أن حبسوها خوفًا ووجلاً.

***

جلس حسن أفندي الكاتب على مقهى «متاتيا»، بميدان أزبك، والذي يحتل موقعًا رئيسيًا في وسط المدينة، يُدخن نارجيلته في تلذذ ظاهر، ويقرأ باهتمام جريدة المُقطم، تلك الجريدة التي تُعبر بجلاء عن توجهات السُلطات في مصر. كان الصيف الساخن يُلقي بلسعات شمسية مُوجعة اعتادها المصريون، لكن عساكر الإنجليز السائرين ليل نهار في الشوارع، اختبأوا منها في ظلال المقاهي المُنتشرة بين أحياء المدينة الصاخبة. رنا حسن

إلى المقاعد الموضوعة بانتظام على شكل مربعات متجاورة، في المحل المتسع، الذي يميز العمارة الشهيرة التي أنشأها المهندس «متاتيا» في قلب الميدان قبل عشرين عامًا. توقف حسن أفندي عند خبر رئيس وسط الصفحة الأولى، يقول إن مجلس النواب البريطاني أعلن عن سعادته، بما حققته مصر في مكافحة تجارة الرقيق، وإنه رغم استمرار التجارة في البحر الأحمر، فإن مصر غير مقصرة في هذا المجال، وإنها تبذل ما في وسعها. وفي الخبر نفسه، قرأ تصريحًا للورد كرومر، يقول: «إن تجارة الرقيق زالت من مصر، وإن الرّق صار في الرمق الأخير من الحياة»، وتمتم حسن أفندي مُندهشًا، وهو يسترجع بذهنه أسماء الجلابة الذين ما زالوا يُمارسون تلك التجارة، في بيوت الباشاوات والأكابر.

تابعت عيناه العسليتان مشهد الأفندية الجالسين تحت مظلات قُماشية، على طول الطريق بملابسهم الإفرنجية وطرابيشهم الحمراء، وأمامهم ألوان شتى من الجلابيب، التي لا يعرف أصحابها القراءة والكتابة، يملونهم مكاتيب لذويهم وأقاربهم هنا وهناك.

طلب شايًا، والتفت ناحية رجل أحمر الوجه، يرتدي قُبعة بُنية تُغطي نصف صلعة لامعة، يتدلى على جانبيها سالفان صفراوان، دخل توًا إلى المقهى. بدا الداخل مرفوع الجبين، وهو يحمل في كفه اليمنى غليونًا عاجيًا منحوتًا عليه رسم لبُرج إيفل، وفي يسراه حقيبة جلدية صغيرة. حيّاه بحركة يد باردة، فسارع حسن أفندي إليه مُصافحًا، ثُم حمل شايه ونارجيلته ليجلس إلى جواره. سأله في اهتمام بإنجليزية سليمة:

- مسيو فرانسوا. كيف دراساتك عن مصر؟

رد الرجل مُبتسمًا ابتسامة صفراء:

- تمضي الأمور على ما يرام. حسن أفندي.

لقد تعرّف حسن أفندي فرانسوا في غرفة فارس نمر، صاحب جريدة المقطم، تلك الجريدة التي تمكن من الالتحاق بها للعمل في وظيفة كاتب، بعد وساطة من رجل البر والخير عبد الغفار باشا شكري. سريعًا تخلى حسن أفندي عن العمة والكاكولا اللتين كانتا تُميزانه، كواحد من طلاب الأزهر، ولم يلبث أن اشترى طربوشًا محليًا، ثُم بذلة بُنية اللون تناسبت مع لقب «أفندي» الذي أطلق عليه بعد تعلمه اللغة الإنجليزية.

كان حسن يحمل عينين لامعتين، تبثان غموضًا يُناسب صحافيًا مهمته هي جمع الأخبار والمعلومات وكتابتها يوميًا. ترك الإسكندرية صغيرًا ليتعلم في الأزهر، لكن نفسه كانت أقرب لتعلم اللغات والعلوم والفنون الحديثة، فما لبث أن التحق بمدرسة إنجليزية جديدة، ثُم تركها بعد أن توقفت إعانات العائلة له، فور علمهم بخلعه للعمة والكاكولا، والتحاقه بركب الأفندية.

سأل حسن جليسه وهو ينظر إلى أصابعه البيضاء، تحشو غليونه تبغًا، ثُم تشعله في صمت، عن دراسته التي بدأها حول أخلاق المصريين، ومدى استفادتهم من الإسلام، ففاجأه الرد بأن شيئًا من افتراضاته السابقة وظنونه لم يتغير، وأضاف الرجل الأوروبي مؤكدًا أن العقيدة المحمدية لم تُضف إلى المصريين شيئًا ذا بال، بل هي ضاعفت تكاسلهم وانتظارهم لما تفعله الأقدار بهم.

قال حسن:

- إن الدين يحض على العمل والنشاط والإتقان و...

ولم يُكمل عبارته، لأن فرانسوا قاطعه بأن هُناك نُصوصًا تقول ذلك، ونصوصًا أخرى تقول عكس ذلك، ثُم أضاف في غطرسة:

- العبرة بالوضع الحالي للمصريين. هم مثلهم مثل بقية الشعوب المجاورة. مجموعة من الأغبياء والكسالى الراضين بالظُّلم، والرافضين للتقدم، الموكلين كُل أمر للسماء، كأنهم لا وجود لهم.

كان حسن، الذي آثر حلق لحيته وشاربه، تشبُهًا بالإنجليز المُنتشرين في جميع المصالح والإدارات والأشغال،

بعد انكسار عرابي ومن معه قبل عشر سنوات، موجوعًا من سماع تلك المطاعن من مُستشرق مغرور، لا يعي أن الحضارة التي صنعها الإسلام قبل قرون، عمّرت مشارق الأرض ومغاربها. في يوم ما، تباهى أمامه بأن الحضارة التي يمقتها، هي التي أخرجت ابن رُشد وابن سينا والفارابي، فضحك فرانسوا ساخرًا بأن هؤلاء نهلوا من حضارات العالم الغربي، وأن النُظم الحاكمة في بلاد المُسلمين اعتبرتهم زنادقة ومُجدّفين.

قبل عامين وصل إلى القاهرة قادمًا من بغداد ذلك الفرانسوا روسو، المُستشرق الفرنسي الكبير، الذي أعد كتابًا عن خُرافات العقيدة المُحمدية، ثُم دراسة عن المرأة في بلاد الرافدين والشام؛ ليبحث عن أثر الإسلام في حياة المصريين. حصل الرجل على منحة من حكومته لإنجاز الدراسة خلال عام واحد، لكنه بعد أن وجد ضالته في التعرف على رجال مقربين من القصر، قرر البقاء للحصول على أموال نظير استشاراته وأفكاره التي يمد بها رجال الحاشية.

نظر فرانسوا في وجه حسن الأسمر ذي الغمازتين، وسأله في جدية:

ـ هل أنت مؤمن يا حسن بأن مُحمدًا كان نبيًا أرسله الله لهداية الناس؟

سكت حسن قليلاً، وبادر قائلاً:

ـ بالطبع يا مسيو فرانسوا.

نفث الرجل الأقرب للشيخوخة دُخان غليونه، ثُم سأل في برود:

ـ إن كان ذلك صحيحًا، فلِمَ ينعم غير المؤمنين به في فرنسا وإنجلترا بالقوة والتحضر، بينما مُتبعوه في بلادكم مُنهزمون؟

صمت عام ران على المسؤول، انشغل فيه دماغه بالتفكير، قبل أن يزد:

ـ الأيام دول وكل نجم يبزغ يأفل.

طلب فرانسوا فنجانًا من القهوة، ثُم رسم ابتسامة خبث على وجهه، سائلاً حسن عن الفتوح الإسلامية، فردّ حسن بأنها كانت «نشرًا للهدى والعدل»، فنفث فرانسوا دُخانه قائلاً في انتصار:

ـ إذًا أنت مؤمن بأن من حق بريطانيا احتلال بلدك، ومن حق فرنسا امتلاك الجزائر. أليس هذا ما فعله رسولكم؟ لقد حارب الرجل لاحتلال البلاد والشعوب الأخرى، بزعم أنه يحمل لهم الخير والحق، وهذا ما فعلته الدول الكُبرى معكم.

حدّق حسن إلى وجه مُحدثه، دون أن يتخلى عن هدوئه، وقال:

ـ إن رسولنا لم يقتل الأطفال، ولم يأمر باغتصاب النساء، مثلما تفعلون في الجزائر.

رد فرانسوا قائلاً:

ـ لم يفعل هو ذلك، ولكن ربما فعل رجاله. لقد قرأت تاريخكم حسن أفندي. ما أريد أن أقوله لك، هو أن القوي يفعل ما يُريد. ومُحمد كان رجلاً قويًا، لذا فقد وصلت دعوته إلى نصف العالم القديم.

ـ لا تناقشني في الدين.

قال حسن بأدب، فاعتذر فرانسوا مؤكدًا على أن كلامه كان ردًا على سؤال له. ثُم سأله عن عبد الغفار باشا شكري: كيف حاله وهل ما زال يفكر في إنشاء حزب سياسي، فأجاب حسن بأنه لم يلتقيه منذ شهور طويلة، بسبب كثرة مشاغله، لكنه يعتقد أن له مكانة جيدة لدى الجناب الخديوي، وأنه يسعى بالفعل لحل المسألة المصرية. ابتسم فرانسوا وهو يقول ضاغطًا كُل كلمة:

ـ آمل أن يكون ذلك صحيحًا.

حاول حسن تجنّب الحديث مع جليسه، فنظر إلى الجريدة بين يديه، ليقرأ خبرًا عن تسجيل المطرب عبده الحامولي أغنيته الجديدة «الله يصون دولة حسنك»، على أسطوانة شمعية. لم يُكمل الخبر، ليجد نفسه في موقع المدافع مرة أخرى، عن بلاده ودينه، عندما قال له فرانسوا إن أسوأ ما لديكم، هو ذلك الامتهان والتحقير المتعمّد للمرأة.

حكى له أنه تعرّف أحد علماء الأزهر، وهو شيخ جليل يُحبه العامة، واسمه الشيخ علي الصعيدي، وقد تعجب منه عندما سمعه يقول للناس: «إذا تحيرت من أمرٍ فاستشر عشرة أصدقاء مُحبين، فإن كان لديك خمسة أصدقاء فقط، فاستشر كل واحد منهم مرتين، وإن كان لديك صديق واحد، فاستشره عشر مرات. أما إذا لم يكن لديك أصدقاء بتاتًا فاذهب إلى زوجتك، واعرض عليها الأمر، ثُم افعل عكس ما تنصحك به». قهقه فرانسوا على حكايته، بينما سكت حسن مُغتاظًا، وهو يعلم كيف يبُث الشيخ علي الصعيدي جهلاً وتخلُفًا، باسم الإسلام.

قال لنفسه إن نصف هزائم الأمة، صنعته ألسنة المُعممين الجهلاء، الذين شوهوا الدين وروجوا للخرافات.

رشف حسن رشفة طويلة من الشاي الأسود الموضوع أمامه، قبل أن يلاحظ عيني فرانسوا الخضراوين، تُلاحقان فتاة طويلة، مُجللة بالسواد، يُطرقع شبشبها الخشبي بإيقاع مُنتظم، وتبدو عيناها الكحيلتان كعيني ماء عذب في صحراء جدباء، بينما يُغطي البُرقع الأبيض فمها. كانت الفتاة تحمل فوق رأسها زلعة كبيرة، وكانت عجيزتها المُتكورة تترجرج مع كُل خطوة تخطوها، ما خلب لُب فرانسوا، الذي قال لحسن:

ـ إن المرأة لديكم جميلة.

سكت حسن مُستاءً، فأكمل جليسه قائلاً:

ـ أجمل ما فيها أنها عورة، محكومٌ عليها بالتخفي الدائم، لكن متى ظهرت فإنها باهرة.

سحب حسن أنفاسًا من نارجيلته، ونفثها في الهواء، وقال:

ـ إن النساء الأوروبيات أكثر جمالاً، وهُن يملأن الشوارع والطُرقات. لمَ تشغل بالك بالنساء المُتخفيات؟

رد الكهل الفرنسي، بأن الممنوع دائمًا مرغوب. ثُم قال لحسن:

ـ إن المرأة المصرية شبقة، لا تجد حرجًا في أن يُضاجعها عجوز مثلي، بشرط ألا يرى وجهها.

هبت عواصف الغضب على وجه حسن، وهجر بروده المُصطنع، وصاح في وجه فرانسوا:

ـ أنت كاذب. كاذب.

لكن ذلك الموصوم بالكذب ابتسم في برود شديد، وقال:

ـ فعلتها مرارًا يا صديقي. في كلوت بك وفي وش البركة، وعند الرجل العظيم جدًا مسيو إبراهيم الغربي.

قام حسن مُغتاظًا ونادى النادل ليدفع له الحساب، ثُم حمل جريدته وورقًا أبيض كان أمامه، وغادر مُسرعًا. كان يعلم أن ما يقوله مسيو فرانسوا يحمل جانبًا كبيرًا من الحقيقة، فالفسق هو عنوان المدينة المُزدحمة، والفجور هو المهنة الأكثر انتشارًا بين نساء الوطن. الوطن، هذه الكلمة التي تُزيده عارًا، كُلما نظر حوله يمينًا أو يسارًا.

آه يا مصر.

***

جرت نبوية بشوق عندما لمحت نُزهة أمام السقاء، تملأ زلعات المياه. كان السقاء يحمل فوق ظهره قِربة بُنية، بيضاوية الشكل، مصنوعة من جلد الماعز، وحوله وقف نساءٌ ورجالٌ يملأون زلعاتهم بالمياه، وهو يُكرر

بصوته الأجش: «صلاة النبي»، كأنها علامة على قدومه. احتضنت نبوية ذات الجبهة العريضة السمراء تلك الفتاة الرقيقة، بعد أن عرفتها من جلبابها الأزرق الذي رأتها ترتديه عند حسن الجلاب. قبلت نبوية خدي نُزهة الناعسين تحت بُرقع أبيض، لم تكن تعرفه في بيت لحم، بشوق من وجد ماءً بعد أيام من العطش.

نبوية فتاة خمرية، بارزة الجبهة، باعها أهلها بعد أن حاضت، بسبب الفقر الشديد، نظير ثلاث قطع ذهبية. «سامحينا يا بنتي»، قالت لها أمها وهي تبكي، بعد أن اتخذت القرار مع الأب البائس، الذي لم يوفق في أي عمل حتى السرقة. من مدينة فاس بالمغرب حتى القاهرة، قضت نبوية سبعين يومًا حالمة بطعام شهي، وثياب ناعمة، وأناس طيبين، أكثر شفقة وحلمًا. من تاجر سري إلى آخر، تنقلت حتى اشتراها رجل عجوز من أسوان، يسمونه الملك، ثم لم يلبث أن بعث بها إلى ابنه بصحبة حسن الجلاب.

لم تُصدق نبوية للوهلة الأولى ذلك الجسد الأسود اللامع، وتلك الهيئة الأنثوية المصطنعة، لابن الملك الذي يُدعى إبراهيم، ويمتلك عدة مقاه وبيوت ومحلات وبارات بأم الدُنيا. تعجبت أكثر عندما رأت الجميع يخشونه، وأن نظراته بمثابة أوامر لمن حوله، الذين يعتقدون أنه شيطان حقيقي. عروها تمامًا أمامه مع فتيات أخريات، فتحسس بكف ناعمة خصرها وبطنها وفخذيها، ومرر أصابعه بين نهديها، ثُم قبلها بعنف من شفتيها وقال لها بصوتٍ أنثوي: «نبوية لذة»، ومن يومها صار هذا اسمها، تمييزًا لها عن فتاة أخرى أسماها «نبوية المخضرمة».

قالت نُزهة لنبوية إنها تقطن عند باشا كبير لديه منزل جميل في آخر الشارع، وإن زوجة الباشا تُطعمها مرتين كُل يوم، وتُعطيها بعض ملابسها، وإنها سعيدة جدًا رغم أنها تقوم بكل أعمال البيت، من تنظيف وغسيل وطهو وجلب مياه. وحكت نبوية أنها لا تقوم بهذه الأعمال لأنها تعمل في بيت سعادة، وأن مالكها منحها رخصة تعطيها الحق في النوم مع رجال متنوعين، مقابل قروش قليلة يحصل عليها، وأنها تكتفي بالرقص في الأيام التي تُعاني فيها من الحيض. «في هذا المقهى» وأشارت نبوية إلى دُكان كبير، يمتد بناصية شارع بولاق الرئيس.

ـ هل يطعمونك جيدًا؟

سألتها نُزهة، فردت في رضا:

ـ على الأقل لا أجوع.

ثم سألتها نُزهة في تردد، إن كان النوم مع عدة رجال يؤلمها، فقالت إنها اعتادت. وأردفت:

ـ ما يُتعبني بعض المجاذيب من الإنجليز والأجانب، الذين يُصرون على جلدي حتى أنزف دمًا، قبل أن يُباشروني.

ثم ابتسمت وقالت:

ـ سيدي إبراهيم طلب مني أن أتحمل، فبعد عشر سنوات سيُطلق سراحي، وسيزوجني بأحد حراسه.

ـ معقول؟

سألت نُزهة، فبادرت نبوية بهز رأسها وهي تُتمتم:

ـ نعم، سيمنحني سيدي تذكرة حُرية، وبعدها لن يكون من حق أحد استرقاقي مرة أخرى.

دارت الكلمات برأس نُزهة، وفكرت في معنى الكلمة. «تذكرة حُرية» هي الخلاص. أن تفعل ما تريد وقتما تريد، أن تختار لها طريقًا، أن تقول رأيًا، أن تعتقد أمرًا، أن تحب شخصًا، وتكره آخر، ألا يمتلكها أحد، وأن تصحو مُبكرة أو مُتأخرة لا يهم، أن تذهب إلى حيث تريد دون خوف، وأن تكون لديها القدرة على الرفض. حُرة يعني أن تكون ما لم تكنه مذ عرفت الدُنيا، أن تختلف عن أمها وعن أبيها الذي لا تعرفه، وعن جدودها الذين أقسم مالكها الأول إنهم كانوا عبيدًا منذ بدء الوجود.

تذكرت نُزهة الليلة الفائتة في بيت عبد الغفار باشا شكري، عندما تسحّب رب البيت ليلاً نحو مخدعها. كانت يقظة، لكنها ادعت النوم، لتجد يده اليمنى ممددة فوق فخذها، قبل أن يرفع جلبابها الأسود، ويتأمل لحمها لعدة ثوانٍ، انتهت سريعًا، بعد أن سمع صوت أم الحسن تُناديه بصوتٍ عالٍ، فقام مفزوعًا ثم أنزل جلبابها مرة أخرى.

سارتا معًا مُلتصقتين كفرعي شجرة وارفة الظلال، ترفعان لافتة حُلم واحد بالخروج من ربقة الذُل. سألت نُزهة نبوية عما ستفعله عندما تحصل على حريتها، فصدمها الرد:

«سأفتح بيت مُتعة، وسأشغل كُل من تريد دون إرغام، وسأنتقي زبائني بعناية شديدة».

وقفت نُزهة في مُنتصف الطريق وهي لا تكاد تُصدق، وعلا صوتها قليلاً:

- عايق.

وأسكتتها كف نبوية المرفوعة أمام شفتيها، لكنها أكملت مستشيطة غضبًا:

- أهذا هو هدفك في الحياة؟ أن تتحولي إلى مطية لكل راكب؟ محظية؟ خرقة بالية؟ بغي؟ أمَلك أن تُصبحي بغيًا يا نبوية؟

علا صوت نبوية قليلاً وهي تزد بقوة وغضب مماثل:

- نعم. لم أعرف مهنة سواها.

وأضافت:

- أنا لم أكن جارية مثلك، والدي حُر وأمي حُرة، وأشقائي جميعًا أحرار، وأنا نفسي كُنت حُرة، لكن الفقر والعدم جعلنا جميعًا عبيدًا. أنا أهلي باعوني لأنهم يبحثون عن طعام لأشقائي الصغار. كانت أمي تبعث بي إلى السوق، بعد أن تُلبسني خرقة مُمزقة حتى يُشفق عليّ مُشترٍ، فيُطعمني أو يمنحني فِلسًا. كان أبي يضربني بحزامٍ من جلد ماعز أمام شيوخ القرية، حتى يفتديني أحدهم بحفنة أرز، أو كومة بصل. أنا لم أعرف أن هُناك لوزًا وجوزًا ورُمانًا وتُفاحًا يؤكل، إلا في بيت سيدي إبراهيم الغربي.

وبكت مُستندة إلى نُزهة، التي مسحت بطرحتها دموع رفيقتها، قبل أن تلمح شابًا حليق اللحية والشارب، يرتدي بنطالاً من الصوف، ويُمسك في يديه كتابًا صغيرًا، يقترب منهما في تردد. ورغم الحياء الفائض من وجهه الأسمر، فإنه نطق سائلاً إن كانتا تعرفان أين يقع بيت إبراهيم الغربي.

غادرت الدموع وجه نبوية فجأة، وتبدّل لونه إلى لون الرُمان وقت الحصاد، وقالت في تدلل:

- أي بيت تقصد؟ بيت السعادة أم بيت اللطافة أم بيت الفحولة؟

فغر فاه تعجبًا، وتندى جبينه بالعرق الذي شرعان ما سال على صفحة وجهه، فبدت لامعة ندية ولم يُجب. ورويدًا اقتربت نبوية من أذن الشاب، وأشارت إلى سيدة تجلس على المقهى، عند ناصية الشارع، وهمست:

- هذه فاطنة السحابة. قُل لها أريد نبوية لذة، وسنكرمك.

نظر بضيق إلى نبوية قبل أن يلتفت نحو الفتاة المجاورة، التي خفضت رأسها نحو الأرض، تحرجًا من كلام رفيقتها.

غادرهما خجلاً، كأنما كان سؤاله محض فضول فقط، وقبل أن تفترقا، رأت نبوية ماردًا طويلاً أسود اللون، يُناديها بكلمة «لبؤة». كانت عينا المارد، الذي لم يكن سوى عُثمان الطوشي، حارس بيت السعادة، توزعان جمعًا من جحيم تجاه الفتاتين الواقفتين على بعد خطوات منه. علمت نبوية بما سيجري، فطلبت من صاحبتها المُغادرة، واقتربت من صاحب الصوت الأجش والنظرات المُفزعة، مُبدية كثيرًا من المذلة والخضوع، لكنه

صفعها صفعة قوية، أسقطتها على الأرض. قامت دائخة لتلمح بطرف عين مقهى السعادة، وبالطرف الآخر صاحبتها نُزهة وهي تُغادر مُسرعة، وضعت كفها فوق خدها المصفوع، وهي تسأل غُنمان عن سبب الصفعة، فتلقت صفعة أشد على الخد الآخر. ثم كرر شبابًا لها ولامها بكُل وصف قبيح ومزرٍ يُمكن وصم امرأة به، قبل أن يُجرجرها من شعرها حتى مدخل البيت المجاور، ثم هتف زاعقًا:

- ألم يحظر عليك سيدنا الكلام مع أحد في الشارع؟ غوري في داهية حتى يعود وأخبره بفعلتك السوداء. أنت لا تعرفين ما سيفعله بك.

وصعدت الدرج باكية بحرقة.

***

نظرت العينان الزرقاوان بانبهار إلى السُلم الرُخامي الحلزوني الذي يتوسط الدار، وغمرت صاحبهما الدهشة من رؤية تلك الفخامة، في بيت لرجل لا ينتمي إلى الطبقة الحاكمة، في بلد مثل مصر. لم يُصدق الداخل الأبيض والقادم من بلاد باردة، أن ذلك الذوق الرفيع ينبع من رجل أمي لا يقرأ ولا يكتب، أتى من جنوب البلاد. نظر فيليب بتمعُن إلى التنانير النُحاسية الكبيرة، المتدلية من السقف المزركش برسوم لحيوانات وغابات برية، وأعمدة رُخامية حملت تيجانًا ذهبية، تناثرت في صالة واسعة، ميزتها أرائك عربية مُتعددة، تعلقت عيناه بلوحة على الجدار المقابل، لجارية سوداء تصُب ماءً على قدمي سيدها، الذي جلس مُسترخيًا في ملابس فضفاضة وعمامة ملفوفة حول طاقية صغيرة. أعجبته دقة تصوير عضلات ذراع الجارية، وخمن أن الرسم خطته يد الفنان الشهير بالسينو. قال لنفسه إن زوجته ماريا، لو كانت معه، لحددت على وجه اليقين إن كان الراسم بالسينو أو جاك باري أو بيرن. في الناحية الأخرى انتبه للوحة ثانية، لرجل عارٍ، له جناحان وخلفه أسراب جميلة من العصافير والبلابل. «لو كانت ماريا الحبيبة هُنا، لسعدت بهذا المتحف الفني الجميل». قال لنفسه، وهو يُعيد التساؤل: كيف لرجل أسود جاهل مثل إبراهيم الغربي كل هذا الوعي بحركة الفن الحديث؟

كان فيليب الذي حضر إلى مصر ليخدم ضمن قوات البوليس، يتصور أن المدينة التي دخلتها قوات بلاده لتُصلحها، وتُهذب أهلها، أرض قاحلة، تسير فيها البغال والحمير وتنتشر فيها الأوبئة والمزابل، وتفتقد أي معنى للجمال، وهو ذاته تصور ماريا التي حاولت إثناءه عن قبول الانتداب للعمل في البلد المحتل، لترسيخ الأمن وتحقيق الاستقرار. في اليوم الأول لقدومه، وعندما فتح عينيه على العمائر الجميلة والحدائق الطيبة، واستنشقت خياشيمه الهواء النقي، شعر أن الأمر لن يكون بالسوء الذي توقعه.

لم تمر أيام قليلة على تسلُمه مهمة الإشراف على قسم الأزبكية، حتى جاءه أحد كونستابلات القسم يُخبره بدعوة السيد إبراهيم الغربي له، لتشريفه في بيته، وهو ما أثار لديه موجة من الغضب والاستياء، إذ كيف لواحد من الرعاع أن يطلب منه الحضور؟ طلب تحريات عن الرجل، وتعجب أن يجد زُملاء من ضباط البوليس الإنجليز يُثنون عليه، ويعتبرونه أحد أهم مُساعدي الشرطة، في تعقُب الإرهابيين المُعتدين على الجنود في مُختلف الأنحاء. وفي الليل وبعد أن عاد إلى منزله، فاجأته زوجته ماريا بأن فتاة سوداء طرقت الباب صباحًا، وسلمتها عقدًا من الذهب الخالص، وقالت إنه هدية لمدام فيليب من إبراهيم بك الغربي. كانت سعادة حبيبته بالعقد دافعًا للتعرف إلى الرجل، الذي يتحدث عنه كثيرون باعتباره «فلتة» من فلتات هؤلاء الهمج الكسالى، والفخاصمين للإبداع والتحضر.

عندما طرق الباب، هاله أن يجد عددًا كبيرًا من الحُراس طوال القامة، من ذوي البشرة السمراء، ينتشرون في حديقة القصر الكبير، الذي تُزينه أشجار المانجو المُثمرة. تصور أن الساكن في هذا المكان ملك كبير، لأن الوزراء أنفسهم في هذا البلد لا يُحاطون بهذا الكم المُرعب من الحُراس. لاقى ترحيبًا يليق بواحد من أعضاء مجلس النواب البريطاني، وعلى طول الممر المؤدي إلى القصر، قابل صفًا من الظهور مُنحنية له تبجيلاً، حتى دلف إلى الداخل حيث أجلسوه في صحن المنزل، ينتظر السيد الكبير، واضعين أمامه صحونًا من التُفاح والمانجو والموز، وزجاجات من النبيذ وكؤوسًا مُتعددة الأشكال والأحجام.

لحظات ورأى القادم المهيب، وما إن وقع نظره على وجهه، إلا وانتابته رغبة عارمة في الضحك، كتمها بصعوبة، ثم صافح يدين ناعمتين قبل أن يسمع بإنجليزية جيدة، عبارة:

- سعيد بلقائك.

- وأنا كذلك.

أجاب فيليب وهو يجلس مُضيفًا استغرابات جديدة إلى استغراباته السابقة، كان أبسطها إن كان هذا الشخص الذي يجلس أمامه رجلاً أم امرأة! لقد كان إبراهيم طويلاً عريضًا كباب مسجد مملوكي، ذا بشرة فاحمة مُلتمعة، وله عينان كحيلتان وشعر مُضفّر، وبات واضحًا أن هُناك ثقبين صغيرين بأذنيه، سكنهما قرطان ذهبيان، ما أوحى لفيليب بأنه في حضرة امرأة مُسترجلة، لكن هيبته وقوة تأثيره في الفلتفين حوله، جعلته أميل إلى الرجل المُخنث. غاص شعاع ساحر أطلقته عينا الرجل في بؤبؤي عيني الضابط الإنجليزي، مُستقرئة ومُفتشة قبل أن ينطق ببرود كلمات صادمة، هبطت كالصاعقة.

- مستر فيليب.. أنت هُنا لتحقق لك أحلامك. لكل إنسان أحلام مشروعة. أعرف أن طموحات ماريا واسعة، وأن راتبك البسيط هُنا لا يكفي أبدًا لأن تُغرقها بالهدايا والفساتين والمجوهرات التي تفرح بها كُل امرأة، وأعرف أيضًا أن هذا الراتب، لا يُمكنك من تحقيق أمنية حبيبتك بابتياع بيت مُناسب في برمنجهام. لقد كان زواجها بك صعبًا، بسبب الفارق في المستوى الاجتماعي، ولولا إصرارها الجارف عليك ما وافقت أسرتها.

- من أين عرفت هذه المعلومات؟

سأل فيليب في وجل، فأجاب إبراهيم مُبتسمًا قبل أن يقول:

- دعك من هذا. أليس ما أقوله صحيحًا؟

هز فيليب رأسه بالإيجاب، فقال إبراهيم الذي بدا أكثر رقة:

- كما قُلت لك مستر فيليب. سنُحقق لك أحلامك. هذه مُهمتنا. لا تقلق، نحنُ نُكنّ كُل احترام لبلادكم التي أنقذت هذا الوطن من التفسخ والهمجية، وعبادة السُلطان العُثماني، الذي كُلما ضرط ضرطة في الأستانة هلل الأغبياء في بلادنا تبجيلاً وتفخيمًا.

ابتسم فيليب وهو يتناول كأسًا من النبيذ، صبها له إبراهيم قبل أن يُعلق سائلاً:

- أنت تتحدث بصيغة الجمع. مَن أنتم؟

كرر الشيطان وساوسه في عقل الضيف، عن هذا الكائن الغريب الذي يفهم في السياسة، ويعتني بالفن، ويمتلك قدرات فذة في جمع المعلومات عن الآخرين. مَن يكون؟ وكيف يعمل؟ ومن أين يُنفق بكُل هذا البذخ؟ ولماذا كُل هؤلاء الحرس من حوله؟ والأهم من كُل ذلك هل هو رجل أم امرأة؟

- ستعرف كُل شيء في وقته. لكن عليك أن تثق تمامًا بأننا لا نرى في هذا البلد خيرًا إلا بكم ومعكم، وأننا سنقف إلى جوارك، مثلما نقف إلى جوار كثير من ضباط الإنجليز، وسنُلبي كُل ما تطلب.

رشف فيليب رشفات مُضطربة من كأسه، سائلاً في تردد:

- وما هو المطلوب مني تحديدًا؟

أجابه المسؤول في برود:

- لا شيء الآن. لا شيء.

وأردف:

- عندما نحتاج إليك، فإننا لن نطلب منك شيئًا، لأننا نثق بأنك ستساعدنا، ما دمت قادرًا على ذلك باعتبارنا أصدقاء.

نظر فيليب بريبة إلى وجه مُحدثه مُكررًا:

- لكنني لن أقبل أي خرق للقانون الذي من المُفترض أن أطبقه بصرامة على الجميع.

ورد إبراهيم سريعًا:

- بالطبع لن تقبل، ونحن سنساعدك في تعقب الخارجين عن القانون في الأزبكية وغيرها.

تظاهر فيليب بالجدية وهو يُكرر سؤاله:

- أنت تقول نحن نحن، وأنا لا بد أن أعلم مَن أنتم؟ لأحدد إن كان يُمكنني التعاون معكم أم لا.

ابتسم إبراهيم ثُم قهقه بصوتٍ ناعم قبل أن يقول:

- نحنُ ملوك العالم السفلي بهذا البلد. قمعونا قرونًا، فضحونا، وساموا العذاب، وجاء الوقت أن نتحرر. قوانيننا غير قوانينهم، وشرائعنا ضد شرائعهم، وعالمنا مختلف عنهم. نحن الشياطين في أنظارهم.

رنَت الكلمة في أذني فيليب، مُصدقًا أن مُحدثه يُمكن أن يكون شيطانًا حقيقيًا، لكن ذلك الشيطان فاجأه سائلاً، إن كانت لوحات القصر وتحفه قد أعجبته أم لا، فهزَ رأسه تأمينًا.

امتدت كف إبراهيم الخارجة من عباءة حمراء، متبوعة بأسورة ذهبية ثقيلة، إلى سكين صغير إلى جواره، وأمسك ثفاحة صغيرة قطعها إلى أربع قطع، ثُم قدمها إلى ضيفه، سائلاً:

- ألا تحب الفتيات السمراوات؟ ألم تُجرّب المرأة السمينة؟

هز فيليب رأسه نافيًا، فصفّق إبراهيم ثلاث تصفيقات عالية، لتأتي سيدة طويلة ونحيلة، سمراء كتربة الأرض، ومالت بوجهها على إبراهيم الذي همس في أذنها، لترد له الهمس بآخر قبل أن يوجه حديثه إلى فيليب قائلاً:

- لدينا حبشية عنيفة ومُذهلة، وأخرى مغربية دون الخامسة عشرة، وأخرى مصرية من الريف. ستذهب مع حوا لتشاهدهن جميعًا، وتختار من تريد. ولا تقلق من شيء. هُن نظيفات تمامًا. أنا مسؤول عن ذلك.

تردد فيليب قليلاً وران على وجهه شيء من الخجل، لكن إبراهيم بادره:

- إنني أعرف كم تُحب زوجتك، وهي أيضًا تُحبك، لكن لا بأس إن عبثت مرة أو مرتين، وعلى كُل حال ما يحدث عندي لا يعرفه مخلوق.

والتفت إلى السيدة الطويلة الواقفة إلى جواره قائلاً:

- هيا يا حوا. أكرمي حضرة الضابط وأسعديه. أريده راضيًا عنا تمامًا.

مدت يدها مُصافحة لتجذب كف فيليب، وتشده ليقف معها في طاعة، وهو مذهول من هذا المُخنث، الذي يرْش السعادة والمُتعة والمال بكل هذا الكرم غير المُنتظر. سار معها نصف ثمل، وهو الأقصر قليلاً، وشعره الأصفر يتهادى على وجه برتقالي، بينما كانت تتمايل هي في غنج حتى قادته إلى ممر طويل، انتهى بغُرفة مُضاءة بألوان خافتة، يتوسطها سرير نُحاسي له ناموسية حريرية، وإلى جواره منضدة صغيرة، عليها صحون الفاكهة وكؤوس الخمر. وقفت حوا على باب الغرفة، ثُم سألته في رقة:

- أيهن تفضل في البداية؟ إن كان لك أن تقبل نصيحتي. لا تبدأ بالحبشية، سترهقك وستستنزف طاقتك. ابدأ بالمغربية، ثم عرّج على المصرية، واجعل مسك الختام الفتاة الحبشية.

ابتسم فيليب في رضا، وهز رأسه موافقًا على الرأي السديد.

***

عدل الشاب الأسمر ذو الغمازتين طربوشه، وهو يقف مُنتظرًا أن يفتح له باب المنعم الكبير، الذي يحتل قصره مكانًا مُتميزًا على نيل القاهرة. نظرت عينا حسن أفندي إلى الأرض تأدبًا، عندما فتحت جارية سوداء الباب للطارق المُنتظر، والذي لبى دعوة عاجلة من الباشا للحضور.

كان عبد الغفار باشا شكري ممن يُحبون الاستئناس لآراء الآخرين ومعلوماتهم، عند اتخاذ أي تحرك في حياته، وكان حسن أفندي المحرر بصحيفة المُقطم واحدًا من هؤلاء، خاصة أنه يعمل في صحيفة موالية للاحتلال، وعلى مقربة من صناعة القرار في هذا البلد، الذي صار مقاطعة بريطانية، بعد عشر سنوات من تمركز أربعين ألف جندي بريطاني في أنحائه. فكر الباشا كثيرًا فيما دعاه إليه عدد من زملائه أعضاء مجلس شورى القوانين، لإصدار بيان تأييد للخديو في إعلانه لجوانب القصور في خدمات الجيش البريطاني بمصر، بعد زيارته الأخيرة لأسوان.

كانت الواقعة صاخبة ومُفاجئة، عندما كتبت صُحف بريطانيا عن لقاء خديو مِصر بالجنرال كيتشنر، إذ انتقد الخديو عباس حلمي سوء تنظيم القوات البريطانية المتمركزة في جنوب مِصر، وهو ما اعتبره اللورد كرومر المعتمد البريطاني بالقاهرة إهانة قاسية للدولة المُحتلة. بالطبع فرح المصريون بجرأة الحاكم الشاب وتمرده على ذوي الوجوه الباردة، وغفروا له بنوته لآخر سبق أن اتهموه بالخيانة، لأنه قبل دخول جيوش الإنجليز إلى مِصر تحت زعم مواجهة المارق غرابي.

جلس حسن على الأريكة الزرقاء التي تتوسط غرفة الضيوف متأبطًا جريدته، ومُنتظرًا قدوم الباشا المُستشير في اهتمام ظاهر. كانت للرجل فضائل واضحة عليه، رُبما كان أبرزها توسطه لتشغيله في الجريدة الموالية للإنجليز، بعد أن التقى به على مقهى «متاتيا» في العام الفائت. سألت الجارية السوداء الأقرب للعجز ضيف الباشا عما يشربه، فشكرها في تأدب مُتدثرًا بالصمت والتأمل، واستحضار ما ينبغي قوله للباشا. توقع حسن أن يسأله الباشا عن واقعة أسوان، وعما يجب عمله لمؤازرة الخديو في هذا الشأن، واختار الصراحة مُفضلاً أن يخبره بأن كُل ما يفعله الخديو، مُجرد محاولات لحفظ ماء وجهه.

استوحش غيابه عن أبيه الذي طال ثلاث سنوات، بسبب مُقاطعة الأب له بعد تركه للأزهر، واختياره لتعلم اللغة الإنجليزية، والعمل كاتبًا في صحيفة أسسها الشوام. تذكر ما دفعه إلى هجرة الأزهر والجبة وعلوم الفقه، عندما رأى شيخه الأول الشيخ أبا العينين السمالوطي، يقف أمام الخديو توفيق تاليًا قصيدة مدح من تسعة وتسعين بيتًا، خلال استقباله لمجموعة من عُلماء الدين. كان باديًا أن الخديو الذي لا يفهم جيدًا في أصول اللغة العربية قد سئم طول القصيدة، حتى إنه قاطع الشيخ المادح سائلاً عن عدد أبيات قصيدته، فلما قال إنها تسعة وتسعين بيتًا، سأله في اهتمام: ولماذا لم تُكملها مئة بيت؟ ففاجأه قائلاً: «لأن هذه مهمتكم»، وفهم الخديو مراد الشيخ، فأمر بمنحه بيتًا كبيرًا. بعدها أيقن حسن أن دُعاة الدين هُم تُجاره، وأن علوم الأزهر لا يُمكن التعويل عليها لإصلاح الناس. من يومها كان قرار حسن هو منهج محمد عبده نفسه، في عدم مقاومة الاحتلال بالقوة والعنف، والتركيز على التعليم والمدنية لإحداث تغيير حقيقي في المجتمع.

لاحظ حسن أن رأس الغزال المُحنط على الجدار المُقابل ينظر إليه باهتمام، عندما طال انتظاره لقدوم الباشا، ولمح بعد دقائق فتاة جميلة تقترب منه لتسأله مرة أخرى عما يشرب. لاحظ أنها مألوفة لديه، وتذكر أنه لمحها قبل أيام بالرداء الأزرق والعود الرقيق ذاتهما، إلى جوار فتاة أخرى من فتيات إبراهيم الغربي بجوار مقهى السعادة. العينان ذاتهما والوجه البريء الذي سجل تفاصيله، عندما دفعه الفضول للسؤال عن ملك الليل. سألها في اهتمام عما دفعها لأن تقف إلى جوار بيت العايقات الخاص بالغربي، فقالت في وجل إنها كانت تُحضر مياهًا لسيدتها، والتقت جارية تعرفها من قبل، وفوجئت بعملها في ذلك المكان. سألها عن اسمها فقالت «نُزهة»، وتوردت وجنتاها بشفق الخجل والاضطراب عندما كرر السؤال في لطف ظاهر عن بلدها. لمح حسن

وهو الساحلي الخبير بوجوه الناس غُربة تلك الفتاة، من ربطة طرحتها السوداء التي أخفت جدائل طويلة من الشعر الباهر. غاب بنظراته الفاضحة في عينيها مُتوسطًا طيبة وحنانًا وأنوثة عالية في مُحدثته التي لم يلمحها من قبل.

- ماذا تعملين؟

سألها، فقالت في رضا:

- كُل شيء.

ثُم صدمته عندما قالت إنها جارية، اشترتها السيدة أم الحُسن من أحد الجلابين في الشهر الماضي.

استرجع حسن كلمات سابقة سمعها من الباشا، حول ضرورة مُحاربة الرِّق في صعيد مصر، ثُم تذكر خطابًا ألقاه في مجلس شورى القوانين، حول وضع عقوبات رادعة للجلابين والتجار، واستغرب أن يظل هذا الباشا بعد ذلك مُقبلاً على التعامل مع واحد من تُجار الرقيق. سحرته عيناها الناعستان، واستنهض رغبة اللثم داخله ذلك الجيد المرمري اللامع، الذي بدا لائقًا برأس جميل يحمله باتزان. كررت بيضاء الوجه سؤالها عما يشربه، ناقلة قول سيدتها إلى الضيف بأن الباشا ما زال في حمامه الصباحي، طلب شايًا ساخنًا وكوبًا من الماء، ثُم سألها إن كانت تُجيد عمل الشاي، فقالت إنها تعلمته من مأمونة. تذكر العجوز السوداء التي فتحت له الباب وعلم أنها المقصودة. تساءل إن كانت هذه البائسة هي الأخرى جارية، ومصمص شفتيه في انزعاج.

لم تكُن نُزهة أول فتاة تسحر لُب الكاتب بصحيفة الفقطم، فسبق أن هام الشاب بابنة شيخه في الأزهر، عندما لمحها خلال مأدبة أقامها له الشيخ فور وصوله للتعلم، وسبق أن انجذب حسن أفندي لأرملة الخواجة بنايوتي، صاحب النُزل الذي سكن فيه وقت تعلمه اللغة الإنجليزية بالأزبكية، ومن قبل أحب أيضًا فتاة يافعة كانت أمها جارة لأمه، لكنه لم يتجاوز مرحلة التعلُّق، ولم يعرف أصول الهيام الذي طالما قرأ عنه في الكُتب والحكايات.

عاودته البهجة عندما دخلت صينية الشاي بين يدي نُزهة، التي بدا وجهها أكثر جرأة وأقل خجلاً، وهي تضع الصينية النحاسية على المنضدة الصغيرة أمامه. كان مُشتاقًا لمد الحديث مع الفتاة الجميلة، التي شعر بألفة غريبة في كلامها الأقرب للبراءة. شكرها بابتسامة هادئة مُحذرًا إياها من الاقتراب مرة أخرى من بيت الغربي لأنه سيئ السُمعة، فاجأته أنها تعلم ذلك لكن شوقها إلى صاحبتها المغربية دفعها دفعًا للتوقف والحديث معها.

قال حسن للفتاة:

- إن الناس لا يملون الكلام وإلصاق الأوصاف المُنكرة بكل من يقترب من موقف شُبهة، فلا تتورطي في مثل هذه المواقف.

ابتسمت وهي تهز رأسها مُطيعة قبل أن تقول في عفوية:

- حاضر يا سيدي.

أضاف حسن مُرتديًا قناع الناصح:

- لا تُصاحبي بغيًا، لأن القيل والقال سيطالك.

فكررت:

- حاضر يا سيدي.

انزعج حسن من ردها، وقال في هدوء إنه ليس سيدها ولا حتى الباشا سيدها، لأنها حُرة، ثُم ابتسم ويمينه ترفع كوب الشاي الساخن في تلذذ وهو يقول:

- لقد ولدتِ حرة، وليس من حق أحد أن يدعي امتلاكك.

نظرت نزهة بحدة إلى الضيف، وحاولت أن تنطق لكنها عادت إلى السكوت، لأنها لم تجد ما يمكنها قوله. إنها لا شيء دون الباشا وحرمه. لا أهل ولا أوراق ولا راعي. لا علم ولا فهم ولا خبرة بأي شيء. حاولت أن تقول لحسن إنها جارية بنت جارية، قطعة أثاث فاخر توضع حيث يُريدون لها أن توضع، فستان جميل جاهز لأن تلبسه كل من تستطيع أن تدفع ثمنه. حاولت أن تقول له: «أنت مُخطئ يا سيدي، فأنا لم أولد حرة، ومَن جلبني إلى هذا البلد الغريب اشتراني، والسيدة الكبيرة التي أدخلتني هنا لأعمل كل شيء، دفعت مُقابلي بضع مئات من القروش». فكرت نزهة للحظات في كلمات الضيف الأفندي، المُبتسم مثل أصحاب الوجوه المُشرقة من الأجانب، ثم غادرت مُسرعة وهي تسمع خطوات هُبوط الباشا على سلم القصر.

وقف حسن ترحيبًا بالباشا الذي بدا مُنتشيًا ببذلة إنجليزية جديدة، أضفت مهابة ورونقًا على هيئته، وأشار إليه ليجلس، ثم سأله عن أحواله وأحوال البلد، قبل أن يطلب مشورته في إصدار بيان لتأييد الخديو في انتقاده لأوضاع الجيش البريطاني. قال له حسن في اعتزاز مانح النصيحة:

- مثل هذا البيان لن يفيد، ولن يُغير من الأمر شيئًا. لقد غضب الإنجليز على الرجل، واعتبروه مارقًا عن إرادتهم، مُخالفًا لما ألفوه من والده، وهُم يُدركون تمامًا أن ارتكانه إلى السلطان العُثماني لا يُقدم أو يؤخر. إن الإنجليز لن يقبلوا إلا باعتذار رسمي من الخديو عما بدر منه، ووقتها ستضطرون أنتم أيضًا إلى الاعتذار، وهذا في ظني لا يليق بجنابكم.

ابتسم عبد الغفار باشا وقال مُتفقًا:

- معك حق. مَن يستتر بالخليفة العُثماني عارٍ.

وضع الباشا ساقًا سمينة فوق أخرى وأشعل سيجارة ماركة كيريازي فريريز، ونفث دخانها إلى أعلى، وهو يسأل حسن أفندي عن رأيه في تأسيس حزب سياسي، يُمثل أصحاب الأطيان، فردَّ بأن الوقت غير مُناسب، خاصة في ظل مُشاكسات الخديو المُتكررة مع اللورد كرومر.

سأله عن الظروف الاقتصادية فأبدى حسن اشمئزازًا من الأوضاع، مُحذرًا من أن عدد الوكالات التجارية في ازدياد شديد، وكثير من المرابين الأجانب أسسوا شركات تجارية للأقطان والزيوت على نحو يدعو إلى الريبة. حكى حسن للباشا أن صنوفًا من الطليان والبلجيك والأوروبيين المُغامرين، قدموا بزوجاتهم وعائلاتهم إلى مصر طلبًا للرزق، في ظل كساد كاسح يضرب بلادهم. وقال حسن وهو يعي أهمية الأرقام في حسابات الأثرياء:

- لقد وصل عدد الرعايا الأجانب في البلاد إلى اثنين وثلاثين ألفًا.

- ياااااه. اثنان وثلاثون ألفًا؟ هذا أكثر مما توقعت.

قالها الباشا وهو يهز رأسه تأثرًا، قبل أن يضيف:

- إن هذا يعني أن أؤجل بيع أراضي المنيا.

واستطرد قائلاً:

- إن البيع بعد عدة شهور سيكون أفضل بلا شك.

وشكر الباشا ضيفه الذي بدا مُتعجلاً الرحيل، بعد أن شعر بإحباط شديد من اهتمامات رجل كبير، يحترمه الناس ويثقون في آرائه ومواقفه. صافح الباشا في برود ووقف خارجًا، عندما لمحت عيناه شبح نزهة مارة في الخلف.

***

حلت ضفيرتها البُنية التي تقصفت نتيجة جذب غثمان الطوشي لها صباحًا، بعد أن أخبرته أنها تشعر بآلام مُبرحة أسفل بطنها، وأنها ستتعطل عن العمل حتى تُشفى. كانت حوا السودانية قد شكت إلى إبراهيم الغربي أن نبوية لا تلتزم بعملها مُنذ عدة أيام، وأنها تتمارض، فطلب إخضاعها لكشف حلاق الصحة، والذي لبى استدعاء من بيت السعادة ببولاق ليُقرر أن المتمارضة سليمة، وأن صحتها تتحمل العمل.

كان الشاب المُخنث يجلس على أريكة ناعمة في منزله الفخيم بالأزبكية، وأمامه طاولة شطرنج منصوبة، وكأس من النبيذ، وضابط إنجليزي شاب، عندما مالت حوا السودانية على أذنه شاكية إليه الفتاة المغربية، التي أسماها نبوية لذة. لم تلحظ الجارية السوداء تغيرًا في الوجه الناعم، وسمعت منه كلمة واحدة هي «غثمان»، عرفت منها أن ساعده الأيمن سيتكفل بأمر الجارية.

في غرفة واسعة امتلأت بملاءات وحصر ومخدات وخزانات وسيدات بألوان شتى، فوجئت نبوية برأس غثمان الأسود يطل باحثًا عنها، قبل أن يصيح بصوتٍ جهوري:

ـ تعالي يا بنت.

مضت خائفة وهي تلمح نظرات الشفقة في عيني صاحباتها، والمُكدسات نصف عرايا في غرفة البيت الكبرى. في تلك الغرفة كانت الفتيات مُستلقيات بضع ساعات، استعدادًا لعمل شاق يبدأ في الخامسة مساء، برقصات مُحددة في مقهى السعادة، تتبادلها ثلاث فتيات، مع قيام بقية النسوة بتقديم المشروبات للزبائن، ثُم يتم توزيعهن على الراغبين في المُعاشرة، من خلال تذاكر تمنحها حوا السودانية لكل طالب مُتعة.

ـ العفو والسماح يا سيدنا.

صاحت إحداهُن بالمارد المُخيف الذي أمسك بكفه قفا نبوية، لكن نظرة رادعة من عينيه الجاحظتين، كانت بمثابة رد باتٍ لم تجرؤ معه أن تُكرر طلبها. كان قميص النوم الغامق مُتهدلاً على جسد الفتاة المُتناسق، المُعبر عن أنثى فائرة لم تلحق بعد عقدها الثالث.

دفعها دفعًا خارج الغرفة في ممر طويل ضيق ينتهي بسلم حلزوني هابط، يوصل إلى قاعة مُربعة دون نوافذ، أشبه بزنازين انفرادية. كانت القاعة خالية تمامًا من الأثاث، وعلى جدرانها الحجرية سلاسل مُعلقة بمسامير صدئة، ما أجج الهلع في روح الجارية. سحب غثمان إحدى السلاسل ليلفها حول جسد الجارية المُرتعش، بعد أن سقطت عنها بقايا قميص النوم، والذي تمزق خلال دفعها على السُلم. بدت نبوية مثل قطعة بطاطا مُحمرة توًا في قدر كبير. لاحت في عيني المارد المُفزع رغبة قرأتها نبوية بذكاء وخبرة، لكنها لم تعرف كيف يُمكنها أن تستثمر ذلك للإفلات من العذاب. بدا غريبًا مُثيرًا لغثمان، الذي رغم اعتياده رؤية أجساد نساء عاريات، فإنهن لم يُثرن من قبل شهوته. شقت خياشيم الرغبة لدى الرجل الكهل فريسة طازجة، بعد أن قرأ في عينيها فزعًا شديدًا، ذكره بوقائع الوجع وهو صبي في تل الجنادرية بأسيوط. سرت في عروقه رغبة عارمة في احتضان ذلك الجسد البرونزي، المصبوب في قوالب نموذجية تُظهر الجمال الأنثوي، وود لو يأكله أكلاً. تخيل أنها نائمة تحته تئن وتتأوه استعذابًا وتحفيزًا للمزيد، بينما هو غائب في اللذة. تصور أن صُراخها وبكاءها يستنطقان صلابة عضلاته ليضغط أكثر، مُطوحًا بها في فراديس من النشوة. قالت بجسدها الفائر ونهديها الواقفين شامخين ما لم تقله نساء وفتيات عديدات، عاينهن وشاهدهُن في مواقع شتى طوال عقود. حاول أن يستحث عروقه أن تنبض دون أمل، وتمنى لو يسخطه الله فأرًا قادرًا على ملامسة أنثاه.

لثمت نبوية كفه مُستنجدة، حين تذكرت حكاية سمعتها يوم دخولها إلى بيت الغربي عن جارية أحرقوا صدرها ووركيها بالنار، لأنها تمردت. لقد ماتت هذه الجارية بعد سنتين من الواقعة حسرةً وحُزنًا على جلدها المُحترق. وقف غثمان مبهوتًا بملمس الدموع الساخنة للجارية العاصية، والمُنسكبة على أصابعه، وشعر ببرودة شديدة تجتاح قلبه، فاكتفى بصفعها صفعتين عنيفتين قبل أن يُعيدها مرة أخرى إلى حجرتها، بعد أن تعهدت له بأن تعمل حتى تموت.

«ما طعم اللذة؟»، سأل غثمان نفسه وهو يبحث عن معنى لجمال محظور وسعادة ممنوعة. لو كان عبدًا فقيرًا يحوز بضع لُقيمات، لما تعذّب كل هذا العذاب. أهله جميعًا من العبيد، لا جديد في ذلك، لكنهم رجال. كثيرون حوله ليس لهم شأن ولن تتأثر البشرية بغيابهم، لكنهم رجال. أبناء هذا البلد من التجار وأصحاب الحرف والأفندية والفلاحين يعانون شظف الحياة وبؤسها، لكنهم رجال. رجال يعشقون ويتمتعون ويعتلون نساءهم.

تذكر غثمان أن سيده لا يحب النساء. لم يَر إبراهيم الغربي يومًا فوق حُرمة. لم يُبدل عشيقاته وهو القادر أن يختار كل يوم واحدة. لم يَدخل إلى فراشه حبشية أو تركية، رغم أنه يمتلك منهن العشرات. قال غثمان لنفسه إن سيده رغم ذلك سعيد. سعيد بتلك الثروة العظيمة، وهؤلاء الأتباع الخاضعين. لقد سأله يومًا عما يطمح إليه، فأخبره أن حلمه هو أن يستعيد الحُكم. «هذه البلاد مملكة أجدادي، كانت خيراتها جميعًا لنا. كان أي حاكم للشمال يجب أن يوقر ويحترم ملوكنا في الجنوب، ويخطب وُدّهم، ويُبدي لهم النيات الحسنة اتقاءً لغضبهم. كُنا سادة الأرض حتى جاء أولئك العرب، فأذلونا وقهرونا واستولوا على خيرات البلاد والعباد. ما أطمح إليه هو أن أسترد عرش أهلي. وسأفعل، وسنبقى مُتحكمين في أمورها إلى الأبد». هكذا قال له إبراهيم الغربي.

تعلمت نبوية الدرس جيدًا. ليس من حقها أن تشكو، وليس من حقها أن تتوجع. لا مجال لديها لتستريح أو تحصل على إجازة. هي جارية، مملوكة، أمَة، وقدر الأمَة أن تُستعبد دائمًا. دائمًا هُنا لا تعني سوى دائمًا وأبدًا. أيقنت نبوية أنها لا شيء صغير. في عالم اللا شيء هُناك لا شيء كبير وآخر صغير. غثمان الطوشي وحوا السودانية لا شيء، لكنهما لا شيء كبير، بمعنى أن غيابهما يؤثر بقدر ما، لكنه قابل للتعويض الفوري. في مملكة إبراهيم الغربي الجميع تروس تدور في ماكينة ضخمة دون توقف. العمل دؤوب والإخلاص حتمي، والإتقان أمر لا يحتمل الاجتهاد الشخصي. الكُل هُنا واحد، والواحد هو إبراهيم الغربي. الملك غير المتوج، ابن الأصول، القادم من الجنوب بذهب لا مثيل له ورجال لا آخر لهم، وأحلام بالتمكن والتمدد، والتحكم في بلد سلّمه أهله بصراعاتهم واختلافاتهم هدية إلى ذوي البشرة الفاتحة.

من يديها أخذتها حوا، تلك السوداء باردة الوجه، جامدة الملامح، والتي تعبد سيدها مؤمنة أنه يعرف الغيب ويسري في دمه إكسير القوة الخارقة. أبلغتها أن حصتها الليلة ستكون أحد عُمد الصعيد الزائرين، والمسيو فرانسوا روسو صديق الباشا، وتاجر طلياني يزور القاهرة للمرة الأولى.

- عظيم أن غثمان لم يتعجل ويشوه وجهك أو يحرق صدرك. مكتوبة لك السلامة. هكذا قالت لها المسؤولة عن البنات في مملكة إبراهيم الغربي.

***

خلفها سار مُتوجسًا، بعد أن لمح بلغتي رجل تحت جلباب أسود حريمي ترتديه السيدة المُتعجلة. كان حسن أفندي يعلم أن السيدة التي تُغطي وجهها وتُغرق حاجبيها وعينيها بالكحل الأسود ليست سيدة، وإنما هي صديقه مُدرس اللغة العربية أحمد سليم. من السيدة زينب إلى بركة الفيل، ومنها إلى شارع الخليج، مشى خلفه بخُطى وئيدة باحثًا عن مغزى تنكر صديقه في زي امرأة.

كان أحمد سليم هو الصديق الذي خرج به حسن من دراسته بالأزهر، وقد كان يُشاركه نقمته على الشيوخ المُعممين ويكرههم كراهية التحريم، لكنه كان يأخذ على حسن اختلاطه بالإنجليز وصداقته لبعضهم.

على امتداد نظره لاحظ حسن واحدًا من الموظفين الإنجليز يسير باهتمام خلف صديقه، الذي رمى أكثر من نظرة إغراء نحو الرجل. كان جسد أحمد ضئيلًا ورقبته نحيلة، واستطاع بمشيته المُتمايلة أن يوهم التابع له بكونه امرأة لعوبًا، إلا أن ارتداءه بُلغتين رجاليتين كان كفيلًا بكشفه وتسليمه إلى السلطة بتهمة الإرهاب. فكر حسن في أن صديقه يُخطط لقتل الموظف الأجنبي، بعد استدراجه داخل حارات ضيقة تصب في شارع

الخليج، لذا فقد مدّ خطواته حتى حاذاه ثُم أمسك يديه قبل أن يجذبه إلى طريق آخر ويدفعه للجري بعيدًا.

تنحيا في حارة جانبية هربًا من عيني التابع المشتاق، وبدا أحمد غاضبًا وهو يدفعه في كتفه لأنه أفسد عليه صيده. وبُسرعة خلع بُرقعه والجلابية السوداء عن أخرى بيضاء تليق برجل، ليبدو أقل أناقة من حسن، الذي كان يرتدي بنطالاً من الصوف وقميصًا قطنيًا تحت جاكيت بُني، غالبًا ما يُلازم الأفندية، وفوق رأسه طربوش أحمر قصير اشتراه للتو قبل ساعات. اتجها معًا إلى مقهى كبير صادفهما بعد خطوات. جلسا والعتاب ثالثهما، وطلبا من النادل شايًا وحلبة ونارجيلتين، وانشغلا في حوار هامس.

قال أحمد:

- لقد أفقدتني صيدًا ثمينًا.

وتابع:

- لقد تبعني من أمام قصر عابدين بعد أن غمزت له بعيني، لكن يبدو أن أجله لم يحن بعد.

ابتسم حسن وقال له:

- يا أحمد، لا بد أن تحمد الله لأن أحدًا لم يكشفك.

ثُم أشار إلى قدميه وهو يقول باسمًا:

- أنت تلبس بُلغة رجال وتبدو كرجل مُخنث لا كامرأة لعوب.

ارتشف أحمد رشفة من حلبته، ثُم أعقبها بسحب نفس طويل من نارجيلته وصاح مُبديًا حدائق من الثقة في ذاته:

- مَن قال لك إن أحدًا سيكشفني؟ ليسوا باهرين كما تتصور. هُم أغبياء جدًا، ونحنُ في أول الشهر، وكانت محفظة الرجل معمرة براتبه وكُنا سنرزق.

- هذا خطر.

ردّ حسن على صديقه.

الخطر كلمة عرفاها سنوات وزارت كلاً منهما كثيرًا. كانت صفوف من المصريين الغاضبين قد انضمت بعد دخول الجيش البريطاني مصر سنة ١٨٨٢، إلى خلايا سرية متعددة وغير مُنظمة لقتل الإنجليز، وكان منهم صبي صغير هو أحمد سليم، والذي تعلّم وقتها عدة حيل لاصطياد الجنود والموظفين الإنجليز وقتلهم في حواري القاهرة. بعد سنوات تفككت مُعظم الخلايا والجمعيات السرية، بسبب خيانات البعض وصراعات القيادات فيما بينهم، ووجد أحمد سليم نفسه وحيدًا يُمارس هوايته القديمة، طلبًا لمحافظ الأجانب المحشوة بالبنكنوت.

ولعدة مرات دارت حوارات بين حسن أفندي الكاتب بصحيفة المقطم، وأحمد أفندي سليم المُدرس بمدرسة الخديوية، حول مغامرات اصطياد الأجانب، وأصر أحمد أن يُسميها جهادًا وكفاحًا ضد المُحتلين، بينما اعتبرها حسن أفندي حماقة؛ لأنها لن تودي أبدًا إلى خروج الاحتلال. في يوم ما دعا أحمد سليم صديقه لمأدبة عشاء ضخم في أحد مطاعم الأزبكية، وعندما سأله حسن عن المال الذي سيدفعانه، فأخبره أنه اغتال خواجة ثريًا كان سكرانًا في وش البركة وسرق محفظته، ورفض حسن المأدبة واصفًا فعلة صديقه بأنها سرقة، لكن منطق أحمد سليم كان واضحًا وصريحًا، بأنه يسترد أموال المصريين على طريقته.

رغم تلك الخلافات بين الرجلين، فإن أحدًا منهما لم يحمل أي ضغينة تجاه الآخر، ولم يشُك أحمد لحظة في أن صديقه الذي لديه أصدقاء من الإنجليز والأجانب، من الممكن أن يشي به.

قال حسن لصديقه إنه مُستاء بشدة من الحملة الكريهة التي يقودها الشيخ علي الصعيدي ضد قرار إلغاء الرق.

- هل تُصدق أن الرجل يخطب في الجامع ليُحرّض الناس على استعباد بعضهم البعض، مُهددًا ولاة الأمور بالخروج من الملة في حال تحريمهم تجارة العبيد؟

هرش حسن في شعره بعد أن وضع الطربوش إلى جواره، وأضاف:

- لقد عرفت أن الشيخ الصعيدي طلب من أعضاء بمجلس شورى القوانين، أن يقرروا إلغاء مصلحة تحرير العبيد؛ لأنها تُكلف البلد كثيرًا.

امتعض أحمد قائلاً:

- أنا أرفض أساسًا أن تُسمي هذا الرجل شيخًا، لكني لا أقبل أن يكون تحرير الرقيق بقرار من الإنجليز. أنت تعرف أنهم يتاجرون بهذه القضية كأنهم منحونا الحرية.

- إنني أعي ذلك تمامًا.

ردّ حسن، ثُم أضاف:

- لكن لا ينبغي أن نبتعد عن الصواب، لا لشيء سوى لأن الإنجليز دلونا عليه.

وشرب رشفة طويلة من شايه ثُم قال:

- هذا زمن لا يُخدم فيه الوطن إلا بالعلم.

كان المقهى يغُص بأصحاب الجلابيب متنوعة الألوان، والذين غطى نصفهم رؤوسهم بطرابيش جديدة حمراء، من بواكير الصناعة المصرية عقب أيام قليلة من قرار الخديو بحظر استيراد الطرابيش، بعد أن أنشأ مصانع وطنية لتصنيعها. وُضعت المقاعد الخشبية على هيئة حلقات غير مُكتملة، توسطت كل منها منضدة صغيرة من الخشب. كان لافتًا للصديقين جلوس رجل مُعمم لديه لحية سوداء وبشرة نيلية، وبين يديه جريدة «وادي النيل» بورقها الأصفر الباهت، إلى جوارهما، وحوله تحلّقت مجموعة من أصحاب الوجوه البائسة، وكان من الواضح أنه يقرأ لهم أخبار مصر والعالم.

ابتلع حسن باقي مشروب الحلبة، وعيناه تُتابعان عجوزًا أجنبيًا يعبر الطريق، ثُم قال لحسن:

- أراك تُردد مُبررات شيخك وقدوتك الإمام محمد عبده، الذي صار صديقًا وحبيبًا للورد كرومر.

- يكفيه أنه قاوم ووقف ضد الخديو توفيق وساند عرابي وكان مصيره النفي والتشريد. لقد جرّب الرجل الحرب والعنف فلم يصل إلى شيء، فاتجه إلى العقل والإصلاح، وانتهى إلى أننا لن نتقدم ولن ننهض إلا بالعلم والمدنية.

قال حسن، وهو يضع طربوشه فوق رأسه مُناديًا على النادل.

ابتسم أحمد وهو يرد:

- لكل شيخ طريقة.

وهبّ واقفًا ليمنع صديقه من دفع الحساب، وأقسم كعادته بالطلاق أن يدفع هو.

***

ابتسم إبراهيم الغربي مُبديًا أسنانًا بيضاء مُتناسقة، وهو ينحني على يد سوداء ممدودة أمامه ليُقبّلها في استكانة. في ذلك اليوم الغائم كان إبراهيم حريصًا على تكوير ضفيرتيه الطويلتين، التي اعتاد أن يراهما

عارفوه داخل عمامة بيضاء لفها على رأسه بشكل هرمي، كما ارتدى على خلاف عادته جلبابًا بنيًا من الصوف دون أي بهرجة. حرص الشاب الملقب بإمبراطور مملكة الليل أن يبدو ضئيلًا وضعيفًا أمام والده الملك الأعظم، الذي يسجد له الناس في كروسكو إيمانًا بقدرته على تسخير الجان والشياطين طلبًا لما يريد. فضلًا عن تقديرهم لانحداره من عائلة ملكية توارثت حكم النوبة حتى عهد محمد علي باشا.

من القاهرة إلى قرية كورسكو جنوب البلاد، قضى إبراهيم ساعات في القطار يُفكر في سر الاستدعاء المفاجئ من والده الذي لم يره مُنذ عامين، متخوفًا من تجدد رغبة والده في تزويجه بسمراء ابنة عمه، تلك الفتاة النوبية ذات العشرين ربيعًا، التي يخشى عليها من العنوسة في كنف عمها ذي الثراء والنفوذ. قبل خمس سنوات وعند رحيل إبراهيم إلى القاهرة، عرض والده الملك الغربي تزويجه بسمراء، لكنه اعتذر بأنه ما زال صغيرًا، ثُم تكرر العرض بعد ذلك مرارًا وكان إبراهيم يفلت بدعاوى وحجج متنوعة، حتى وعى الأب تمامًا ما كان يعتقده من قبل، أن ابنه ليس رجلًا مُكتمل الرجولة، وأنه ضعيف الشهوة تجاه النّساء.

لم ينس إبراهيم كيف وُلد في بيتٍ شاهق علا تلأ من المروج الخضراء، واعتادت عيناه رؤية الخدم والحرس ينحنون صباحًا ومساءً أمام والده. كان صغيرًا عندما ماتت أمه الملكة نور ذات يوم، بمرض غريب زار جسدها فتورمت أطرافها شيئًا فشيئًا، حتى اضطر أحد الأطباء الإنجليز بأسوان إلى بتر ساقيها، ثُم بنت السيدة الوقور حولها سورًا من العُزلة، حتى أخبره والده يومًا أنها غادرت دون رجعة. على يديها عرف حنانًا لم يعرفه إنسان، لم يلبث أن بددته قسوة كريهة كانت تنطلق سهامًا من عيني والده، وما زالت كأنها عينا شيطان.

على مدى عقدين من الزمن عرف سُكان النوبة أن تاجر الرقيق الكبير المكني بالملك الغربي، له صلات قوية بحضرة السُلطان العُثماني في الأستانة، وبكثير من قناصل الدول الأوروبية، نظرًا إلى مدهم بعشرات الآلاف من العبيد الذين يتم اصطيادهم من السودان وبلاد إفريقيا. كان الرجل قادرًا على قتل كُل مَن يُهدد تجارته الرائجة دون تدخُل من رجال الخديو، الذين اعتبروه حاكمًا محليًا لإقليم كان مصدر قلق دائم للدولة.

صغيرًا كان لم يبلغ الحُلم عندما دفع إليه والده فتاة حبشية، لتُعلمه كيفية الاستمتاع بالنساء، لكنه لم يشعر بأي نوع من البهجة، وتلك الفتاة الفارعة ذات الجسد الأبنوسي تُداعب شيئه. ظل يومها مُكتئبًا من إطلال والده عليه وهو عارٍ لا يستطيع إثبات رجولته المُبكرة، في ظل حركات آلية لفتاة مأمورة لا تحمل تجاهه أي مشاعر. وحتى بعد أن لمس يومًا شعر إبطيه كان يشعر أنه عاجز عن التلذُذ بالنساء. رُبما كان إبراهيم يشعر أنه في حاجة إلى احتواء يُعوضه فراق أمه، ويُنسيه وحشية أبيه.

كان دُخان البخور يضوع في فراغ بهو واسع، زانته أعمدة مستديرة بتيجان نُحاسية، بينما جلس والده السمين ذو العينين القاسيتين، مُتكوزًا على كُرسي من الأبنوس المُحلى برؤوس تماسيح ذهبية، وعلى جانبيه عبدان أسودان. نظرة واحدة يعرفها جيدًا من هاتين العينين القاسيتين، جعلته يجلس على الأرض مُحنيًا رأسه في تذلل واضح.

لم يره في هذا الموضع أحدٌ من خدمه وحاشيته. ذلك الكبير المهيب الذي يأتمر بأمره عشرات العبيد، وتعمل لديه مومسات وضُباط وموظفون أجانب، هُنا لا شيء البتة. هُنا إبراهيم عبد يؤمر فيطيع، ويُدعى فيُجيب، وتتسع أذناه، وينحبس لسانه خوفًا واحترامًا.

ارتجفت أوصاله وهو يسمع صوت والده يعلو وعيناه تضبان شررًا غاضبًا:

- أنت ولد جاهل، مغرور، تحسب نفسك ملكًا. ما زلت أنا الملك الأوحد، وأنت مُجرد خادم ليس لك من أمرك شيء.

انحبس الكلام في حلق إبراهيم وهو يُغمغم في وجل:

- بالطبع مولاي. ماذا جرى لتعتقد أنني أخالفك في شيء؟

اتسعت حدقتا عيني الأب ذي القسمات الخشنة، التي لو رآها معارف ابنه لأنكروا أي صلة قرابة بينهما، قبل أن يقول:

- بلغني أنك تتجاوز حدودك وتسب السلطان والخديو في مجالسك الخاصة، وأنت تعلم أننا لا نريد استفزاز أهل البلاد مهما كان سند الإنجليز لنا، حتى نتمكن من التوسع والسيطرة على الناس. لا تتصور أن الناس بُلهاء ولا تغتر بسكونهم وسكينتهم. إن المصريين متى غضبوا لا تهمهم قوة جُند ولا بأس شلطان. هل تعلم أن هُناك كثيرًا من أهل البلد ملتفون حول الخديو عباس مُعضدين ومُشجعين؟

- أعرف مولاي. لكنني أثق أيضًا أن الإنجليز لا يأبهون بادعاء الرجل البطولة، وهُم مُصممون على تحطيمه أمام الناس قريبًا.

نظر الملك الغربي نظرة تأمل إلى هيئة ابنه قبل أن يرد:

- حتى يحدُث ذلك نحنُ أصدقاء الجميع، وفي خدمة الأطراف كافة. ما قلته أنت للضابط الإنجليزي يشي بكراهيتك للخديو أو السلطان العثماني، ونحنُ لا نُريد لأحد أن يعرف مَن نحب ومَن نكره حتى لا ينهار حُلمنا. ما زال الوقت مُبكرًا لكشف الأوراق حتى لأولئك الذين تحسبهم في صفنا.

فكر إبراهيم قليلاً كيف عرف والده، ثُم أيقن بأن لأبيه عيونًا ضمن حاشيته، فقال:

- آسف يا مولاي. لقد تصورت أن إعلان كراهيتي يُسهل تجنيد الضابط الإنجليزي لخدمة إمبراطوريتكم السرية. رُبما تسرعت في التعبير عن كراهيتي لأولئك البُلهاء، وأعدك بأن ذلك لن يتكرر.

من أمامه ناوله كأسًا نُحاسية مُمتلئة بخمر شفاف ورشف هو من أخرى، وسأل ابنه عن عدد بيوته، ومقاهيه، وباراته ونسائه، ثُم سأل عن عدد الموظفين الكبار الذين يمنحون الحماية والحصانة للإمبراطورية السرية، فأجاب إبراهيم في تفصيل، ثُم حكى له عن أهم زبائنه من الموظفين الكبار في الإدارة الإنجليزية، وموظفي السفارات الأجنبية، فضلاً عن الأعيان والعُمد وكبار التُجار. قال إبراهيم لوالده إن موظفًا إنجليزيًا كبيرًا أخبره أن مُعدلات الجرائم الأخلاقية في مصر يرتفع تدريجيًا، وأن ذلك كان محط اهتمام من باحثين ومسؤولين إنجليز، حتى إنهم تخوفوا من حوادث إرهاب مُضاد من الوطنيين، كرد فعل لانتشار الدعارة والقمار واتساع الفجور، لكن والده عقّب بأن «ذلك لن يحدث الآن».

وسأل الأب ابنه عما يقرأه في الصُحف عن اتساع حملات الإنجليز للقضاء على الرقيق، وإن كان ذلك يُسبب له أي قلق، فأجابه الابن في ثقة بأن جميع الذين يقومون بذلك يستثنونه من أي إجراء، وأن المقصود بالحملة تخويف وإرهاب بعض رجال الخديو الذين ما زال لديهم عبيد وجوارٍ.

كان والده مسرورًا وهو يُكرر حلمه وغايته بأن تتفشى الرذيلة، ويتسع الفساد وتنهار القيم، إرضاء لعهد قطعه على نفسه بنشر التفسخ بين أهل مصر، انتقامًا لويلات هزائم أذاقها حُكام المحروسة لبلاده.

رشفا معًا من خمرٍ مُعتق، وشعرا بنشوة النصر، وهُما يتذكران مجدًا تليدًا لأسرة متمددة في التاريخ السحيق، كانت لها دولتها قرونًا من الزمن.

اقترب إبراهيم من والده أكثر بناء على حركة إصبعه، ليجد الأب يمسح خديه بأنامله مُتحسسًا علامات خشونة غائبة، وهو يسأل في حسرة:

- ألم تنبت لحيتك بعد؟ ادهن هذا الدهان بها كل يوم.

ومد يده بعلبة فضية صغيرة، ذكّرته بدهانات عديدة سبق أن قدمها له والده خلال السنوات الماضية، لتجعل منه رجلاً، دون جدوى.

***

ضحكة أفلتت من فم الفتاة السمراء ذات الجبهة العريضة، والعينين البنيتين، قبل أن تضب كأسًا من زجاجة بيرة «كراون» في جوفها. كانت نبوية لذة، كما أطلقوا عليها، قادرة على إنعاش جلسائها من الزبائن بثرثرة طويلة تُكررها دائمًا عن النساء وخصائصهن، قبل أن تُقدم لهم ما يُريدون نظير قروش محدودة تُدفع لمديرتها. لم تنل نبوية شيئًا من تلك الأموال التي تُدفع كُل يوم إلى حوا السودانية، مقابل وطء فتيات مقهى السعادة، فما دامت تحصُل على منابها في الأكل مرتين صباحًا وظهرًا، فليس من حقها أن تفتح فاها. كما أن مبيتها وسط اثنتي عشرة فتاة في أحد بيوت إبراهيم الغربي ببولاق أبو العلا، يُعد ترفًا لو قارنته بحيوات الجواري في بلادها الأصلية.

كانت نبوية تعرف أنها مُجرد جارية تُقدم إلى التُجار والأجانب، وأن قيمتها الحقيقية في جسدها الناعم الملتهب، وأنوثتها المصطنعة، وغنجها البادي، لذا فقد كانت حريصة أن تُقدم لزبائنها نكات قبيحة، وولهًا كاذبًا، وإعجابًا مزوزًا بقدراتهم الجنسية بعد كُل لقاء.

قالت نبوية للكهل الفرنسي ذي الوجه الأحمر والشعر الأصفر إنه أفضل خواجة عاشرته، وإنها تتمنى ألا تُعاشر غيره أبدًا. كأن كلماتها قيلت لحجر، فلا أثر ولا بقشيش ولا هدية نظير تلك الأكاذيب، من رجل يعلم تمامًا أن إطراء المومسات جزءٌ من بضاعتهن، لذا لم يلتفت فرانسوا لها بعد أن هذه الإجهاد، ورسمَ فوق شفتيه الدقيقتين ابتسامة نصر زائف، ثُم صبَّ لها كأسًا من البيرة، وسألها في سُخرية عن أغرب زبون قابلته في حياتها. صمتت نبوية لحظات وهي تُفكر في أن كُل زبائنها غُرباء، فمنهم مَن يطلُب إليها ما لم تفعله من قبل، ومِنهم مَن يصفعها كثيرًا قبل أن ينقض عليها، ومنهم مَن يطلب أن تضربه. إن اعتيادها على الغرائب جعلها لا تأبه كثيرًا بمَن من الزبائن أغرب أو أعجب، لكنها حكت لفرانسوا حكاية رجُل خواجة كان في السبعين من عُمره، وكان مريضًا بالقلب، وطلب بعض أقاربه منها أن تنام إلى جواره ليُجامعها فتتدهور صحته ويموت، ففعلت، لكن الرجل تحسنت صحته وقام من سرير المرض. ضحك فرانسوا من قلبه، ثُم طلب من نبوية أن ترقُص له، فقد دفع ثمن الخدمة بالمبيت وهو يرغب في الاستمتاع بالرقص الشرقي.

- حاضر يا سيدي.

أجابته نبوية في تدلُل، فوضع أسطوانة كبيرة على جهاز الجرامافون الكبير الذي يتوسط صالته، ليسمع صوت ألمظ وهي تُغني:

«يا اللي تحب الوصال وتحسبه أمر ساهل. ده شيء صعب المنال وبعيد عن كُل جاهل. وان كُنت ترغب وصالي حصل شوية معارف. لأن حرارة دلالي صعبة وإنت عارف».

كانت شقة الخواجة فرانسوا الصغيرة تطل على نيل مصر، إلى جوار سراي الجزيرة التي أقامت فيها إمبراطورة بلاده قبل سنوات، عند زيارتها لمصر لحضور حفل افتتاح قناة السويس. وعلى خلاف ما اعتادته نبوية في بيوت كبار التُجار والأعيان، من فناء واسع تطل عليه حُجرات مستطيلة، لم تجد في شقة زبونها الفرنسي سوى صالة واسعة تُغطي جُدرانها لوحات بديعة، وتتوسطها مائدة ضخمة، على أضلاعها الأربعة تقف مقاعد خشبية جميلة، ومكتبة خشبية باهرة أمام الجدار المقابل للمدخل، وتنفتح على الصالة غُرفتان، إحداهما تضم مكتبًا ومكتبة كبيرة مليئة بالكُتب المُجلدة، وعلى الحائط نياشين وسيوف مُعلقة، والثانية يتوسطها سرير كبير مُغطى بشراشف زاهية الألوان.

رقصت نبوية كما علمتها حوا السودانية في مقهى السعادة. كان خصرها يهتز بآلية في اتجاه واحد لا يتغير، وهو ما أثار موجات من القهقهة لدى صاحب البيت، قبل أن يحشو غليونه تبغًا، ثُم يُشعله بثقاب كان في جيبه، وينفث دُخانه في الهواء بتلذذ واضح.

إن الرقص الشرقي في ذهنه مُجرد اهتزازات بلا معنى، لمؤخرات سمينة تُميز النساء الشرقيات عن غيرهن الأوروبيات، وقد شاهده كثيرًا في مقاهٍ متنوعة بشارع كلوت بك ووش البركة. وفي آخر لقاء جمع المستشرق

مع إمبراطور مملكة الليل، فاجأه إبراهيم مؤكدًا أنه ابتكر رقصة جديدة سيتم تدريب راقصات مصر عليها، تغير تلك الرتابة المعتادة، لتعتمد على هز البطن إلى جانب الخصر.

كان فرانسوا قد كتب قبل دقائق من زيارة نبوية فصلاً كاملاً في كتابه عن المجتمع المحمدي. لقد شعر المستشرق بالزهو عندما تذكر عبارة كتبها يقول فيها: «إن هؤلاء البشر لا يمكن تغييرهم للاقتناع بالمدنية الحديثة، ويجب أن تُفرض عليهم فرضًا. إنهم كسالى تائهون، ليس لديهم فكر أو توجه يمكن أن يجتمعوا عليه، وهم يدافعون عن الأخلاق في العلن، لكنهم في حقيقتهم لا يعرفونها. لقد خُلقوا كي يخدموا الأوروبيين ويحققوا رضاهم».

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية
https://t.me/riwayat2025
يسعدنا انضمامك لنا

Processed using the free version of Watermarkly. The paid version does not add this mark.

كتلتان من اللحم مخفيتان خلف جلباب حريري غامق، صاعدتين على سلالم خشبية في بهو قصر من قصور القاهرة، مُعلنتين صعود سيدة البيت إلى غرفتها. بدت الفتاة البيضاء ذات العينين العسليتين بائسة، وهي تحمل إبريقًا نُحاسيًا من الماء مُهرولة خلفها، في مهمة اعتادتها كُل صباح لتغسل قدمين سمينتين تكرمش الجلد فيهما من كثرة الماء.

بعد خروج الباشا إلى أعماله في مُتابعة وسيته أو ذهابه إلى مجلس شورى القوانين، تقضي زوجته أم الحُسن مُعظم نهارها في التزين والتجمل وتصفيف شعرها قتلاً للوقت. تتحدث بدلال مع جاريتها نُزهة عن سنوات الهناء في الأستانة، حيث قضت نصف عُمرها في قصر والدها الفطل على البوسفور. كان كبار رجال الدولة والباشاوات ضيوفًا دائمين على والدها، الذي عمل كاتبًا للوزير الأعظم للدولة العلية، وكانت الهدايا تسبقهم إليه طلبًا لتوصية أو شكرًا لخدمة. تقول أم الحُسن لخادمتها إن جواري القصر كُن أكثر نشاطًا ومهارة في تجميل سيدات وفتيات الأسرة، من جواري هذا الزمان.

ـ كانت لدينا فتاة أرمينية لا تُخطئ قراءة الفنجان، وهي التي تنبأت لي بالعيش في مِصر.

تبتسم نُزهة تأمينًا، فتُكمل أم الحُسن قائلة:

ـ كانت تعرف أشياء عديدة قبل حدوثها وتُخبرني بها.

ـ معقول يا ستي؟

تسأل نزهة في سذاجة، فتهز أم الحُسن رأسها مُكررة:

ـ بالطبع.

ثُم تقول:

ـ قسمة ونصيب يا نُزهة. كُل شيء قسمة ونصيب. حتى بقائي عاقزًا عشرين عامًا قسمة ونصيب.

للمرة الأولى تلمح نُزهة الحُزن طافحًا من وجه سيدتها التي عرفتها دائمًا قوية وصلبة، بل وقاسية في كثير من الأحيان.

مُذ دخلت نُزهة إلى هذا البيت وهي تشعر برائحة الحُزن تكسو الأرائك والأسِرّة. رغم ضوء الشمعدانات المتلألئ في أركان المنزل، ورغم جمال التُحف واللوحات الموضوعة هُنا وهُناك، فإن هُناك شجنًا طافحًا. لا الغنى يُبدده ولا النفوذ أو الألقاب التي يحوزها صاحب البيت. وهذه الآمرة الناهية التي تُلقي أوامرها للخدم والجواري نظرًا، ما هي في حقيقة الأمر سوى كائن هش يفتقد الهناء والرضا.

زار الكلل أصابع نزهة الرقيقات، وأطل السأم على وجه سيدتها الحليبي المُستدير، فأشارت بكفها لتتوقف، قبل أن تلتمع عيناها ببريق أخاذ وهي تقول:

ـ أريدك الليلة أن تسقي الباشا كثيرًا. ستلبسين الجلباب الأحمر ذا الفصوص الفزركشة، لكن لا تزيدي. سأراقبك. مفهوم؟

كسا الخجل وجه نُزهة الذي بدا مُنكسرًا، وهي تُتمتم:

ـ مفهوم. مفهوم.

نظرت أم الحُسن بحدة إلى نُزهة، ثُم أمرتها أن تهبط لتطمئن على مأمونة وتُحممها، ثُم أكملت وهي تهز رأسها:

ـ لوجه الله تعالى.

هبطت نُزهة إلى الحجرة الخلفية المُخصصة للمؤن، والتي ترقد فيها مأمونة وحيدة كفريسة سهلة، لمرض طاغٍ يُطارد كثير من النساء بعد سن الخمسين. ألفتها مُبتسمة تتحدث مع كائنات خيالية وتُغني في سلام ورضا. طويلة كنخلة، سمراء كطمي النيل عند فيضه، قصيرة الشعر والرموش، فحمية البؤبؤين، يعتريها الوهن ويبدو على وجهها الضعف والانكسار. قبلتها في حنو مُتذكرة أمها بعد أن أصابها الطاعون في بيت لحم، حين عزلوها بعيدًا خوفًا من العدوى، ثم خلعت عنها جلبابًا مُتسخًا وحلت سراويل مُبتلاً تحته، لتبدأ تحميمها في سكون.

بدت مأمونة مُرحبة بالاستحمام بابتسامة واهنة، ولم يكد الماء يلامس مسام جلدها حتى استوت، وصارت مُضيئة بالبهجة والصلابة. هنيهات وعادت مأمونة شابة ثرية قادرة على العمل، والمزاح، والحكي.

حكت الجارية المُسنة لنُزهة أن أم الحسن تزوجت بعبد الغفار باشا شكري، عندما كان يخدم كضابط بالجيش العُثماني.

ـ كان هذا مُنذ سنوات بعيدة، ثم رحلت معه إلى مصر بعد التحاق والده بخدمة الخديو إسماعيل، وفيها طافت على أطباء إنجليز وفرنسيين وطليان حتى تُنجب دون طائل.

هزت نُزهة رأسها، فأكملت مأمونة قائلة:

ـ كانت سيدتي وقتها طيبة جدًا.

ـ ما الذي حولها إلى قاسية القلب؟

تساءلت نُزهة دون أن تنبس، فأكملت مأمونة كأنها تسمعها:

ـ مع الوقت تحولت إلى كائن شديد القسوة، بعد أن صار لديها ميل دائم إلى الانعزال حتى أصبحت كما ترينها الآن.

صمتت نُزهة مُندهشة، فتابعت مُحدثتها قائلة:

ـ صارت باردة، حادة المزاج، خاصة أن هُناك من أخبرها أن زوجها تزوج بأخرى من بنات البلد، وأنه يزورها مرة كُل أسبوع.

قصت مأمونة أيضًا كيف اشترتها سيدتها من خاصة الوزير الأكبر إسماعيل صديق، بعد اختفائه خلال رحلة نيلية إلى السودان، عقب خلاف حاد نشأ بينه وبين شقيقه في الرضاعة الخديو إسماعيل.

ـ قبل أن يتيقن أحد من قصة قتل الباشا، تم توزيعنا على تُجار الرقيق المعروفين، وكُنت من نصيب تاجر سوداني باعني إلى عبد الغفار باشا.

هكذا حكت وهي تتألم من أوجاع المرض.

في شبابها، قبل أكثر من عقدين، كانت محط اهتمام رجال كثيرين يُغرمون بالسمراوات. تقول ولا تُصدق نُزهة إن سيدها الأول كان على وشك عتقها والزواج بها، إلا أن ملاك الموت كان أسرع من أن يفي بوعده، ثم تكرر الأمر مع إسماعيل باشا صديق، الذي كانت العصافير على الأشجار ترتعد هلعًا من نظراته، ولكن غيرة خديو مصر منه وانقلابه عليه، دفعاه لاختطاف روحه قبل أن يتحقق حلمها.

ـ كيف حدث ذلك؟

سألت نُزهة، فأجابتها الجارية المريضة وهي تهز رأسها تذكُرًا:

ـ لا أحد يعرف بالضبط ماذا حدث. لكن في يوم سمعنا الباشا يسب الخديو أمامنا، ويقول إن أيامه في حُكم مصر معدودات، وفي اليوم التالي ذهب إلى حفل خاص بالخديو في إحدى السُفن النيلية، واختفى عن الأنظار

ثم أعلن الجناب العالي نفيه إلى السودان، لكن بعد يومين أخبرنا حارسه الخاص أنه تم إعدامه بمرأى من الخديو نفسه، وأُلقيت جثته في النيل. قالوا إن إسحاق بك قاتل الخديو السري وخنقه بيديه، وإن الباشا قضم أصابعه يومها قبل أن يقذفوا به إلى النيل.

قشعريرة خافتة ضربت جسد نُزهة عندما سمعت حكاية القتل، ودق الخوف باب قلبها، بينما ارتسمت ابتسامة باردة على شفتي مأمونة كأنها تحكي حكاية معتادة. كان ذكر الموت وحده كفيلاً ببث رعشات سريعة بجسد نحيل، لم يعرف سوى الشقاء والتذلُّل. إنها تكره حكايات القتل، وتعتبرها دليلاً دائمًا على توحش الإنسان واستفحال الشر والظُّلم.

كانت المفاجأة التي لم تتوقعها نُزهة أن الجارية السوداء التي ذبُلت كعود قصب ممصوص، تُجيد القراءة والكتابة، وهو ما فتح نوافذ من الدهشة أمام نُزهة التي تصورت من قبل أن الحياة بالنسبة إليها انتهت عند غسل الصحون، وكنس الحجرات، وإعداد الطعام، وتدليك ضلوع السيدة البدينة، وإثارة شهوة زوجها الكهل. طلبت الجارية الشابة من الجارية المُسنة أن تصنع بها معروفًا وتُعلّمها القراءة.

ـ سأكون مُمتنة كثيرًا لو تعلمت منك القراءة.

قالتها في استعطاف، فتلقت إجابة سريعة:

ـ حمميني كل يوم وسأعلمك كيف تقرأين.

هزت نُزهة رأسها امتنانًا بالاتفاق المُتكافئ، ومضت والسرور يغمرها.

***

عينان صاحيتان مفتوحتان على بقايا دموع، وفم مُندهش وملامح مُنكسرة ارتسمت على وجه خمري لفتاة مُتهدلة الشعر، مُمددة على حشائش جافة بالحديقة الكُبرى الحاضنة لميدان أزبك. كانت الفتاة ساكنة وصامتة، بينما يسيل خيط من الدم القاني من أسفل عنقها على صدرها نصف العاري، والفطل من قميص أحمر من الساتان الناعم. خلت ذراعاها من أي حُلي وصار من الواضح أنها لم تُقاوم كثيرًا عند ذبحها؛ فلم يُر بها خدش واحد سوى موضع الذبح.

بُخطى مُنتظمة تقدم الضابط ذو الوجه الأبيض والعينين الزرقاوين من الفتاة المُمددة، وانحنى مُقلبًا وجهها قبل أن يسأل مَن حوله إن كانوا يعرفونها، فهزوا جميعًا رؤوسهم بالنفي، لمس بأصابعه فخذ القتيلة مُتمتمًا بإنجليزية أصيلة «عاهرة». كانت المرة الأولى للضابط فيليب التي يُعاين فيها جُثة فتاة، وهو ما أثار حالة من القرف والاشمئزاز في نفسه، مُستغربًا كيف لهؤلاء الوحوش أن ينحروا فتاة بهذه البشاعة. حادث شرف؟ خمّن فيليب مُتذكرًا تعليق زوجته ماريا عن مُعاملة المصريين للنساء، بأنهم يفتقدون أدنى قواعد اللياقة والذوق معهن، ثم استبعد ذلك لأن ملابس القتيلة توحي بأنها تعمل في البغاء كمحترفة، وليس لها أهل يمنحونها ميتة كهذه! غيرة مُنافسين؟ رُبما، فهي تبدو جميلة وجذابة وقادرة على اختطاف زبائن عدة. أطال النظر في وجه الفتاة وشعر أنها مألوفة له، فكرر سؤاله للمُخبرين حوله:

ـ ألا تعرفون هذه الفتاة؟

وكما توقع لم يسمع جوابًا.

كان واضحًا أن مُعظم عساكره ومخبريه من المصريين والسودانيين، لا يكترثون كثيرًا لأرواح نساء «عايقات» كما يسمونهن، فمعظم الفتيات العاملات في هذه المهنة بلا أهل ولا أقارب، ولا قيمة لوجودهن أو غيابهن ليتقدم أحدٌ بلاغًا عن أيهن بالاختفاء. ثمة ابتسامات صفراء غطت وجوه الجمع المُحتشد حول موضع الجريمة، من عساكر ومُخبرين وفضوليين من المارة، وهو ما أكد لدى فيليب أن الموت زائر يومي مُعتاد لدى هؤلاء البشر.

وصل جرجس أفندي حلاق الصحة القصير ذو الكرش المنتفخ، مرتديًا خلة داكنة من الصوف، إلى موضع الجثة، وحياه بآلية قبل أن ينحني مقلبًا جسد الذبيحة بقدمه. لاحظ فيليب سمات الشكر على حركة جرجس، ثم طابق بصمة الخمر في عينيه ووجهه الشاحب. فتح الرجل حقيبته الصغيرة ليخرج مشرطًا ومقصًا وورقة وقلمًا، لينهمك في عمله سريعًا بكتابة تقرير عن المجني عليها. لاحظ الضابط سرعة إنجاز جرجس لمهمته، إذ رفع بقايا ثوب الضحية فوق وجهها وخلع تبانها لتمتد يده فاحصة، ثم فتح فتحة صغيرة في بطن القتيلة أدخل فيها قلمه دون معنى واضح لذلك، وبسرعة أيضًا غطى الفاحص زبونته ليكتب إلى جوارها تقريرًا سريعًا، ختمه بعبارة: «القتيلة من محترفات البغاء، والقتل تم قبل عدة ساعات»، ثم سلمه التقرير، ومعه سيجارة ماركة «معدن» أثارت استغراب فيليب، لكنه أطبق شفتيه عليها مستسلمًا لكف جرجس الممتدة ليشعلها في أدب.

نظر في عيني جرجس فقرأ فيهما المكر والخداع، وسأله عن طبيب الصحة المسؤول، فأجاب بأنه في إجازة لزيارة عائلته في بريطانيا، وأنه يتركه يحل محله في عمليات التشريح السريعة لضحايا القتل، وقال إن حادثًا مثل هذا يتكرر كثيرًا وغالبًا يُسجل ضد مجهول، خاصة أن أحدًا لا يهتم بهؤلاء النساء «الخواطي» بتعبير المصريين.

ابتسم فيليب مندهشًا، فأفهمه جرجس أن البغاء خطيئة كبيرة لدى المصريين، ومَن يعمل بها يُصبح مغموسًا في الدنس. نفث فيليب دخان سيجارته التي لم تُعجبه نكهتها، وقال لجرجس:

- إنكم شعب غريب.

رد حلاق الصحة بإنجليزية جيدة:

- ولِمَ؟

قال فيليب:

- لأن الضحايا في غرفكم «خواطي»، والمهيبون هم المجرمون.

ابتسم جرجس في بلاهة مقصودة، ثم قال:

- هذه تقاليد البلد ولا يجب كسرها يا حضرة الضابط.

ارتسم الغضب على الوجه الأبيض ليعلو صوته:

- كل شيء قابل للكسر ما دام القانون يتم خرقه.

- القانون؟

رد جرجس بحدة، ثم هز رأسه ساخرًا ليرمي نظرة أخرى على الذبيحة الممددة، لكن الضابط فاجأه بقوله:

- أنت تعرف مَن هي القتيلة، ونصف رجالي يعرفون، لكنكم أنكرتم.

ابتسم جرجس معجبًا بصحة استنتاج ضابط البوليس، وأخرج سيجارة من غلبة صفيح يحملها، وأشعلها قائلاً:

- صحيح يا حضرة الضابط.

ثم اقترب قليلاً من الضابط وتحول صوته إلى الهمس قائلاً:

- استنتاجك في محله. نحن نعرفها. الفتاة اسمها أسما، وتعمل عند إبراهيم الغربي، وواضح أنها ارتكبت خطأ كبيرًا.

ارتبك فيليب وشعر بالدوار، ثم ألقى سيجارته ورمى محدثه بنظرة احتقار، قبل أن يلتقط من يده التقرير

ويمضي في هدوء، بينما جلس جرجس إلى جوار الجسد الفسجى يكتب تصريحًا بالدفن، ممهورًا بالعبارة التقليدية: «تُدفن في مقابر الصدقة». ابتسامة صامتة منحها جرجس للضابط الذي مضى بخطوات ناعمة نحو قسم الأزبكية، على بعد مئتي خطوة فقط من موضع القتيلة.

***

التفت الجالسون ببار النادي اليوناني إلى صخب نقاش ثلاث من كومات اللحم الفلتصقة بمقاعد وثيرة، تحتمل ضغط الأجساد الثقيلة لباشاوات أعضاء بمجلس شورى القوانين. كانت الأضواء الخافتة مناسبة لمكان اعتاد الأثرياء التلاقي فيه، للدردشة على أنغام موسيقى بيتهوفن الكلاسيكية، ولرشف رشفات من أجود الأنواع الأوروبية من الخمور المعتقة. ظن كثير من رواد البار أن الباشاوات الثلاثة ذوي الكروش المميزة والكهولة الزاحفة يتشاجرون، بينما كان النادل الأسمر ذو الساقين الطويلتين يعلم جيدًا أن كلام هؤلاء مُجرد حوار طبيعي، اعتادت أصواتهم الجهر به، ليؤكد كل منهم صواب رأيه. كان عبد الغفار باشا شكري يجلس في الوسط مُرتديًا حُلة سوداء من الصوف الإنجليزي، واضعًا ساقًا فوق أخرى مثل جذعي شجرتين تداخلتا دون اختيار، وعلى يمينه إسماعيل باشا حكمت ذو الشارب المفتول لأعلى، والعينين الزرقاوين والبذلة الفرنسية الرمادية، وعلى يساره محمد باشا شفيق مُرتديًا حُلة بُنية ناعمة، وفي يمينه غليون من العاج. أمامهم فوق الطاولة المُستديرة تجاورت ثلاث كؤوس وزجاجة كبيرة مُمتلئة بالنبيذ الفرنسي، وعلبتا سجائر ماركة كيريازي فريريز ومنفضة سجائر من النحاس.

كان الباشاوات الثلاثة يتناقشون فيما يُمكن أن يفعلوه كرد فعل، لطلب حكمدارية القاهرة رفع الحصانة عن علي باشا شريف، رئيس مجلس شورى القوانين، تمهيدًا لتقديمه للمحاكمة بتهمة مخالفة القانون والمشاركة في استرقاق الجواري. قال محمد باشا شفيق إن الحادث مؤامرة بريطانية، للإيقاع بأعيان وباشاوات مصر المُحبين لحضرة الخديو، وهو ما لم يعجب إسماعيل باشا حكمت، مؤكدًا أن المجلس مُشكل بقانون بريطاني، وأنه مُجرد استكمال للحياة المدنية الأوروبية. وصبّ كأسه في جوفه، وهو يقول:

ـ يا سادة، علينا أن نعترف بأن فعلة علي باشا شريف شائنة، ولا يجب الدفاع عنها.

وأضاف:

ـ هذا نهم مرذول.

صدّق عبد الغفار باشا على كلامه مُتمتمًا:

ـ نعم. بالطبع.

لم ينشغل النادل الأسمر باستراق السمع لحديث الباشاوات الثلاثة، الأعضاء بمجلس شورى القوانين، فالمصريون جميعًا يعرفون الحادث ويتكلمون عنه. لقد قبض البكباشي محمد ماهر مأمور قسم السيدة زينب على اثنين من النخاسين، باعوا أربع جوارٍ إلى رئيس مجلس شورى القوانين، وآخرين من الأعيان وطبيب شهير، وقررت السُلطات البريطانية تقديم الأربعة إلى المحاكمة.

رانت على عبد الغفار باشا لحظات من الصمت القلق، وهو يتذكر أن بيته يضم جاريتين إحداهما أوشكت على الموت، والثانية لم تُقارب العشرين بعد، ومر برأسه المُثقل بياض فخذها الناعم، الذي لم يزد على تحسسه في الأيام الماضية.

قال محمد باشا شفيق:

ـ لقد علمت أن البكباشي محمد ماهر رفع تقريرًا إلى مستر شيفر وكيل الداخلية، يقول فيه إن مُرشدًا أخبره بابتياع أحد النخاسين لأربع فتيات بكر، وباعهن إلى علي باشا شريف، ومحمد باشا الشواربي، وحسين باشا واصف، والدكتور عبد الحميد الشافعي، وهو ما يخالف قوانين البلاد، وإنه استدعى الدكتور الشافعي فاعترف

بابتياع الجارية من أحد التجار ويُسمى حسن الجلاب، وطلب الإذن في استدعاء الباشاوات الثلاثة فأذِن له.

واصل القلق طرق أبواب ونوافذ عبد الغفار باشا، لكنه استجمع صلابته وقال:

- أنا أعرف أن علي باشا شريف لا يُمكن تقديمه للمحاكمة، لأنه مُتجنس بالجنسية الإيطالية، وهناك امتياز يمنع مُحاكمة أي من رعايا الطليان داخل مصر. فضلاً عن أنه خارج القطر مُنذ أسبوعين.

داعب إسماعيل باشا حكمت شاربيه قبل أن يُعلق قائلاً:

- أتصور أن صمت نوبار باشا ناظر النُظار وعدم تدخله في القضية، يعكس تيقن الرجل من إصرار السُلطات الإنجليزية على تطبيق القانون بصرامة.

رد محمد باشا بأنه لا شك سينتظر عودة الخديو من نزهته المُعتادة بالأستانة، حتى لا يُعكر الأجواء ويُكرر حالة التوتر التي نشأت وقت توبيخ الخديو لكتشنر.

وافقه الحاضران بينما كان رأس عبد الغفار باشا شُكري يدور يمينًا ويسارًا، متخوفًا من أن يشي به واشٍ فيلحق بمصير المُتهمين الأربعة، الذين صاروا بين عشية وضحاها فُرصة سانحة للإنجليز، لتوجيه صفعة للخديو المُتغطرس. أي أشواك موجعة نبتت دون أن يلحظ في بساتين نفوذه! أي أخطار تُحدق به بسبب مأمونة ونُزهة! فلتذهب كلتاهما إلى الجحيم. خطر بذهنه للحظات حسن أفندي، الكاتب الذي وظَّفه عند صديقه فارس نمر، رئيس تحرير المُقطم، وساعده وتصوّر أنه يمكنه أن يجد له حلاً سريعًا. ثُم أنَّب سريرته وهو يُكرر: «ما كان ينبغي أن أقبل ما فعلته أم الخسن. تلك الشيطانة المُتسلطة ستقضي على مكانتي».

طلب إسماعيل باشا زجاجة نبيذ إضافية، وذكر لجليسيه مُلخص ما قرأه صباحًا في جريدة «مانشستر جارديان» البريطانية، من اهتمام الأوساط الأوروبية بتلك القضية التي يعتبرونها ذروة الوحشية والهمجية، وأن القانون ساوى بين البائع والمشتري في العقوبة، باعتبارهما يساهمان في استعباد البشر. وقالت الصحيفة إن الدين الإسلامي أجاز الرق، وسمح بالتسري بالجواري. ورَدّ محمد باشا بأن الإنجليز دائمًا يشوهون كُل ما له علاقة بالإسلام، لكن عبد الغفار باشا سارع قائلاً:

- لكن يا باشا، الإسلام بالفعل أباح التسري بالجواري. ملك اليمين.

ثُم دلَّل على كلامه بفقرات من خطبة رددها أمامه الشيخ علي الصعيدي، بأن الله لو شاء لخلق الناس جميعًا مُتساوين، لكنه أراد اختبار كُل إنسان، فجعل البعض أغنياء والبعض فقراء، كذلك خلق البعض أسيادًا والبعض الآخر عبيدًا وخدمًا. ابتسم إسماعيل باشا كأنه لم يعجبه كلام الباشا المُختلط بنبرة شكر، وعلّق قائلاً:

- الإسلام دين عظيم يا باشا.

وابتلع كلماته برشفات من النبيذ المعتق.

***

ليلة الخميس صاخبة في مقهى السعادة ببولاق. تحلّقت طرابيش الأعيان وأولاد البلد وقبعات الخواجات مشدوهة، لمشاهدة مُفاجأة إبراهيم الغربي التي وعد بها زبائنه في الرقصات الجديدة.

«موعدكم ليلة الخميس مع مفاجأة الرقص الشرقي. الشيطانة المُحترفة تُقدم استعراضًا جديدًا لهز البطن. الرقصة التي ستدور معها الرؤوس وتتطلع إليها الأعناق. مع نبوية لذة فلتة الموسم بمقهى السعادة. احجز مقعدك من الآن».

هكذا قرأ من يُجيدون القراءة الإعلان المُعلّق على أعمدة الإنارة الحديثة بوسط المدينة.

وقف غنمان الطوشي راسمًا ابتسامة بلا معنى، ليُعلن بدء الحفل الغنائي الراقص بوصلة غناء ساحر من حوا السودانية، تعقبه رقصات متنوعة تقدمها نبوية لذة. انتشت الوجوه مُتطلعة لمُتابعة العرض المُنتظر، عندما

دلف إلى المقهى شاب أسمر ضئيل الجسم، يرتدي جاكيتًا من الصوف فوق جلباب فضفاض بني اللون، وجلس واضعًا ساقًا فوق أخرى، لتبدو بلغته القماشية معبرة عن انتمائه للطبقة الوسطى المستورة. طلب شايًا، رغم أن معظم الجالسين اختاروا مشروب البيرة المفضل «كراون»، وهو ما لفت نظر العاملين بالمقهى، خاصة عثمان الطوشي الذي رماه بنظرة ارتياب، قبل أن تبدأ حوا في الترنم بأغنية ألمظ الشهيرة:

«لازم أهشه. دا العصفور. وأنكّش له عشه. دا العصفور»، وذلك على أنغام انسابت من أصابع عواد ضرير، كان يجلس متصدرًا صالة المقهى.

بدرت من الحضور التفاتة اهتمام عندما ظهر إبراهيم الغربي بملابسه الملونة، وابتسامته الصافية، وعينيه الكحيلتين، ليسحب كرسيًا ويجلس إلى جوار مدخل المقهى. دائمًا يخطف الأبصار هذا الحاكم المتوج لمملكة الليل، فالجميع يعرفون قدره، ويبدو الاهتمام باديًا على غمال المقهى وراقصاته في ظل حضوره. حيا بذراع مرفوعة تهتز فيها الأسورة الذهبية وجوه كثير من الخواجات الجالسين، الذين طالما عرفوه خدومًا مخلصًا في عمله. أطلّت نبوية في بذلة رقص بيضاء، تُناسب جسدها الخمري الرشيق، ومن جانبي البذلة أطل لحم وركيها ناصعًا من غير سوء، وبدأت ترقص بطريقة لم يعرفها الناس من قبل، حيث ارتعش خصرها بمهارة وخفة، وتمايل ذراعاها في الفضاء لتصافح بأصابعها هواء المقهى. كان بطنها النحيل عاريًا ناعمًا، وربطت عملة معدنية فئة القرش صاغ فوق سرتها الصغيرة، وواصلت اهتزازاتها كأفعى لا تعرف الكلل.

تجددت نظرات الإعجاب من الجالسين، وردد بعضهم عبارات الإشادة والرضا، بينما لم يُبد الشاب الأسمر ضئيل الجسم المنعزل نسبيًا أي رد فعل. كان يبدو أن هذا الشاب، والذي لم تعرفه وجوه الحاضرين ولا العاملين، مهتمًا برصد تفاصيل المكان أكثر من متابعة وصلة الرقص الجديدة. وبين الحين والحين كان يُصوّب بحذر نظرات استكشاف إلى وجه وهيئة إبراهيم الغربي، الذي ظلت الابتسامة الصفراء لا تغادر شفتيه.

ارتعشت عضلات البطن في جسد الراقصة وتعالت صيحات الاستحسان، بينما كان ذهن الشاب الأسمر غائصًا في مشهد آخر عاشه قبل أيام، عندما ضغطت أصابعه رقبة الخواجة باولو الإيطالي، صاحب خمارة النيل، منتزعة روحه بعد مقاومة ضعيفة تناسبت مع جهد عمل طال حتى مطلع الفجر. كان الخواجة عائدًا إلى منزله في السيدة زينب، عندما دفعته يدان في أحد الأزقة المظلمة فسقط أرضًا، وامتدت من خلف رأسه أصابع محترفة لتخنقه دون رحمة. حاول الخواجة الإفلات، لكن ترهّل عضلاته أفقده أي قدرة على المقاومة، فاستسلم لمصيره قبل أن تمتد يد القاتل إلى جيبه قابضة على إيراد الخمارة، ثم منتزعة خاتمًا ذهبيًا من بنصره.

كان أنين الخواجة يطوف في أذني أحمد سليم، القاتل الوطني، الذي عمل بالتدريس كغطاء لعمليات قتل وسرقة للأجانب المتربحين من خيرات البلاد. علا صوت استرحام الرجل على الموسيقى المنسكبة لرواد مقهى السعادة، لكن أحمد أسكته مُردِدًا «يا جماله»، مع زُمرة الجالسين، كأنه مستحسن غنج الراقصة المغربية.

«الموت هو ما أحمله لكم أيها المفسدون في الأرض. لا رحمة ولا تراجع. صدر الحكم وقُضي الأمر الذي لم تُستفتوا فيه».

هكذا ردد لنفسه وهو يُتابع مفاجأة مقهى السعادة. كان يعي تمامًا أنه صار قاضيًا وجلادًا، يُنفذ أحكام الموت على كل مَن يظن أنه يصنع إثمًا للبلد، وكان يعتبر هذا هو دوره الذي لا يقبل نكوصًا. رشف أحمد من شايه الغامق المُر، وابتسم ابتسامة كاذبة، عندما التقت عيناه بعيني إبراهيم الغربي، هذا الغول المتأنث. أي نوع من البشر هذا الإنسان! أي قلب وأي عقل وأي مشاعر يحملها في داخله! أليس مُزريًا أن يبيع أجساد بني بلده للخواجات وجنود الاحتلال؟ أي عار لا يشعر به، وأي حقارة لا توجعه!

استغرق أحمد مفكرًا كيف يُمكن إعدام هذا المارق. لا بد أن قتل هذه الجثة الضخمة عمل صعب وخطر، مقامرة؟ بلا شك، فهو قوي البُنيان، قاسي الملامح، منعدم الخوف. فضلاً عن أنه لا يتحرك دون عيون تحرسه.

نظر مُمتعضًا إلى الباب الأسود، الذي سمعهم يُنادونه بـعُثمان الطوشي، ليرصد عينيه لا تفارقان سيده.

«في يومٍ ما سوف أقتله شر قتلة».

هكذا قال لنفسه قبل أن يلمح الخواجة فرانسوا داخلاً بقبعته الزاهية. تذكر ما قاله له صديقه حسن أفندي، إن هذا الرجل يكره الإسلام كراهية شديدة، ويعبث بنساء المصريين، مُستغلاً جهلهم وبؤسهم وعصف الزمن بأحوالهم.

«سيموت هو الآخر».

لو كتب قائمة بأسماء مَن حق عليهم القتل من غير الإنجليز، لضم إليها هؤلاء والطوشي، والشيخ علي الصعيدي، وباشاوات السرايا، والمرابين اليهود المُنتشرين كالجراد، والقوادين والسحابات في الأزقة والحواري، وباعة النشوق والأفيون والبوظة والخمور، والدجالين، ولصوص الموالد، والسحرة، وتُجار الرقيق. ثم نظر مرة أخرى إلى جسد نبوية وهو يتلوى يمينًا ويسارًا، مُثيرًا رياحًا من الشهوات، فقرر إضافة البغايا والراقصات إلى القائمة.

***

أنهى حسن أفندي شغله مُبكرًا في هذا اليوم القائظ، الذي دفعته حرارته لأن يكتفي بقميص قطني أبيض وبنطال خفيف من الصوف الغامق. سحب قدميه نحو قهوة متاتيا بميدان أزبك ليحتسي قهوته المُعتادة، ويُدخن نارجيلته المُميزة. في جريدة المُقطم تابع حسن الضجة المُثارة حول اتهام أربعة من الوجهاء باسترقاق نساء، رغم صدور قانون مُلزم بتجريم تجارة الرقيق. «إن أول مَن يخرق القوانين هم واضعوها»، قالها لنفسه مُبتسمًا وهو يتصفح صُحف الصباح.

حكت «المُقطم» تفاصيل الواقعة مُنذ بدايتها، عندما أبلغ أحد التُجار اليهود خدم علي باشا شريف، بوجود جوارٍ حسان قادمات للتو من السودان عند أحد الجلابين الكبار، وبالفعل انتقل الباشا إلى منزل الجلاب وعاين الجواري الأربع، وهُن حليمة وسعيدة ومراسيلة وفاطمة، وقدرهُن ثم اختار واحدة فقط، ووافق على إخفاء الثلاث الأخريات بقصره لحين بيعهن. وفي اليوم التالي دعا النخاسون الدكتور عبد الحميد الشافعي، وهو طبيب شهير تعلم في أوروبا وزوجته، لمعاينة الجواري، واختارت زوجته واحدة، ثُم اتجهت بالجاريتين الباقيتين إلى منزل حسين باشا واصف، مدير مديرية أسيوط، وعرضتهما على زوجته فاشترت واحدة، ثُم تم إرسال الجارية الباقية إلى عزبة محمد باشا الشواربي، عضو مجلس النواب وأحد أعيان قليوب.

المُثير في الأمر أن مجلس شورى القوانين، والذي يترأسه علي باشا شريف، كان قد انتقد في جلسته الأخيرة استنزاف ميزانية الدولة في أمور ثانوية، كان منها مصلحة إلغاء الرقيق التي تزدحم بالموظفين الأوروبيين، من ذوي الرواتب الكبيرة. وطالب المجلس بتفكيك المصلحة، خاصة أن تجارة الرقيق انتهت في مصر.

وقالت «المقطم» إن ضابط مصلحة الرقيق بنقطة الأهرام تلقى إخبارية بالواقعة، من أحد مرشديه، فتقدم وألقى القبض على التاجر اليهودي والجلاب ومعهما ثلاثة من مساعديهما، والذين اعترفوا بالواقعة ظنًا منهم أن أحدًا لن يستطيع مُساءلة أحد أكبر الساسة في مصر، وهو الذي تم تعيينه من جانب الإنجليز رئيسًا لمجلس شورى القوانين في سبتمبر ١٨٨٤.

استأذن البكباشي محمد ماهر في القبض على الباشاوات الكبار وأذن له، عدا علي باشا شريف، الذي قررت نظارة الداخلية استدعاءه للقاء شيفر باشا، ولم يُسمح له بالخروج إلا بعد تقديمه شهادة تفيد أنه إيطالي الجنسية.

وقررت السُلطات إحالة المُتهمين إلى المحاكمة العسكرية، وتم تشكيل مجلس للمحاكمة برئاسة زهراب

باشا، وعضوية ضابطين أحدهما إنجليزي، والآخر مصري.

سحب حسن أفندي أنفاسًا طويلة من نارجيلته، مُرسلاً نظرات شفقة إلى الجالسين على مقاعد «متاتيا»، أولئك الذين لا يعنيهم سوى معايشهم، مُتيقنًا أن تلك القضية التي ستذكرها كُتب التاريخ بعد عشرات السنين، لا تهمهم البتة. إنهم مُنشغلون بأقواتهم المتعسرة مُنذ بداية الاحتلال، وتحول مصر فعليًا إلى ولاية تابعة للعلم البريطاني. نظر في جريدة «المؤيد» وهاله أن يُدافع المحسوبون على التوجه الوطني عن الباشاوات المستعبدين للبشر، وتذكر الشيخ علي الصعيدي الذي يُطوع الدين لتأييد توجهات الكبراء. أخبره أحمد سليم أنه سمع الشيخ الصعيدي، في الجمعة الماضية، يخطب من فوق منبر مسجد السلطان حسن، طاعنًا في أولئك الأفندية الذين يُنكرون أن الله خلق البشر أحرارًا وعبيدًا، وأن القول بالمساواة التامة بين الناس يُعد طعنًا في نصوص القرآن، التي ذكرت أن الله فضّل البعض على البعض الآخر.

نفث حسن دُخان نارجيلته طاردًا دفاع «المؤيد» عن الرق، مُستغربًا «كيف لهؤلاء البشر أن يدعوا الوطنية؟». كان أكثر ما أثار سخريته إصرار كُتاب «المؤيد» على أن جلب الرقيق والجواري من السودان ليس في حقيقة الأمر سوى مهمة حضارية؛ لتعليمهن الفنون الراقية وشؤون التدبير المنزلي وتعاليم الإسلام، بطريقة لا يمكن أن يحصلن عليها في السودان نفسه. «آه أيها المتاجرون بكُل شيء. الدين والوطن والتحضر»، قالها مُغتاظًا مُستكملاً قراءته.

التفت مُندهشًا على صوت شاكر أفندي سائق عربة عبد الغفار باشا شكري، وهو يُلقي عليه السلام. لقد خطف مُقلتيه مرأى العربة المُطهمة، يجرها مُهران كحيلان، يُذكره مشهدهما بحكايات جده حول الجنود الأتراك، الذين جاءوا لترتيب زيارة السلطان عبد العزيز لمصر، في عهد الخديو إسماعيل. صافحه بترحاب ودعاه للجلوس، فاعتذر الرجل الذي بدا مُتعجلاً، وأخبره أن الباشا يُريد أن يراه في المساء لأمر ضروري.

- ما الأمر؟

سأل حسن أفندي، فأجابه السائق:

- لا أعلم. قال إنه يُريدك بسرعة. سيكون بالقصر بدءًا من الرابعة مساءً.

هز حسن رأسه موافقًا وقال:

- سأحضر.

وانصرف شاكر أفندي لتعود عينا حسن إلى جريدة «المؤيد»، ليقرأ فيها اعتبار قضية الرقيق مكيدة بريطانية مُدبرة، لإخضاع مجلس شورى القوانين وإسكات صوت الوطنيين فيه. ابتسم مُتذكرًا، كيف استشاره عبد الغفار باشا يومًا في تأييد الخديو في خلافه مع الإنجليز من عدمه، وكيف وافق على تجاهل الأمر ونسيانه إرضاء لسلطات الاحتلال. إنهم جميعًا مثله. أعضاء مجلس شورى القوانين كافة اختارهم المعتمد البريطاني، لكن «المؤيد» يطيب لها أن تخدع قُراءها الذين لا يعلمون. وابتسم مُرددًا عبارته الشهيرة: «مَن لا يعلم يخضع ويذل». وتلك كانت حكمة أحبها وحفظها من الشيخ محمد عبده.

تذكر الوجه الحليبي الرائق، تلك البراءة الصافية المُختنقة بقصر عبد الغفار شكري. نُزهة التي تفوح ألقًا وسحرًا وروعة. عيناها الصاحيتان تجذبان عصافير الصباح لتلتقط الخير من كُحلهما. ثغرها عنقود عنب صيفي، يضب عسلاً شهيًا. تُرى هل يُعاشرها هذا الكهل السمين؟ الباشا الذي ترتعد فرائصه أمام أي قبعة لأجنبي. الرجل الذي يدعي فهم كُل شيء، رغم أنه يعتمد على مشورته في كُل صغيرة وكبيرة. من الجنون أن تُخلق له. فالفارق بعيد بين الصباح والمساء. لقد أخبرته نُزهة أنها جارية، وهو ما يعني أنها «ملك يمين» له، عليها ما للزوج على زوجته. هل يُجبرها ذلك المُستغل على الاستلقاء تحته؟ استغرب سائلاً بصوت هامس: «هل أقر الإسلام بالفعل استرقاق البشر؟ وكيف يُمكن أن تتحول المرأة إلى آلة مُهمتها الإمتاع فقط؟». إن بعض ما يروج له المُستشرقون من أمثال فرانسوا، يستحق التفكير والمُناقشة. هكذا خلص وهو يرمي نظرة

عتاب نحو كُتل من البشر تدور في الميدان، بلا رؤى أو أفكار. تلك الجلابيب المغطاة بسترات من الصوف تمضي بمن فيها راضية ساكنة بفعل القدر، دون أي رغبة حقيقية في قيادته، يصرفها يمينًا نحو سلاطين متغولين باسم الدين، يحكمون من قصورهم البعيدة آلاف الأميال، رعايا لا يرونهم سوى عبيد، أو يدفعها دفعًا إلى السجود أمام ذوي البشرة البيضاء، الذين يعتبرون أنفسهم ملائكة مهمتهم تنظيف قاذورات العالم، بعد استغلال شعوب وقبائل يحكمون بتخلفها ووضاعتها.

تذكر ما قرأه صباحًا في جريدة «التيمس» الإنجليزية، من أنه لا بد لمصر من احتلال إنجليزي أو احتلال فرنسي، وأن بريطانيا لا ترضى أبدًا باستبدال احتلال آخر فرنسي بالاحتلال الإنجليزي.

«أيتها الأمة الناعسة، يا فقراء العقل، وعاشقي السكون، والحالمين بالخوارق: متى تُقررون مصائركم وتختارون طريقكم؟ يا أصدقاء الكسل ورفاق الاتكالية، والراضين بالمظالم: لم تحنون جباهكم وتُطأطئون رؤوسكم لكُل جبار قاهر، أو صاحب نفوذ أو ثراء؟»، هكذا قال لنفسه وللسائرين أمامه في رتابة بميدان أزبك الوسيع المزدحم بالمارة.

***

أي وجهٍ صبوح فتح له فتذكر ليلة صاخبة اهتزت فيها أوصاله، وسمت فيها روحه نحو جبال الأولمب، التي قرأ عنها في الأساطير الإغريقية وهو صغير، لكنه لم يشاهدها بعينيه الزرقاوين. في طريقه إلى القصر المزهر المطل على حدائق شُبرا، انتابته حالة من القلق المفزع من حكايات تجمعت خيوطها لديه، لترسم لوحة كئيبة مُثيرة للخوف من اتصاله برجل يحمل كُل ذلك الشر بين ضلوعه. قالت الفتاة السمراء التي استقبلته باسمة بصدرٍ نصف عارٍ مُثير للرغبات، إن سيدها على وشك الوصول، وإن عليه أن ينتظر في البهو الكبير المخصص للضيوف الأعزاء. قادته في تدلل مُصطنع إلى قاعة ازدانت جُدرانها بلوحات الفنانين الكلاسيكيين في أوروبا، تتوسطها لوحة لجارية سوداء تضب ماء، سبق أن خلبت عقله في زيارته الأولى للقصر ذاته.

تذكر فيليب ذو الملامح الهادئة والجسد الممشوق، الفتاة المُستقبلة التي كانت قبل شهور تغنج تحته، في تجربة لذيذة بدت كعربون محبة من صاحب الدار ذي النفوذ والمال، لكن نظراتها إليه جعلته مُتأكدًا من أنها لا تذكر تلك الليلة، كأنها مُجرد آلة. «كم من الجثامين اعتلتكِ أيتها الكرزة الشهية؟»، تساءل وهو يُلقي جسده الفرهق على أريكة البهو مُنتظرًا إمبراطور مملكة المُتعة.

قبل زيارته كانت خيوط مقتل فتاة الليل بميدان أوزبك قد تجمعت لديه، لتصنع قصة مُثيرة، رغم إصرار كثير من العارفين على إنكار معرفتهم بأي معلومات عن القتيلة، تلك التي ذُبحت بوحشية وألقيت في الشارع كجيفة نتنة، دون أي مُبالاة لعواقب أو تبعات من قبل الشرطة. كان باديًا أن القاتل أو القتلة يريدون تقديم رسالة بأنهم أكبر من أن يعنيهم أحد، أو يخيفهم كائن. تشريح الجُثمان لم يُجل أي معلومة ذات شأن، سوى أن القتيلة تحترف البغاء. موضع النحر ودقته يؤكدان أن الجاني رجل قوي البنيان، متماسك الأعصاب. أما الإفادة التي قدمها جرجس أفندي حلاق الصحة، فتؤكد دون شك أن القتيلة تُدعى أسما، وهي إحدى بنات مملكة الليل، وهو ما دفع فيليب للبحث في سجلات قلم الرقيق، ليجدها جارية مُعتقة في عام ١٨٨٨، وحاصلة على تذكرة حُرية طبقًا للقانون الخاص بتحرير الرقيق. كان التساؤل الملح لدى فيليب عما دفع الفتاة، ذات الجسد الخمري الناعم إلى العودة مرة أخرى للاستعباد لدى إبراهيم الغربي، لتنتقل من فراش لآخر دون أي منافع مالية! لم يحصل فيليب على إجابات شافية من عيونه التقليديين، الذين كانوا في الغالب أشبه بعيون لإمبراطور مملكة الليل الذي يُغدق عليهم من خيراته، لذا فقد استعان فيليب بكونستابل إيرلندي حديث، يعمل في إدارة البغاء لجمع معلومات من العايقات عن القتيلة، حتى علم أنها كانت عشيقة سرية لسمسار يهودي يُدعى صاروفيم. تم استدعاء السمسار، والذي انتابته حالة صدمة عندما علم بذبح عشيقته، وانفجر باكيًا ومُتهمًا إبراهيم الغربي بذبحها. طلب صاروفيم من الضابط الإنجليزي أن يؤمّنه قبل أن يحكي له ما قصّته أسما عن رؤيتها لعثمان الطوشي، رجل إبراهيم الغربي المخيف، يجرجر طفلاً صغيرًا في قبو بيت السعادة

ليحبسه في غرفة ضيقة. تسللت أسما بدافع من الفضول، لتجد الطفل عاريًا كيوم ولد، ومقيدًا بسلسلة نُحاسية ممتدة حتى نافذة الغرفة، والدم ينقط من بين رجليه. كان واضحًا أن غثمان قد قام بإخصاء الطفل بموسى قبل أيام، وأن المسكين يتم تحضيره لهواة الصبية من التُجار الأجانب، والذين لا يجدون حرجًا في إبداء رغباتهم الغريبة والشاذة. دفعت بقايا الرحمة المغروسة بقلب المومس أن تفك سلاسله، وتُهربه إلى قبة الدراويش بالسيدة نفيسة، ليعيش وسطهم كمجذوب تكفيه لُقيمات صغيرة. استشارت أسما عشيقها الذي وبخها، مؤكدًا أن معرفة إبراهيم الغربي بالواقعة كفيلة بقتلها، وهو ما جرى بعد أيام.

قال صاروفيم إن أسما كانت راضية بالعمل لدى إبراهيم الغربي، أملاً في التعلق بأي من التُجار الأجانب ليُساعدها في السفر خارج القُطر، خاصة لتلك البلاد الباردة التي يسعد الناس فيها. كان ذلك هو أملها الوحيد، ودافعها الأكبر للعمل كعايقة لدى أشر إنسان على ظهر الأرض. وكثيرًا ما حكت أسما لصاروفيم عن غثمان الطوشي، الذي يُعذب الفتيات المتمردات في بيت إبراهيم الغربي، حتى إنها أخبرته أن بعضهن يُعلقن من أقدامهن عرايا حتى يفقدن الوعي، بينما يتم جلد أخريات على مؤخراتهن حتى تدمى.

علم فيليب أن بيوت إبراهيم الغربي تعج بالفساد والجريمة، بالقسوة والعنف، بالخوف والتذلل. فيها ما لا رأته عيون، ولا سمعته آذان، ولا توقعته أذهان. فيها دنس الخطيئة ووضاعة النفس البشرية عندما تغلو في الدنو. مُخدرات، بغاء، لواط، تعذيب وسادية، تلك هي إمبراطورية السعادة المزعومة.

تكررت في أذن فيليب مقولة جرجس أفندي، حلاق الصحة، عندما قال له عن القتيلة: «إنها لا بد قد ارتكبت خطأ كبيرًا»، ليخلص إلى أنها عرفت، وفي بلاد الشرق الموغلة في التخلُف فإن المعرفة جريمة تستحق الموت. هكذا كان لا بد لتلك الفتاة أن تموت، وهكذا كان لا بد له أن يحفظ التحقيق، لأن ماريا قد تهجُره لو توقفت هدايا وهبات إمبراطور الليل الباهرة. تذكر فيليب كيف احتضنته قبل أيام وهي تشكُره على الخُلخال المُطعم بحبات من العقيق، والذي وصلها في صندوق أبنوسي صغير، وعليه حرفا إم وإف. يبدو أن تلك الهدية التي لم يشترها، هي التي دفعت زوجته الجميلة إلى الموافقة على قضاء الصيف شديد الحرارة معه في القاهرة، وإلغاء تخطيطها السابق للعودة إلى بريطانيا، لتضع مولودهما الأول هُناك.

كسا الملل وجه فيليب وهو ينتظر قدوم السيد الأسود، وزارت دماغه تساؤلات عُنصرية عما دفعه للتورط في قبول هدايا قطعة فحم تنحدر من سُلالة عبيد. دخلت الفتاة السمراء التي لا يذكر اسمها وهي تحمل طبقًا ممتلئًا بثمار المانجو، وانحنت في تدلل واضعة الطبق أمامه، فاختطف بصره شقٌ مُظلمٌ طويل يمتد بين كرتين تُطلان من فرجة قميصها الساتان. اضطرب قليلاً ولاحظت، فرسمت ابتسامة ناعمة ثم أمسكت بأصابعها قبعته ووضعتها فوق رأسها، وقالت في تدلل وهي تنظر في عينيه الزرقاوين: «سيدي، ما أجملك!»، ثم مشت في بُطء وهي تهز عجيزتين صغيرتين، سلبتاه ما تبقى من برودة أعصابه. تململ في جلسته مُقارنًا فارق الإثارة بين ماريا المُتصلبة كلوح ثلج مُصمت، وبين الحبشية الفارعة المُشتعلة كنار لا تنطفئ.

سمع فيليب جلبة ونفخ بوق وأقدامًا مُسرعة، فعلم بقدوم إبراهيم الغربي، وتثبت من حدسه عندما لمح بطرف عين صفًا من الظهور المُنحنية احترامًا. «هذا الشاذ يُعبد في هذه البلاد الغريبة»، قالها فيليب لنفسه، قبل أن يسمع إبراهيم مُرحبًا ثم مُصافحًا، وعلى وجهه ابتسامة ود. وقف مُتصنعًا الهيبة لتُصافح كفه يدًا سوداء ناعمة، زينتها خواتم من الألماس وتحلقت حول معصمها أسورة من الذهب.

بإنجليزية سليمة قال إبراهيم لضيفه:

ـ أهلاً وسهلاً. لو علمت بتشريفك لاستقبلتك بما يليق بك.

ابتسم فيليب في خُبث قبل أن يزد:

ـ لا عليك. لقد جئتك سائلاً.

رفع إبراهيم ساقًا من تحت عباءته المزركشة بكل ألوان البهجة ليضعها فوق أخرى، بعد أن جلس على

الأريكة ودعا ضيفه للجلوس، وقال:

- سائلاً أم مستجوبًا؟

رد فيليب:

- الفتاة أسما.

- ما لها؟

سأل إبراهيم وهو يُشير إلى وصيفته حوا طالبًا شرابًا، وتلقى الرد المُنتظر:

- ذُبحت.

لم يُبد إبراهيم أي ملامح تأثر، أو انفعال، وتناول قارورة من الكريستال وضعتها حوا أمامه وصب كأسًا من النبيذ لفيليب، قائلاً:

- إنه فرنسي.

واستكمل باسمًا:

- لذيذ جدًا.

اعتدل فيليب في جلسته وتناول كأس النبيذ، وقال لإبراهيم:

- الفتاة ذُبحت لأنها شاهدت جريمة إخصاء لطفل صغير، وجميع المعلومات المُتجمعة لدينا تقول إنها كانت تعمل لديك بغيًا.

رشف إبراهيم رشفة من كأسه، وهو ينظُر باستهانة إلى فيليب وهو يواصل، قائلاً:

- التحقيقات في القضية تستلزم توجيه الاتهام لك بالتحريض على قتل فتاة، وباستغلالها، وبحبس مجموعة من الأرقاء لديك، فيما تُسميه بيوت السعادة و...

لم يُكمل فيليب إذ أوقفته إشارة من كف إبراهيم، والذي علا صوته:

- من أين أتيت بهذه الخُزعبلات؟ مَن الذي يستطيع أن يتهمني؟ إن قناصلكم وقادتكم زبائن عندي، وخدماتي للتاج البريطاني لا تُقدر بثمن.

سرت رعشة خفيفة في أوصال الضابط، وهو يلحظ احمرارًا طاغيًا بعيني مُحدثه، الذي انفجر قائلاً:

- مَن يكون هؤلاء الأغبياء الذين يعملون لديك ليُشوهوني؟ لا بد أن بعض عملاء الإرهابيين من المصريين اخترقوا بوليسكم، ليضربوا الإمبراطورية البريطانية في أحد أهم رجالها في مصر.

- إنني أتحدث عن القانون لا السياسة، يا إبراهيم.

قالها فيليب قبل أن يباغته الرد:

- ملعون أبو القانون.

ثم أردف إبراهيم:

- أي قانون يسوس هؤلاء الجهلة المُتخلفين الذين جبلوا على الخنوع؟ إنهم عبيد ولا يُمكن لقانون أن يُحررهم من العبودية. ألم تحظروا الرق؟ إنني أؤكد لك أنهم ما زالوا يخضعون لمَن يملك المال والنفوذ، أكثر من خضوعهم لمالكيهم السابقين.

- الأمور قد تخرج إلى العلن والصحافة تنتظر أي قضية لتكتُب عنها، وأنا في النهاية أعمل وفق قوانين

وقواعد عامة.

قال فيليب الذي بدت ملامح وجهه مُعتذرة أمام غضب المارد المهيب. ثم تناول عنقود عنب من طبق كبير وضعته الفتاة السمراء أمامه، قبل أن يقول إبراهيم:

ـ لا تقلق من شيء. أنا خارج حساباتكم، ورؤساؤك يعلمون أنني خارج حساباتكم، لذا لن يسألك أحد عن شيء. والفتاة القتيلة لا أهل لها، والولد الذي يعشقها سيسكت تمامًا.

برقت عينا فيليب توجسًا، فأكمل إبراهيم:

ـ لا تخف. سيسكته المال. إن المصريين لديهم غرف اسمه الدية، وهذه الفتاة لا يكترث لأمرها أحد سوى عشيقها السمسار اليهودي، وأنا سأدفع له ديتها وسيشكرني.

هُنيهة من الصمت لم تطل، نظر خلالها إبراهيم نظرات ذات مغزى إلى وصيفته حوا السودانية، قبل أن يُنهي الكلام:

ـ لا تقلق أبدًا. مَن معي لا ينبغي له أن يقلق. والآن قُم إلى صديقتك الحبشية لتأخذ واجبك. قُم يا رجل.

قام فيليب ووضع قُبعته فوق رأسه، لتسحبه الفتاة السمراء التي استقبلته إلى غرفة بالقصر سبق أن اختبر نساء الشرق فيها، ولمح ابتسامة رضا مُلتصقة بشفتي الحاكم الأسود. ومضى راضيًا بما جرى.

***

قالت مأمونة وهي مُستلقية على ظهرها الذي بدا كهيكل عظمي، ما زال يكسوه الجلد الغامق لنُزهة التي جلست إلى جوارها، وفي يمينها ريشة غمستها في كحل سيدتها:

ـ الألف نخلة مستقيمة لا تميل مع الريح. والباء طشت تحته نقطة. لو نطقا معًا لصارا «أب».

لامست الريشة ورقًا أصفر لبقايا جريدة جلبتها نُزهة من غرفة سيدتها لتكتب عليها، فبدت النخلة حقيقية، بينما تشوهت الباء عندما عنيت الراسمة بنقل طشت الباشا الكبير كما هو، فابتسمت مأمونة قائلة:

ـ ليس هكذا.

ثم مدّت يدها المعروقة لتقبض على الريشة بأصابع مرتعشة، قبل أن ترسم نخلة مستوية دون ثمار. وقالت:

ـ الألف تُنطق أأ.

كانت عينا نُزهة الجميلتان تشعان إصرارًا وحماسًا، وهي تُتابع رسم الحروف على الورقة، متخيلة نفسها تقرأ الصُحف والكُتب كما تفعل سيدتها أم الحُسن في نهاراتها الطويلة. سنواتها الفائتة لم تقنص خلالها لحظات فرح حقيقي، كتلك التي تغزوها وهي تتبدل من جارية لا تعرف شيئًا، إلى فتاة تلم وتعلم بما يدور حولها. الجهل عبودية ومَن لا يعرف ليس كمَن يعرف، لذا فإن أمنيتها التي لم تقدر أمها الراحلة أن تُحققها لها في بيت لحم، قاربت على التحقق على يد جارية مريضة، تعلم يقينًا أنها على أعتاب القبر. إنها تدعو الله كثيرًا أن يمد عُمر تلك الجارية المُصابة بتورمات خبيثة في صدرها، حتى تتعلم منها نُطق وكتابة الحروف كافة. لقد سمعت نُزهة عند قدومها إلى المحروسة أن هُناك مدارس قليلة يُسمح فيها للفتيات بالتعلم، وهو ما كان تُجار بيت لحم وأعيانهم المسافرون إلى القاهرة يتندرون به في مجالسهم الخاصة. تتذكر نُزهة كيف سألت سيدها الأول عن ذلك يومًا، فأجابها أن النبي عليه الصلاة والسلام نفسه كان أميًا لا يقرأ، وأن تعليم النساء عمل مرذول لأنه يفتح باب الفتنة.

طلبت نُزهة من مُعلمتها أن تقرأ لها المكتوب على صفحات الجريدة التي اختلستها، لينساب الكلام عذبًا على سمعها كطقطوقة من بدائع الست أُلمظ، التي تمنت أن تراها يومًا من الأيام. قرأت مأمونة في تريث:

«كان يوم الثلاثاء عجيبًا على أهالي المحروسة، الذين تجمعوا في أول دار للفوتوغراف المتحرك قرب حمام شنيدر بشارع حمامات العوم، ليشاهدوا قصة مصورة من اختراع المسيو لومبير من ليون. اغتبط الناس من تلك الآلة العجيبة التي نقلت صورًا لشخوص يتحركون، ويتشاجرون كحالهم في الحقيقة، وبادر الكُبراء والباشاوات بتهنئة صاحب الدار، الذي قرر فتح الباب للعوام مقابل قرشين للرجل».

انعقدت ملامح الدهشة لدى الفتاة الصغيرة، ونظرت إلى مأمونة مُتسائلة:

- كيف يكون ذلك؟

فأجابتها القارئة المريضة مُبتسمة:

- لله في خلقه شؤون.

ثم أردفت:

- لقد رأيت العجب في بيوت الباشاوات من قبل. إن فنون السحر كثيرة ومصر بلد العجائب.

جالت في مخيلتها صاحبتها المغربية التي باعها الجلاب إلى شيطان مريد، يستغلها كغانية تفتح ساقيها لكُل عابر مُقابل لقيمات تسد رمقها، وتذكرت كيف أخبرتها أن حُلمها في حال عتقها أن تفتح بيت سعادة. تتذكر آسفة كيف انقلبت نبوية إلى مومس، كم تكره هذه الكلمة. ابتسمت في سُخرية ثُم قالت لنفسها: «العلم هو الحُرية».

قلبت نُزهة الورقة لتطالع تصويرة لحضرة الخديو بملابسه الأخاذة، ولحيته المُهذبة، ثُم سألت مأمونة عنه فقالت لها:

- إنه الباشا الكبير الذي نعيش جميعًا في ظله وخيره. الجميع يحبونه لأنه قوي جدًا وشجاع، ويحسب له الإنجليز ألف حساب.

لم تر نُزهة من قبل تصويرة لأي من ولاة البلاد، وحتى خروجها من بيت لحم لم تكن تعرف مَن الشيخ أو الباشا الكبير لتلك المدينة، لكن في طريقها إلى مصر مع حسن الجلاب عرفت منه أن هناك سلطانًا أعظم للمسلمين، وهو خليفتهم المُختار من الله، وأن هذا السُلطان يعيش في بلاد بعيدة تُسمى الأستانة. وقال لها أيضًا عنه إنه قوي وعادل وعظيم، ويعرف كُل شيء يحدث في مملكته، التي تمتد من أرض النبي في الحجاز، وحتى مراكش البعيدة جدًا.

فكرت نُزهة طويلاً أين يُمكن أن تجد صورة ذلك السُلطان الأعظم، وكيف يُمكن أن تصل إليه لتُخبره بما تتمناه ليحققه لها. قالت لنفسها إنها تحلُم ببيت صغير، وزوج طيب يبتسم في وجهها، وجلباب ناعم، وحصيرة طويلة تقيها رطوبة الأرض، ومرآة صغيرة تُطالع فيها وجهها، لتتأكد من نضارته قبل أن تستقبل زوجها العائد من شقاء العمل، ومشط صغير يشبه أيًا من أمشاط سيدتها، وقارورة عطر وردي، وقُلة صغيرة تروي عطشها في الأيام الجهنمية، وقدر كبير يُمكن أن تطهو فيه مرقًا كثيرًا يكفيهما أيامًا. ولو كان لديها خُلخال من الفضة لأصبحت مُمتنة، ولو أضافت إليه حلقًا صغيرًا فإن ذلك سيكون فضلاً وكرمًا بالغًا. تحلم نُزهة أيضًا بألا يضربها ضارب، ولا يسبها شاتم، ولا ينظر إليها ناظر باحتقار وتدنٍ. تُريد أن تُصبح إنسانة لا أداة، كائنًا له إرادة لا أسيرة، مُخيرة لا مُسيَّرة. تتمنى أن تأمن على جسدها الذي تعتقد أنه يخُصها هي، ولا يحق لكائنٍ أن يستغله بأي شكل. حتى سيدتها؟ سألت نفسها، ثُم تذكرت كلمات الأفندي الأسمر الذي قال لها يومًا إنها حُرة، وإنه لا سيد لها على هذه الأرض. ذلك الشاب الطيب المُهندم الذي سمعت الباشا يُناديه بحسن أفندي. كم كان رقيقًا وهو يمنحها نظرات لُطف وإعجاب بريء، لم تعرفه من سيدها. لا، إنه ليس «سيدها» كما قال حسن أفندي، وإنما هو صاحب الدار فقط.

استكملت نُزهة حصة التعليم وهي تُفكر فيما يُمكن أن يفعله لها سُلطان المُسلمين الأعظم، الذي حدثها عنه

حسن الجلاب. كانت تُحاول تهجي كل حرف يخرج من شفتي مُعلمتها الممصوصة كقصب شهي، مانحة روحها دفعة تشجيع لمواصلة التعلم واكتساب المعرفة.

ـ الدال نخلة مُنكسرة، والراء حبل مُرتخٍ، ويَنطقان معًا دُر، أي لؤلؤ مثل الذي تحتفظ به الست أم الحُسن في خزانتها.

سرحت نُزهة قليلاً، ثم سألت المريضة الهادئة الراقدة على أرضية مستودع المؤن الصلبة في فضول عن اسم سلطان المُسلمين الذي يعرف كل شيء، ويقدر على أي شيء، فأجابتها كأنها تنتظر السؤال:

ـ السُلطان عبد الحميد، حفظه الله ونصره على الكفرة والمُشركين. هو سيدنا وسيد مولانا الخديو.

ابتسمت نُزهة وتمتمت في أمل:

ـ حفظه الله. آمين.

***

أطول من تلك المآذن المُلتفة حول بيوت طينية، وحجرية، تتراص في خطوط متوازية مُكونة قلب القاهرة. هكذا كان يرى نفسه وهو جالس أمام مقهى السعادة، على مقعد خشبي دون مساند، مُتذكرًا شلالات الخوف المُنفجرة من وجوه النسوة، والأغوات مُختلفي السحنات والألوان، في مملكة الليل، عندما يقفون أمامه. غثمان أغا هو المهيب الأكبر، المارد الأقوى، النافذ لدى السيد، والمُتحكم في رعيته. عيناه تبثان شررًا لا نهائيًا، ينفذ بسرعة إلى قلوب الرائين فيقبضها ويعتصرها اعتصارًا. مُذ التحق غثمان أغا بخدمة إبراهيم الغربي وهو يعتمد عليه في كل شيء. ترتيب مواعيد عمل نسائه، والعناية بلباسهن ومأكلهن وصحتهن، تنظيم حفلات المقاهي، دفع أجرة المُستخدمين من حمالين وخدم ومبعوثين، وكُتاب عرائض وحلاقين صحة، ونساء سحابات، متابعة شبكة ناقلي المعلومات والأنباء هُنا وهُناك، والأهم من ذلك تنفيذ أحكام السيد دون مُناقشة أو تردد.

يتذكر غثمان وعيناه تُتابعان رتابة المارة وهم يسيرون مُحنيي الرؤوس في سكون، كيف أطبقت يمينه على فم الفتاة الناعسة، فحبست أي نيات للاستغاثة في قلبها. أسما، تلك الفتاة الخمرية اللعوب، التي خالفت قوانين إبراهيم الغربي وتورطت في خيانته. فتحت ذات البشرة الخمرية والجسد المُلتهب خبيئة مولاها، وهددت بفضحه وتجريسه، فحق عليها الموت، ونالت ما تستحقه بظن غثمان أغا. جرها جرًا من غرفة نومها إلى قبو التأديب، وكل مَن حولها صامتون يودعونها بنظرات شفقة، وسألها عثمان عن الصبي الصغير الذي اشتراه إبراهيم الغربي قبل أيام، استجابة لطلب قُنصل أوروبي مُهم، كان حُلمه مفاخذة صبي صغير خصي، فلم تجبه وصرخت شاتمة ضاربة، لتنفذ أظفارها في رقبة المارد المهيب. وقتها لم يحتمل عثمان انكسار هيبته في نفوس النساء الخواطي، فصفعها صفعة أفقدتها الوعي تمامًا.

سقطت أسما لينحسر ثوبها عن جسد ممصوص فائر، مُحمر بإغراءات لا منتهى لها، حاول معها غثمان أن يضبط رغبة أو شهوة في نفسه فلم يجد، فتضاعف غضبه وهرع إلى قصر سيده سائلاً القرار، والذي كان يعلمه سابقًا من حوادث مُشابهة. لم يُخيب الملك المتوج ظنه عندما انحنى أمامه مُقبلاً يمينه، فقال بعد أن استمع إلى ما جرى: «خُسارة يا أسما. كانت عزيزة»، ثم أشار بإصبع توسطه خاتم ذهبي إلى العُنق، فأسرع غثمان الخُطى نحو قبو التأديب بمسكن المومسات، ثم شحذ سكينًا يحتفظ به في صديريته، وألقى نظرات عابرة إلى جسد أسما الأبنوسي الناعم، والتي كانت لا تزال فاقدة للوعي، قبل أن يرفع رأسها قليلاً إلى الوراء، ويقطع أوردة الحياة بعُنقها الطويلة لتشهق شهقات غير مُكتملة، وشلال الدم ينهمر في روعة ناثرًا رذاذًا من النشوة في قلب نصف الرجل البارد. رقصت الذبيحة في عفوية، ارتعشت أوصالها كراقصة مُخضرمة تستعذب لحنًا لم تسمعه من قبل، وترجرجت أطرافها يمينًا ويسارًا وانحسر الرداء عن وركين رائعين، رماهما غثمان بنظرات تشفٍ ورضا، قبل أن يمسح الدماء عن سكينه في كعب بُلغته، مُنتظرًا حلول المساء ليرمي جريمته أمام المزبلة

العمومية بالأزبكية.

لم يكن ما جرى مفزعًا أو صعبًا على عثمان، فقبل عقود كان صبيًا في الغابة معتادًا على مشهد الذبح في أرض خضراء، تطل على نهر السوباط، عندما كان الخرطوميون يصطادون الشاردين من قبيلته، فيسحبون بسكاكينهم رقاب المقاومين الرافضين للاستعباد. لو قاوم وقتها لما كان واقفًا هكذا أمام مقهى السعادة، يحسب حسابه الجميع ويخافه الناس.

بعينين جاحظتين احمرتا قسوةً وتجبرًا، لمح وجهًا جديدًا يُلقي بنظرات ريبة إلى مقهى السعادة بين الحين والحين. اعتدل في جلسته مانحًا نفسه لحظات تدبُر وتشكك. فمن يكون هذا المترصد الغريب، الذي يوحي وجهه بشرور وعداء؟ سأل نفسه وهو الخبير بملامح القتلة، فشتمًا رائحة كل صاحب أذى، قبل أن يتذكر أنه سبق أن رآه في المقهى للمرة الأولى قبل أيام ضمن الرواد. ملابسه تدل على كونه ميسورًا، لكن حركاته لا تشي بباحث عن بغايا، أو حتى غلمان. اشتعل الرأس الأسود فكرًا، ثم قام إلى داخل المسكن لينادي إحدى السخابات، ويشير لها بيده إلى صاحب نظرات التطفل، لتذهب إليه.

اقتربت ملاءة سوداء ببرقع يُخفي وجهها من صاحب النظرات المقلقة، وهمست وهي تمر بجواره:

ـ لحم لذيذ. المرة الأولى بنصف قرش كرمًا لك.

لم يُبد انفعالاً وابتسم راميًا عثمان أغا بنظرة تحدٍ، قبل أن تردف السحابة:

ـ الأغا سيُقدم لك أشهى الجواري. إنه يُبلغك تحياته. حريم سيدي إبراهيم الغربي دائمًا فاكهة النساء في المحروسة. هُنا الشقراء الأرمينية، والسمراء الحبشية، والخمرية المغربية، وبنت البلد القمحية. نظيفات وسليمات ويفعلن كل شيء.

حالة امتعاض حاول الرجل إخفاءها، وتذكر حديثه مع صديقه الوفي حسن أفندي عن النساء وجمالهن، ثم نظر شزرًا إلى السحابة، وقال بعد تردد:

ـ سأجربهن قريبًا. قريبًا جدًا.

وألقى نظرات بعيدة نحو عثمان أغا الذي وقف شامخًا، وقال في سره: «سيكون قتلك ممتعًا أيها الكلب النجس. لن أخلص إلى الشيطان وأنت لا تزال تتنفس»، وهز رأسه موافقًا للسيدة السحابة، وجر رجليه منسحبًا.

***

في غرفته المسقوفة بالجريد في حارة الخرنفش، لاحظ حسن أفندي خشونة ملمس وجهه، متذكرًا أنه لم يحلق ذقنه منذ ثلاثة أيام. كان قد حصل على إجازة ثلاثة أيام ليُعيد ترتيب فرشه البسيط، بعد أن انتقل من عطفة السمكي بجوار الحسين إلى حارة الخرنفش، استجابة لطلب صاحب الدار الجديد، الذي طلب إخلاء الغرف المؤجرة فعلمًا عزمه بناية فندق للأجانب. إن حسن أفندي مثل كثير من غير القاهريين، كان يشعر بأمان وراحة بال إلى جوار الحسين شهيد آل البيت، الذي أبى الظُلم وقدم روحه فداء للحق، فأحبه المصريون كما لم يحبوا أحدًا.

فكر كثيرًا فيما حدثه عنه عبد الغفار باشا شكري بشأن مشكلة صنعتها زوجته الشركسية، عندما اشترت قبل شهور فتاة صغيرة لتساعد السيدة المُسنة في أعمال التنظيف، ولم يخطر ببالها أن حظر تجارة الرق أمر حقيقي، وأن السُلطات البريطانية ستتشدد في ذلك.

نظر إلى فرش غرفته البسيط الذي لم يتجاوز أريكة من الجريد مكسوة بالصوف، وخزانة خشبية مستطيلة، متشككًا في رواية الباشا للموضوع، خاصة أنه قدمه باعتباره مُحسنًا كبيرًا أشفق على بنت صغيرة بلا أهل، وقرر حمايتها من الانحراف، أو العمل في الفلاحة بالصعيد، فوافق على أن يشتريها لتعليمها والعناية

بها، ثم تزويجها بشخص مناسب يصونها ويراعي فيها الله، وكان ما جرى من واقعة الجواري الثلاث اللاتي اشتراهن باشاوات معروفون قد أثار لديه القلق، وخشي أن ينقلب الخير إلى شر بإيعاز من أي من الكارهين الذين يتتبعون أسرار الناس، فيلحقه أذى كبير.

كان المصريون قد تابعوا ما جرى مع علي باشا شريف والأعيان الثلاثة، عندما أمر الإنجليز بالقبض عليهم تنكيلاً وانتقامًا، بعد أن وجدوا لديهم جواري تم جلبهن من السودان. شُكلت محكمة عسكرية لمحاكمتهم ومعهم النخاسون والتجار والوسطاء، بقصد فضح مصر دوليًا، كرد على إهانة الخديو للقائد البريطاني. وتابع الناس صولات وجولات كثير من الشيوخ الأزهريين، الذين اعتبروا إلغاء تجارة الرقيق مخالفة واضحة للدين الإسلامي، لأنه سيسقط إحدى وسائل الخير المذكورة في الشرع وهي عتق الرقبة. وقال عبد الغفار باشا لحسن إنه لم يكن يتوقع أن يصل الأمر إلى وضع حسين باشا واصف، والشواربي باشا، والدكتور عبد الحميد الشافعي، إلى جوار النخاسين والسماسرة في القفص، مؤكدًا أنه كان يتصور أن يكون الأمر مجرد ضغط أو تهديد. كما لم يتصور الباشا أن ترسل المحكمة إلى القنصلية الإيطالية لتسألها إن كان علي باشا شريف، رئيس مجلس شورى القوانين، متمتعًا بالحماية الإيطالية أم لا، وأن يأتي الرد بأن الباشا لم يدفع الاشتراكات المفروضة على الرعايا الإيطاليين منذ عدة سنوات، وهو ما يعني أنه لم يعد من رعاياها.

ـ تصور يا حسن أفندي أن يطلب القاضي الإنجليزي من الجواري أن يشهدن على سادتهن!

قالها الباشا مُضيفًا:

ـ لقد سأل القاضي إحداهن إن كانت تعرف الشواربي باشا، فأجابت بنعم، وسألها إن كانت له لحية فلم تعرف معنى اللحية، وسخر الحاضرون وضحكوا.

وقال أيضًا والأسى يكسو وجهه:

ـ لقد صرنا أضحوكة، نحن الذين كُنا نشتري العبيد لننقلهم من التعاسة إلى السعادة، ونُحسن تربيتهم وكسوتهم، وننقذهم من الشقاء والفقر. هل رأيت ظُلمًا أكبر من ذلك؟

بالطبع لم يُجبه حسن أفندي، لأنه يعرف جيدًا معنى الظُّلم. قال ساخرًا لنفسه: «أن يكون هو عضوًا بمجلس شورى القوانين، للدفاع عن حقوق الناس ظُلمًا، وأن يُبعثر هو وزوجته العاقر آلاف الجنيهات على مظاهر كاذبة، وهناك حُفاة وعُراة يموتون جوعًا في صعيد مصر، هو الظُّلم ذاته، وأن يستعبد الرجل سيدة حبشية ويشتري أخرى لا أهل لها، ولا علم أو وعي، لا يُمكن أن يوصف بغير هذه الكلمة». ثم أردف حسن بصوت مسموع قائلاً: «حياتكم نفسها أكبر ظُلم كما قال أحمد سليم الوطني الجموح».

في تلك الزيارة التي دُعي إليها، رأى حسن نُزهة بوجهها الصبوح تحمل إبريق المياه الباردة لتضعه أمامه في هدوء وثبات، لكنه لمح هذه المرة كبرياء في الوجه الصبوح، ولاحظ على غير المُعتاد أن جبهتها مرفوعة لا محنية. منحته ابتسامة ينتظرها، قبل أن تقول له:

ـ شرفت يا حسن أفندي.

وكالعادة استشاره الباشا فيما عليه فعله في مشكلة الجاريتين، فقال حسن أفندي في ثقة:

ـ ابعث بهن إلى مصلحة رعاية الرقيق.

لكن الباشا رد كمَن لدغه عقرب:

ـ لا، سيعرف بذلك الخصوم وسيتهمونني بمخالفة القانون.

صمت حسن كثيرًا مُتذكرًا حُكم المحكمة في قضية الرقيق الشهيرة، والذي منح البراءة للباشاوات، وحكم بحبس الدكتور عبد الحميد الشافعي، وصدر عفو من الخديو عن علي باشا شريف، بينما وصلت سنوات

الحبس إلى خمس سنوات على التجار والنخاسين. وود لو قال للباشا: «إنكم دائمًا تفلتون من العقاب، لأنكم باشاوات مُحصنون، أما الرعاع فحق عليهم العقاب، ولهم وُضعت القوانين».

برقت عينا عبد الغفار باشا وهو يعرض على الأفندي الكاتب، الذي سبق أن توسط له ليعمل بالمقطم، عرضًا أثار طنين الذُباب في رأسه.

- ما رأيك يا حسن أفندي أن أعتق هذه البنت الصغيرة التي فتحت لك الباب، وتتزوجها، وتأتي هي للخدمة عند الست أم الحسن كل يوم مقابل عتقها؟

عقدت الدهشة حاجبي حسن وانعقد لسانه، وتذكر راتبه الذي لا يكفيه سوى حق المعسل والقهوة، وبادر إلى الرد، لكن الباشا سارع قائلاً:

- لا ترد الآن وفكر بالأمر يا حسن أفندي. هي فتاة رائعة، وكل ما هنالك أنني لا أستطيع أن آخذها من أم الحسن عنوة لتحريرها، ولن تتكلف أنت شيئًا. سأبعث إليك وابورًا جديدًا، وطشتًا كبيرًا، وكسوة لها، وبعض لوازم الطهو وأدواته.

نظر حوله ليلحظ شعاعًا مُتسربًا من شيش نافذة الحُجرة، مُعلنًا صباحًا جديدًا، وفكر في صاحبة الوجه الحليبي، تلك الناعسة البيضاء، التي تتورد وجنتاها حياءً. جميلة بجمال رائق وجذابة بشكل أخاذ، وقدها مُتناسق لم يشوهه ولادة ولم تُقبحه سمنة. هكذا قال وهو يتذكر دفقات العزة المنبعثة من وجهها في اللقاء الأخير، ثم وخزت رأسه مخاوف أن يكون الباشا قد وطئها. ذلك الكهل الكريه الذي لولا فضله في توظيفه لما نظر في وجهه وما صافح يمينه. هل يسأله؟ كيف ذلك؟ وهل يجرؤ؟ وإن كانت ثيبًا هل يُحدث ذلك فرقًا؟

قام نافضًا ملاءة خفيفة تناسبت مع دفء أكتوبر، وفتح نافذته ليُلقي نظرة الصباح على حارة مُفعمة بالحياة، حيث ازدحم محل الطرابيش بالزبائن، بينما وقف رجل كث اللحية، عظيم البُنيان، يملأ أواني الصبية والنساء بالفول المُدمس في قدر كبير، وعلى رأس الحارة بدأ العمال يتوافدون على مصنع النسيج القديم، الذي غرس أقدامه بالحارة منذ أيام الباشا الكبير محمد علي.

مسح غماضًا جف على ناظريه قبل أن يُقرر حلق ذقنه، والذهاب إلى العمل، ثم زيارة صديقه أحمد سليم ليستشيره في عرض الباشا. إن قلبه يُحدثه بأن يقبل، بينما يصده عقله، وهُنا فإن رأي صديقه الحميم سيحسم الاختيار.

***

على ضوء خافت لمصباح زيتي جلس فرانسوا يكتب رسالته إلى جولد تسيهر، صديقه الباحث القديم، الذي التقاه قبل سنوات في سوق الحميدية بالشام، قبل أن يسافر إلى بودابست مُتفرغًا للعمل الدؤوب. ببيجامته الحريرية الخفيفة وبغليونه المُشتعل دائمًا، بدا فرانسوا مُنهمكًا في تدوين رؤاه وتصوراته حول أناس أجلاف، يعتبرهم كائنات متوحشة لا بد من اجتثاثها. غمس فرانسوا ريشته في حبر أسود ليُلامس به صفحات بيضاء من ورق أصفر، فيلطخها بكلمات احتسبها عملاً مُقدسًا في سبيل حركة صاخبة، بدأت تنشط لمواجهة مَن يعتبرهم أعداءً للبشرية.

«تتذكر يا صديقي حديثنا المُمتد في باحة المسجد الأموي، عندما قُلت لك إن الانتشار السريع الذي حققته الدعوة المُحمدية يرجع إلى سهولة التأثير في أصحاب الحضارات القديمة، من الفلاحين والبدو الضعفاء، الذين اعتادوا على التشرذم والتفتت. لقد جاء مُحمد إلى مجموعة من الرعاع الهمج الأقوياء، ليُنظّم عقولهم ورؤاهم ويعيد تهذيب أذواقهم الخشنة، لذا فقد حقق نجاحًا مُذهلاً. من هُنا أتصور أن أفضل مواجهة لهؤلاء لا تنعقد بمُجرد هزيمتهم عسكريًا، واحتلال بلادهم، وإنما بكسر إرادتهم الروحية وتعظيم تصوراتهم المُصمتة عن العقيدة، والترويج لعظمتهم وطهارتهم ونقائهم وأخلاقهم الحميدة، رغم ترديهم الحقيقي. لقد كُنت أرى، ولا أزال، أن كشف ادعاءات نبيهم وتأكيد كون كتاب القُرآن مجرد نصوص قديمة، مستوحاة من التوراة والإنجيل،

لا يُجدي مع أولئك القوم، خاصة أنهم يرون في حياة نبيهم جوانب من التسامح والوفاء والرقي، وأن الأفضل هو تقسيمهم والإشادة بغرائبهم وتطرفهم. وبعد سنوات من البحث والدراسة، أثبتت الأيام صحة تصوري، ما جعلني أكرر وأشيد بكتابات وآراء فقهائهم، المشجعة للعنف والداعية إلى عداوة الآخر وسحقه. إننا يجب أن نُكرر ما يقوله جُهلاؤهم عن الجهاد والحروب التوسعية، وضرورة محو الكُفار من الوجود، على اعتباره غاية ما تركه مُحمد. لقد دفعني ذلك يا صديقي لأن أمد يد العون بصورة مُباشرة، وغير مُباشرة، لأولئك الذين يتحلق حولهم الطلبة، ليستمعوا إلى مناهجهم في الرضا بكل ما هو في الدين، دون تمييز أو تدبر. وفي لقاءات عديدة مع هؤلاء، كُنت أبدي إعجابي بتصورهم المُحتشم بشأن المرأة، وبغاية الرب في خلقها كسند للرجل ووسيلة إمتاع. وقُلت لهم مرارًا إنني أحترم وأقدر فكرتهم بشأن ضعف عقل المرأة وقصوره، وإنني أميل مثلهم إلى ضرورة بقائها في البيت، حتى لا تخرج منه إلا إلى القبر. كذلك فقد آليت جهدي أن أبدي سعادتي بانشغالهم بذكر النساء الحسان، في الحياة الآخرة كجائزة مستحقة للعباد الأتقياء، بل وأغبطهم عليه. إن فكرة المكافأة المُنتظرة فيما بعد الحياة، مُناسبة لاستمرار السيطرة عليهم بدعوى حفظ الرب لهم السعادة في الدار الآخرة، مقابل حرمانهم منها في الدُنيا، وقد أسعدني أن كثيرين ممن يتسمون بمشايخهم يتفقون معنا في ذلك.

ما يُزعجني حقيقة هو أن هُناك أزهريين معدودين يُكررون ما يقوله الشيخ محمد عبده، حول وجود غاية حياتية لكل حُكم أو نص في الإسلام. لقد ناقشت معك من قبل كثيرًا خطر مثل هؤلاء، الذين يدفعون حُدثاء السن إلى التفكير والتدبر، ويقيسون أحكام ديانتهم بميزان العقل.

لقد حزنت بشدة عندما علمت أن هُناك مفكرين وأدباء أوروبيين، يتراسلون مع الرجل ويتحاورون معه عن القيم المشتركة للدين المُحمدي مع اليهودية والمسيحية، وأتصور أن ذلك يفتح الباب لبحث كثير من الأوروبيين في الأصول الحقيقية لذلك الدين. إن عليك أن تكرر فكرة شذوذ أفكاره، وتؤكد أن محمد عبده وأمثاله لا يُمثلون الإسلام.

لقد بدأت خطة مُشابهة لدى كبار رجال السُلطة، عندما حرضتهم كثيرًا ضد قانون حظر الرقيق في مصر، والذي أعتقد أن بريطانيا تورطت في إصداره، لتحسين صورتها السياسية في مُستعمراتها، ويمكنني القول إنني استطعت -رغم خوف كثير من الأعيان- إقناع غالبية النُخبة بعدم الانسياق لأي خروج عن الشرع. وربما تستغرب يا عزيزي، عندما تعرف أن شيخًا مُعممًا من شيوخ الأزهر هو الشيخ علي الصعيدي، يبث في كُل مكان أحكامًا ونصوصًا لا حصر لها، عن اعتبار العبودية أصلاً من أصول الشرع المحمدي. هذا الرجل يخدم تصوراتنا على نحو عظيم، ومثله عشرات الآلاف من الأعيان والأثرياء، الذين يبحثون عن سند شرعي لمضاجعة فتيات صغيرات دون التزام قانوني أو اجتماعي بعينه.

تسألني عن القاهرة، وعن حواريها، ومساجدها، وأسواقها ومقاهيها، وحماماتها، وفتوّاتها، ومآدبها، ونسائها؟ هم بخير كما تركتهم قبل سنوات، وهذا الخير هو أنهم كسالى وجبناء، ويعشش الجهل في حيواتهم، ويحسبون ألف حساب وحساب لمن يملك المال والنفوذ، وكما قُلت لي أنت من قبل، إن أفضل توقيت لهزيمة الأمم والشعوب هو ذلك الذي ينشغلون فيه بالتوافه وبالغيبيات، وهم مع عظيم سروري كذلك. يكفي أن أقول لك إن لديهم مُطربًا عظيمًا اسمه عبده الحامولي، يُغني كلامًا يُناسب تصوراتهم، ومن أغانيه أغنية تقول: «حبيبي هجرني شوفوهولي يا ناس. شرد مني وفي إيده الكاس»، وقد سمعها اللورد كرومر فقال مُعلقًا: إن المصري هكذا، حتى عندما يهجره الحبيب يكلف الناس بالبحث عنه، ولا يجتهد أن يبحث هو.

يبقى أن أثقن الجهود التي يقوم بها صديقنا إبراهيم الغربي للسيطرة على هؤلاء المكبوتين عن طريق حريمه. أنت لم تر هذا الرجل يا جولد، لكنني واثق بأنك ستسر كثيرًا لو عرفته، فهو مثال عظيم لفأس صلبة، يدق بانتظام دقات هادئة على جدران مُجتمع، كان يومًا مصدر قلق لنا بمواهب أبنائه الفلتة. إن الرجل لديه نفوذ كبير ومال وفير، يمنحه القدرة على ابتياع حسناوات من كُل لون، وإتاحتهن لأصحاب المال والسُلطة ليحولهم إلى أدوات طيعة في تحقيق فكرته، تلك القائمة على سهولة نشر الانحلال الأخلاقي في المجتمعات

المغلقة المتعصبة، على نحو أفضل كثيرًا من المجتمعات المنفتحة المتعلمة. وفي هذا الشأن أصدقك القول يا صديقي، إن العلم والعلماء والفكر أشد خطرًا علينا من أي شيء آخر.

أكتب إليك من منزلي الصغير بالحي الساحر الهادئ، الذي يقطنه الأجانب، والمعروف بالجزيرة، وعلى بعد أمتار مني مياه النيل المتلألئة تحت ضوء القمر، والتي تُشعرني رؤيتها بالخوف من أناس يفلت من بين أضلعهم كل بضعة عقود، مَن يُفكر ومَن يُدبر ومَن يشك ومَن يُحلل. وآمل ألا أعيش لأرى هؤلاء، فوقتها قد يرفعون رؤوسهم مرة أخرى.

تحيتي لك يا جولد العظيم.. وسلامًا ومحبة.

١٨٩٤

».

***

عبر جرجس أفندي بجلبابه الأبيض المُغطى بجاكيت من الصوف، دهليز الوحدة الصحية الجديدة بمنطقة وش البركة، من ناحية شارع الخليج العربي، طالبًا من طابور الغانيات الملتحفات بالملاءات السوداء، والسبلات، السكوت استعدادًا للفحص الدوري المُقرر لهن، حيث تجلس الحكيمة الإنجليزية الجديدة بروبها الأبيض الناصع، ووجهها الأحمر، شغفًا لمشاهدة بائعات الهوى المصريات والسودانيات اللائي يتكرر حديث الأجانب عنهن. كان كعادته نشيطًا مُتقدًا ذا حضور، على الرغم من تجاوز عمره نصف القرن، وتدلى كرشه إلى الأمام بشكل واضح ما جعله يبدو مع قصر قامته أقرب للبيضة. كما بدا مُخيفًا مع تطاير بقايا شعره القليل، مُنحسرًا عن صلعة داكنة تُضيف إلى هيئته هيبة نافذة.

وضع جرجس يمينه في جيب بنطاله، ومشى في خيلاء كناظر وقف، ورمى الواقفات بنظرات احتقار قبل أن يقول مُحذرًا:

ـ مَن تشتكي من وجع أو اضطراب، أو تلاحظ بثورًا أو تغير لون تقول لي الآن، قبل أن تفحصها الست الحكيمة.

امتقعت الوجوه التي انكشفت رغم براقع بُنية، وبيضاء تدلت من خُزامات نُحاسية اعتلت أنوفهن، واشرأبت الأعناق مُلتفتة نحو واحدة من النسوة خرجت من الصف، وبدا وجهها مُحببًا وعيناها وارمتين من كثرة البكاء، وقالت للرجل:

ـ أنا يا جرجس أفندي عندي حكة شديدة ووجع.

اقترب منها وهمس في أذنها ببضع كلمات فتنحت جانبًا، بينما أخذ من يدها شهادة الصحة ودخل إلى حيث تجلس الحكيمة، ثم عاد وقال لها هامسًا:

ـ قرشان صاغ. لو كشفت عليك الحكيمة لتم حجزك هُنا حتى الموت. هل تعلمين ذلك؟

هزت رأسها بالإيجاب، فغمز جرجس بعين مُتعبة توسطت محجرين أسودين تكرمشا من كثرة تناول الكيوف، ثم قال:

ـ غوري من هُنا.

ومد يده ليلتقط منها القرشين في سرعة.

كان جرجس أفندي قد اعتاد تنظيم طوابير الكشف الدوري على الغواني، مُنذ أقرت السلطات البريطانية حق النساء الأوروبيات والعرب والمصريات في فتح بيوت العاهرات، والعمل كمومسات مقابل دفع ضريبة رسمية، مع إجراء كشف صحي عليهن كل شهر، للتأكد من خلوهن من الأمراض والأوبئة. وكان بطبيعة الحال

يعلم أن ذلك الكشف لم يكن يتم، وأن طوابير الفحص ما هي إلا إجراء صوري، وكان أطباء الوحدة الصحية يوقعون على شهادات الصحة دون إجراء كشف، إلا أن هذه المرة اختلفت قليلاً بسبب تعيين حكيمة جديدة من المستخدمين الإنجليز، صاحبتها رغبة أولية في توقيع الكشف فعليًا على الغواني.

نظر جرجس إلى ملاءات سوداء غطت أجسادًا متباينة، بدت من تحتها ملابس ملونة، بين الأبيض الشفاف والأزرق الداكن، ولاحظ أن معظم النساء دققن وشمًا على جبهتهن، وساح من عيونهن الكُحل الفظلم، وشعر الرجل بكثير من الغثيان وهو يتذكر جثثًا لنساء غانيات، قام بتشريحهن في ظروف مختلفة. لقد خدم الرجل سنوات من عمره في المراكز الصحية بالصعيد، حيث اعتاد الناس حكايات العثور على جثث فتيات مذبوحات، أو مخنوقات على أيدي أهاليهن، انتقامًا لشرف مُهدر. كان عليه أن يستجيب لتعليمات طبيب المركز بتشريح الجثمان ولو شكليًا، لوضع أي تقرير طبي حول الحادثة، من خلال بقر البطن للتأكد من عدم وجود أجنة، ثم معاينة حالة الكبد ظاهريًا للتأكد من عدم تعرض الضحية للتسمم. في إحدى المرات غاظه قيام رجل بخنق ابنته الحبلى بإيشارب من الحرير، ثم قيامه بإبلاغ العُمدة في اعتزاز وكبرياء، ما دفعه إلى القيام بعملية التشريح داخل منزل الرجل القاتل، وعلى مرأى منه ومن زوجته وأبنائه. يتذكر جرجس تلك الضحية التي مددها على كنبة خشبية، ثم عراها تمامًا في قرف ظاهر، قبل أن يفتح بمشرطه بطنها مُخرجًا جنينًا صغيرًا من أحشائها، ليرفعه في الهواء حتى يراه الحضور. كان جرجس يُتابع في تعقُّد ملامح وجه الأم الجامدة تجاه مشهد تشريح ابنتها، دون أن يهتز لها رمش. وكان الغريب أن الأفندي المسؤول عن التحقيق نهره بعد الواقعة، مُتهمًا إياه بالقسوة الشديدة وعدم مراعاة مشاعر الأم، لكن جرجس الذي اعتاد قراءة عقليات الناس في الوجه القبلي، ابتسم في برود وقال له: «إنها تستعذب ذلك. المرأة الخاطئة هي الشيطان عند هؤلاء، وتقطيعها هو ما يُبرِّد النفوس».

في مرة أخرى كانت الضحية قد تلقت رصاصة في الرأس، فتحت تجويفًا في الناحية اليُسرى وآخر خرجت منه عند الناحية اليُمنى. يتذكر جيدًا أن طبيب الصحة أمره أن ينشر الجمجمة بمنشار حديدي، حتى يعاين فتحة مرور الرصاصة، وفوجئ بمخ القتيلة يتدلى خلال عملية النشر دون أن يجد معنى حقيقي لما يفعله، سوى عبث أطباء الوحدات الصحية واهتمامهم بكتابة التقرير، والذي تُدفع مقابله عشرة قروش. كان عليه أن يجمع المخ السائل بيديه حتى لا ينسكب على الأرض. في الغالب لم يكن الأطباء يفعلون شيئًا سواء في التشريح، أو في العمليات الجراحية، وكان هو الفاعل الحقيقي للمهمات الصعبة كافة.

يتذكر جرجس كيف ورث المهنة دون تعليم حقيقي من والده، الذي كان حلاقًا شهيرًا في أسيوط، ففاقت مهارته أطباء حقيقيين إنجليز وطليان وفرنسيين وجراكسة. ويومًا بعد آخر اعتاد الرجل مشهد الدم، ورائحته، وتمرست أصابعه على لمس الجلد الميت، فأحب الجثث وتعايش مع غموضها وصمتها، حتى كان على موعد مع حادث شرف مسه هو شخصيًا، وحوله بعد ذلك إلى مُحتقر للنساء، ودفعه لمغادرة الصعيد إلى القاهرة بصخبها وقسوتها وتهتك أهلها.

تفرست عينا الرجل الماكر وجوه النسوة، وبدا واضحًا أنه غير مُهتم بثرثرتهن حول ضيق الأحوال، وقلة الزبائن، وارتفاع الأسعار، كأنها تبرير عن استحلال الخنا أو قبول الوطء المُكرر من رجال شتى، مختلفي الأمزجة والعادات والمشاعر. كان يشعر باحتقار شديد تجاه هؤلاء النساء، رُبما بسبب أصوله وتنشئته المحافظة، أو كراهيته للمرأة واقتناعه بأنها قرينة الشيطان. أشعل سيجارة من علبة صفيح كانت في جيبه، ثم أرسل غمزات قليلة إلى بضع نساء كُن في الطابور ليخرجن منه، ويجلسن على دكة مجاورة، قبل أن يهمس بأذن إحداهن قائلاً:

- بلغي سيدك إبراهيم أن شهريتي تأخرت، لكن هذا لا يمنع أن نفعل الواجب مع الرجل الذي كان كريمًا معنا. سأختم لكِ ولصاحباتك شهادات الكشف دون كشف.

وابتسم مبتعدًا عندما سمع الرد سريعًا:

- تسلم لنا يا جرجس أفندي. وأنا تحت أمرك. لو أتيت لنا الليلة، سأكون تحت رجليك. ليست لدي مواعيد.

استفزته الكلمات، فنظر في شهادتها بين أصابعها ليقرأ اسمها، ثم يهمس مرة أخرى في أذنها:

- يا نبوية يا قحبة. أنا لا يهمني بيت الدود الذي لديك، ولا يثيرني جسدك الممصوص كعود القصب الملتهم. أنت قحبة. ركوبة. خرقة بالية. خراء.

وابتسم وهو يُكرر:

- بلِّغي إبراهيم الغربي أنني أنتظر حقي. وأنا لا آخذه من قماماته.

نفث خيطًا من الدُّخان الأزرق في وجه نبوية التي امتقع لونها، فصارت مثل قطعة البطاطا المُحترقة، وانحبس لسانها، فصمتت، وتذكرت زبائن كُثر رموها بنظرات قرف واستياء بعد أن قضوا حاجاتهم لديها. وقامت مُحتضنة شهادة الفحص التي ختمها جرجس، لها ولصاحباتها، ومضت في طريقها نحو مصيرها وكلمة «خراء» تطارد مسامعها.

***

لم يُصدق حسن الكاتب ما استشاره فيه صديقه الحميم أحمد سليم، كما لم يُصدق أحمد سليم ما استشاره فيه حسن الكاتب. كلاهما أنكر ما سمعه، وكست وجهيهما ملامح الدهشة، واشتعل رأس كُل منهما شيبًا بالتفكير والقلق.

في مكانٍ قصي عند سوق التمور بشبرا، وعلى بُعد أمتار قليلة من نهر النيل، جلسا في قهوة سي خليل يحتسيان قهوةً تُركية جُلبت من بلاد السُّلطان. كانا على يقين بأن الأسرار بينهما مدفونة، وأن الصداقة المتينة التي تجمعهما كفيلة بكشف خبايا النفس مهما كانت، كأنها لم تُكشف، والبوح بما يجول في الخواطر دون تردد.

قال أحمد سليم لحسن وقد بدت الجدية مُناسبة لنظرات عينيه، إنه وضع خطة لقتل إبراهيم الغربي، ذلك القواد الكريه الذي ينشر الانحلال والفساد ويشيع الدعارة واللواط، بحماية ودعم سُلطات الاحتلال وقناصل الدول الأجنبية. قرأ أحمد على صديقه الحُكم النهائي الذي لا يقبل نقضًا ولا دفاعًا، مُتمثلاً في الآية القرآنية: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾. ثم قال مُبتسمًا:

- صدر الحكم يا صديقي.. الإعدام للخائن.

امتعض حسن أفندي واهتز كوب القهوة في يديه، وشعر بالبرد رغم ارتدائه بذلة من الصوف، وقال في هلع:

- هل جُننت يا أحمد؟ إعدام؟ ومَن؟ إبراهيم الغربي؟ الرجل الذي ترتعد الفرائص من منظره؟

ابتسم أحمد في ثقة وقال ساخرًا:

- لا تقُل «رجل» يا حسن.

ثُم أردف قائلاً:

- من المؤكد أنك تقول ذلك مجازًا، لكن لا.. إبراهيم الغربي ليس رجُلاً، وبالمناسبة هو ليس امرأة أيضًا.

وقهقه في استخفاف مقصود، وواصل رسم ابتسامته قبل أن يشير حسن بأصابع ثلاثة إشارة التريث، وهو يقول:

- يا أحمد. بصرف النظر عن كونه رجُلاً أو امرأة، فإن مُجرد الاقتراب منه أمر خطير. هو لا يتورع عن أي جريمة كانت، ويستند إلى حماية البوليس.

ابتسم أحمد وهو يُخرج من صديريته مُسدسًا من الخشب المصقول بالعاج، له ماسورة طويلة مُحلاة بحلقات ذهبية، وهو ما أفزع صاحبه فدفعه بيده كي يُخبئه مرة أخرى، وهو يسأله:

ـ من أين جئت به؟ يبدو لي أنه غالٍ جدًا.

ابتسم أحمد وشرح لصديقه:

ـ هذا إنجليزي الصُنع، تُفتح خزانته بالضغط وتُحشى رصاصتين، ثم تُشد إبرته إلى الخلف وتنطلق رصاصته كُتلة من جهنم.

ـ إنها أول مرة أرى مُسدسًا. لقد قرأت عنه. لعن الله صانعه الأول، يقولون إنه إفرنجي يُسمى صموئيل كولت. وقتها قال الرجل لأصدقائه: الآن يتساوى الشجاع مع الجبان.

ابتسم أحمد في ثقة قائلاً:

ـ لا يا حسن. يتساوى الغربي برجاله وعتاده وماله، مع بطل المقاومة المصرية أحمد سليم.

شعر حسن بالضيق عندما تيقن من عزم صديقه قتل إبراهيم الغربي، فقال له بنبرات جادة:

ـ ليس من حقك أن تستحل دم إنسان حتى لو كان فاسدًا.

لكن ملامح الغضب كست وجه أحمد، فقال:

ـ لا يا حسن. من حقي. في ظروف الحرب من حقك أن تتحول إلى قاتل لتطبق العدل، من أجل وطنك.

رد حسن قائلاً:

ـ لكن القتل لن يحل مشكلة. لا قتل الأجانب سينهي الامتيازات الممنوحة لهم، ولا قتل الأثرياء سيجعلهم يُحسنون إلى الفقراء والمحتاجين، ولا حتى قتل الإنجليز وعملائهم سيُخرجهم من بلادنا. لقد سبق أن دفعنا ثمن حماقات الغاضبين في زمن عرابي ورفاقه، وحتى عرابي نفسه دفع ثمن المُتحمسين له والمتعصبين ضد كل أجنبي.

انفعل أحمد وعلا صوته، وهو يقول:

ـ لا يا حسن، لا تقل حماقة، أنت تحوّل الضحايا إلى جُناة والأبطال إلى متهورين. لقد قلت لك من قبل إن انتصار الباطل لا يعني أبدًا أنه حق.

تذكر حسن حوارات عديدة مُشابهة مع صديقه، كان هو فيها داعية التعامل بالعقل، بينما كان أحمد لا يرى حلولاً إلا عبر العنف والقوة، ويومًا قال أحمد له: «ما أخذ غصبًا لا يُرد إلا عنوة»، فعقّب هو: «بل يُرد حيلة وذكاء». وفي جلستهما هذه بدا جدالهما استرجاعًا لمجادلات سابقة لم تُغير من قناعات أي منهما بشأن الأحوال، لكن صار من الواضح أن استسهال قتل أحمد للأثرياء الأجانب، وسرقتهم في ظلام أزقة القاهرة ليلاً، وفّر له قدرًا كبيرًا من المال جعله الأقدر على دعوة صديقه لمأدبة أو مشروب في مكان ما.

ـ ما تُخطط له صعب جدًا.

قالها حسن مُستفزًا صديقه، ليسمع منه تصوره للتخلص من إمبراطور مملكة الليل، وهو ما بدا مدروسًا بعناية.

قال أحمد شارحًا:

ـ رصاصة طائشة في ليلة رأس السنة، تلك التي يحرص الغربي على استقبال الضيوف والزبائن فيها بنفسه أمام مقهى السعادة. سأكون فوق سطح منزل الخواجة المجاور، سأرتدي ملابس مروض ثعابين، وأعزف بمزماري قُرب المنزل نهارًا، ثم أدق عليه مُحذرًا من وجود ثعبان فوق السطح. سأخبر الخدم أنني متطوع

لإخراج الثعبان مجانًا مقابل أخذه، وسأصعد وأخرج الثعبان من جلبابي ثم أخبئ اختراع صاحبك صمويل كولت فوق، وفي المساء سأتسلق الجدار وسأصوب مسدسي نحو رأس الشيطان وأقتله. بعدها سأقفز إلى المنزل المجاور، ومنه سيتدلى حبل ينتهي بي إلى بغل جامح يقلني بعيدًا.

ابتسم حسن قائلاً:

ـ يا لك من ساذج. هل تتصور أن حارسه المارد الأسود سيتركك؟ إنه يمشط الأنحاء بعينيه كل ليلة، وإن ارتاب في شيء لا يتورع عن سحله في الشارع مؤدبًا دون رادع.

رد أحمد على تعليق صديقه بابتسامة فطنة، وهو يقول:

ـ حسبت حساب ذلك. ودرست جيدًا كل ما يحيط بإمام الفاسقين من ظروف ورجال ونساء. لذلك فقد آليت ألا أنفذ إلى روح إبراهيم الغربي، وهذا العبد على قيد الحياة. عُثمان الطوشي سيموت قبل رأس السنة بثلاثين يومًا.

فغر حسن فاه، فواصل أحمد مُخرجًا من جيب جلبابه حُقًّا صغيرًا، وهو يقول:

ـ بالسم. هذا أخطر سم توصلت إليه النفس البشرية. سريع المفعول. يفطر الكبد، ولا ترياق له.

ـ طريق الدم لا آخر له ولا نجاة.

قالها حسن مُعلقًا، فأجابه صديقه:

ـ لا عليك. اطمئن. أنا لها. كل شيء معمول حسابه. قُل لي أنت فيم تطلُب رأيي؟

حكى حسن لصاحبه عرض عبد الغفار باشا شُكري بشأن الجارية التي اشترتها زوجته، وطلبه أن يُساعده في توفيق وضعها القانوني من خلال الزواج بها بعد عتقها، بشرط خدمتها لزوجته ثلاث سنوات.

ـ أنت تعلم أن قصة جواري الباشاوات أثارت الفزع لدى كثير ممن لديهم جوارٍ وعبيد، وسارع بعضهم إلى عتق ما لديه، وسارع آخرون إلى تخبئتهم. الفهم أن الباشا يخاف أن يشي أحد بنزهة، خاصة أنها تجلب المياه وتخرج لابتياع الخضراوات في بعض الأحيان.

ردَّ أحمد وهو يُداعب شاربه النابت:

ـ هذا كلب آخر. يُريد أن تظل الفتاة عبدة لديه حتى لو أعتقها.

ثم قال بعد تفكير:

ـ اجعله يعتقها ثم امنعها من زيارته، وليذهب إلى الجحيم.

ابتسم حسن في برود، وقال:

ـ إنه لن يذهب إلى الجحيم، بل أنا الذي سيذهب. لا تنس أنه صديق فارس نمر صاحب العمل، ويُمكنه لو أراد مجاملته أن يرفدني في ساعة زمن، وأعود مرة أخرى لأبحث عن عمل، أو أرجع إلى أهلي في الإسكندرية مُطأطئ الرأس. فضلاً عن ذلك فأنا لا أستطيع أن أغدر. هذه ليست أخلاقي. لو تعهدت بشيء ما لا بد أن أفعله.

فكّر أحمد قليلاً وسأل صديقه:

ـ هل تعتقد أن هذه الجارية ما زالت بِكرًا؟

وجاءه الرد سريعًا:

ـ أعتقد، وإلا ما كان عرض علي الزواج بها.

لحظات من الصمت امتدت قليلاً قبل أن يُطلق أحمد استنتاجًا جديدًا، هو أنها ما دامت بِكرًا، ويريد أن

يزوجك بها، فلا شك أنه يأمل أن يشاركك فيها.

وقهقه بصوت عالٍ، ففضب حسن أفندي وقام منفعلاً، وهو يقول:

ـ أخطأت عندما سألتك المشورة.

وغادر غاضبًا.

***

ـ يا ليلُ، الصبُ متى غده؟

أقيام الساعة موعده؟

رقد الشمار وأرّقه

أسفٌ للبينِ يُردده

فبكاه النجم ورقّ له

مما يرعاه ويرصده

كلِفٌ بغزالٍ ذي هيفٍ

خوف الواشين يشرده

نصبت عيناي له شَرَكًا

في النوم فعزَّ تصيُّده.

استحسن الحاضرون جمال الكلمات الموزونة المنسابة من فم المسيو فرانسوا دي روسو، وهو سعيد بنطقها باللغة العربية الفصيحة، خلال حفلٍ بهيج دعا إليه إسماعيل باشا حكمت، احتفالاً بالعفو عن علي باشا شريف، رئيس مجلس شورى القوانين، في قضية ابتياع الجواري.

كانت السراي المطلة على أهرامات الجيزة، قد شهدت حضورًا صاخبًا من نُبلاء وأعيان المجتمع، وكبار المستخدمين في الخاصة الخديوية، وعدد من قناصل الدول الأجنبية وزوجاتهم. بدأ الاحتفال في حديقة واسعة، مُلحقة بالسراي مع غروب يوم الخميس الأول من شهر ديسمبر، عندما وقف عدد من الخدم من ذوي البشرة الداكنة، أمام مدخل الحديقة مُستقبلين لأصحاب السمو والسعادة. كان فرانسوا بخلته السوداء الإسموكن وبنظارتيه السميكتين، يبدو سعيدًا من إطراء المحيطين بنطقه المتميز للغة العربية. وكانت أصابعه تحتضن كأسًا صغيرة من الويسكي الحديث المستورد تؤًا من باريس، وإلى جواره وقفت كُتل متضخمة وسترات منفوخة، بدا هو ضئيلاً بينهم، عندما لمح علي باشا شريف داخلاً إلى حديقة القصر وإلى يمينه فتاة بالغة الجمال، تصغره بنحو نصف قرن.

قال فرانسوا للضابط الشاب فيليب الذي حضر دون زوجته لأنها وضعت قبل أيام مولودها الأول:

ـ أووووه. إنها فتاة جميلة. تبدو كأنها واحدة من الأرمن الهاربين من جحيم العثمانيين.

ابتسم فيليب ابتسامة صفراء تناسبت مع أسنانه التي تغير لونها سريعًا بفعل السجائر الشعبية، والشاي الأسود الذي اعتاد عليه منذ حطت قدماه على هذه الأرض، وقال:

ـ إن الرجل لا يحفل باتهام أو تشهير، فهو مُقبل على الحياة دون اكتراث لشيء.

ثم أضاف موحيًا ببعض الجدية:

ـ لقد اعتاد الرجل الإنفاق دون حدود، حتى قيل إن ديونه تقترب من ديون المحروسة زمن الخديو

إسماعيل.

وقال فيليب أيضًا مصطنعًا الدراية التامة:

ـ ورث علي باشا ثروة ضخمة بددها بالكامل على النساء، ورغم هذا الجمال الذي تراه لصيقًا به، فقد اشترى جارية حسناء في العام الماضي، ورغم صحته المعتلة، فإنه ضيف دائم على موائد إبراهيم الغربي.

ابتسم فرانسوا في مكر قائلًا:

ـ تقصد إبراهيم باشا الغربي.

ثم قال بنبرة لا تخلو من تلميحات مُريبة:

ـ يقولون إنه سخي جدًا. وما أعرفه أنا أن نساءه باهرات.

صمت فيليب مُتهربًا من تلميحات فرانسوا، ورشف رشفات مسموعة من كأس يُمسك بها، قبل أن يتحرك مبديًا الاهتمام بمصافحة عبد الغفار باشا شكري الذي لاح أمامهما.

سأل سائل فرانسوا كيف تعلّم العربية بهذا الإتقان سريعًا رغم تعقيداتها، فأجاب في اعتزاز:

ـ الرغبة. الرغبة يا عزيزي تدفعك لتعلُّم ما لا تحب، والإرادة تجعلك تحب ما لم تتعلمه.

وبدا السائل ذو الكرش الكبير والسترة السوداء الناعمة، عاقدًا حاجبيه مُفكرًا في معنى العبارة، إلا أن ملامحه وشت بأنه لم يفهم شيئًا، لكن فرانسوا استفاض تيهًا وهو يقول:

ـ لهذا السبب فإن مُعظم الأتراك لم يتعلموا العربية، رغم السنوات الطوال التي قضوها في بلدان عربية.

اقترب إسماعيل باشا حكمت من فرانسوا، وإلى جواره علي باشا شريف وعشيقته الحسناء، التي ارتدت فُستانًا أزرق تعرت منه الكتف اليمنى، وقدمه إليه قائلًا:

ـ مسيو فرانسوا الفيلسوف الفرنسي الكبير. واحد من أهم أصدقائنا المُهتمين باللغة العربية وتاريخ الإسلام.

ـ تشرفنا.

قالها فرانسوا بالعربية، بينما رد علي باشا شريف بالكلمة نفسها ولكن بالفرنسية. دقق الكهل الضئيل النظر في نحر عشيقة الباشا، وقال لنفسه: إنها لا تُعجبه. البشرة البيضاء باردة، وهذا الجمال الفاقع غير جذاب. ما أجملهن النساء الممتلئات، ذوات الجلد الأسمر.

قال أحد أصحاب الكروش الضخمة مُخاطبًا علي باشا:

ـ أنت لم تسمع الشعر العربي الجميل بلسان المسيو فرانسوا. لقد أنشدنا قصيدة (يا ليلُ الصب).

ـ عظيم.

تمتم علي باشا، قبل أن يقول فرانسوا:

ـ الجمال العربي بديع وقادر على دفع المُبدعين لكتابة أشعار خالدة.

ثم اقترب من أذن الباشا ليهمس:

ـ ألا ترى أن جمال المصريات أشهى من هذه اللوحة الفنية التي تُرافقك؟

ابتسم علي باشا، وقال:

ـ كل النساء جميلات. والأجمل أن تُبدلهن كثيرًا. سنلتقي كثيرًا يا صديقي. تشرفت بك.

وانصرف قبل أن تُلاحق فتاته نظرات الكهول والمُسنين من الباشاوات والكُبراء.

عاد فيليب ليقول لفرانسوا الذي وضع كأسه مشعلاً غليونه المميز:

- يبدو أنك مهموم كثيرًا بالنساء.

فرد الرجل في غرور:

- تستطيع أن تعتبرني خبيرًا.

لكن فيليب منح محدثه نظرات شك واتهام قبل أن يقول:

- لا أظن يا مسيو فرانسوا. أتصور أن لك مهمة أخرى تعمل على إنجازها في هذه البلاد.

- ربما.

رد الآخر، فقال فيليب:

- آمل ألا تكون تلك المهمة متعارضة معنا.

لكنه لم يكمل، فقد سارع فرانسوا برفع يمينه نافيًا وأردف:

- لا تقلق يا عزيزي؛ نحن في الطريق نفسه.

قبل ساعات كان فرانسوا سعيدًا بانتهائه من بحثه الجديد حول نظرة المجتمع المصري للبغاء، والذي أكد فيه أن المصريين يحتقرون القوادين والعاهرات، لكنهم لا يمكنهم الاستغناء عنهم. وكتب في هذا البحث أنه حتى في ظل أزمان التعصب والتمسك بالدين، فإن المجتمع كان يبتكر كثيرًا من النصوص والتخريجات الشرعية لإباحة الاستمتاع بالنساء، وكان من بين ذلك استحلال أجساد الجواري بعد ابتياعهن. لقد قرأ فرانسوا رأيًا فقهيًا نادرًا، يقول: إن الإسلام لم يبح الاستمتاع بالجواري، وإن لفظ ملك اليمين الموجود بالقرآن لا يقصد النساء اللاتي يتم بيعهن أو أسرهن، لكنه انتهى إلى أن رأيًا مثل هذا لا بد أن يُهمل ويندثر.

وخلص أيضًا إلى أن احتقار المصريين للبغاء كمهنة وللعاملين فيها وللساقطين، فيها احتقار قديم وصل إلى حد إطلاق كلمة «سارموزا»، وهي كلمة فارسية تعني حذاء، على أي سيدة تنام مع الرجال مقابل مال، فيما بعد تحور اللفظ ليصبح «شرموزة»، وصار قرينًا بأي بغي في محاورات المصريين اليومية.

صبَّ ساقٍ حبشي بصدر عارٍ كأسًا جديدة لفرانسوا، وصدح صوت ملائكي جميل بالغناء، في حين انسابت الموسيقى ساحرة تُداعب آذانًا غليظة مُرددة:

«أراك عصي الدمع شيمتك الصبر. أما للهوى نهيٌ عليك ولا أمر؟».

فتذكر فرانسوا كيف بات الليلة الماضية سهرانًا ليحفظ قصيدة: «يا ليلُ الصبُّ» حتى يُبهر الحضور.

***

نهض مقتولاً من اليأس بعد أن غزاه إحباط مرير. وضع جلبابًا حريريًا فوق جسده الثقيل الذي احمر لونه، رغم غزارة الشعر الكاسي لجلده. مسح الباشا بمنشفة موضوعة إلى جوار وسادته عرقًا متصببًا من جبهته، قبل أن يعتدل جالسًا وإلى جواره تكورت أم الحسن في قميص نوم قصير مفتوح الصدر. سألها في عصبية زائدة:

- أين البنت الصغيرة؟

كان من الواضح أنه يقصد نُزهة التي كانت حاضرة كل مرة قبل أي لقاء حميم يجمعه مع زوجته، ليُقبل بنهم شديد نحرها وصدرها، حتى تأمرها السيدة الكبيرة بالانصراف لتقضي دقائقها النادرة مع الرجل اللا مهتم. مصمصت أم الحسن شفتيها وهي تشعر بالنقص لعدم قدرتها على إثارة زوجها، وسكونه الدائم كلما حاولت إيقاظ همته، ثم قالت في تسليم:

- لم ترض يا باشا. لقد قُلت أتركها لأنها ما زالت حزينة على مأمونة.

أخرج الرجل سيجارة ماركة كريازي فريريز من علبة معدنية، وضعها على طاولة بجوار فراشه، وبادرت أم الحسن إلى رفع الثقاب لتشعلها له، وهي تقول:

- البنت يا باشا حزينة، ونائمة معظم الوقت، وتبدو مريضة، وأنا أريد أن أبيعها مرة أخرى.

- لا.

هتف الباشا قبل أن يُقرر:

- لقد اتفقت مع حسن أفندي الكاتب ليتزوجها وتأتي للخدمة كل يوم.

امتعضت السيدة البدينة ومسحت كُحلاً سائلاً على خدها، وهي تسأل في غضب:

- كيف يا باشا؟

ثم أردفت وهي تلتقط سيجارة من علبة سجائر زوجها، وتغرسها بين شفتيها:

- إنني أعتمد عليها في كل شيء. ثم، لو تزوجها الأفندي ستبتعد عنا، وقد تتمرد ولا نستطيع إعادتها مرة أخرى. نساء الباشاوات يحكين عن زيادة حالات هروب الجواري هذه الأيام.

نفث الباشا نفسًا من الدُخان في ظلام الحُجرة، وبدا صارمًا وهو يقول:

- اسمعي يا أم الحسن. هُناك مُشكلة كبيرة بسبب الجواري، لأن بريطانيا تحظر تجارة الرقيق وتتهمنا بالرجعية والتخلُف، ووجودها كجارية قد يُعرضنا للاتهام.

صرخت سائلة:

- ماذا يا باشا؟ اتهام؟ مَن ذا الذي يجرؤ؟

لكنه أجاب بحسم:

- كثيرون يا هانم. نحن لسنا على ضفاف البوسفور. هُنا أصبح اللورد كرومر هو كل شيء، وهو غير راضٍ عن الباشاوات الكبار، لذا علينا الحذر.

ثم قال مُطمئنًا:

- لا تقلقي. لن يتغير الوضع هُنا في شيء. ستأتي البنت كل يوم وتقضي كل أمورك. أنا اتفقت مع حسن أفندي، وهو ممنون أنني وظفته.

اقتربت بجسدها مرة أخرى من الباشا، ولمست قدمه فوجدتها باردة، وقالت:

- لكني قلقة أن تحبل وتُصبح ثقيلة ولا تقدر أن تأتي. لقد دفعت فيها كثيرًا.

هز الرجل رأسه مُتفهمًا قلقها، وقال لها بفرنسية سليمة إنه سيطلب من حسن أفندي الكاتب ألا تحبل.

في الطابق الأرضي كانت نُزهة متكومة فوق بلاط المطبخ تحت حصيرة ملساء، وفوق جسدها الصغير غطاء من الكتان، تقاوم حُزنها وتأثرها على رحيل صاحبة الوجه الأسمر والقلب الأبيض، التي كانت لها صمام أمان، وسند محبة. نثر الحُزن رذاذه على وجه الفتاة الحالمة الجميل، ليرسم تجاعيد لا تُناسب أنثى لم تبدأ بعد عقدها الثالث. تذكرت كيف كانت في الأيام الأخيرة إلى جوارها مُسلية، ومُهوِّنة، ومُستمعة. كل يوم كانت تحممها وتُنظفها مساءً بعد ساعات من الوجع، والدموع، والتبول في ملابسها، وكانت تدلق في جوفها كوبًا من اللبن، أمرت به السيدة الكبيرة لجاريتها. لم تكُن مأمونة قادرة على النُطق في تلك الأيام، لكنها منحت نُزهة نظرات شكر وعرفان لا مُتناهية. وفي يوم الرحيل بدا وجهها مُضيئًا ومُفعمًا بالحيوية، وبدت ابتسامتها

مُلتصقة بشفتيها الغليظتين، وفوجئت نُزهة بها تشبك أصابعها بكفها وتنطق في وهن كلمات: «ارحلي. ارحلي. لا تبقي هُنا»، وكانت تنظر بتركيز نحو باب الحُجرة، وتهز رأسها كأنها تُرحّب بأحبة لها، ثم اتسعت ابتسامتها قبل أن تشهق شهقة طويلة سكنت على أثرها تمامًا. صرخت نزهة صرخة التيتم التي سبق أن اضطرت إليها يوم ماتت أمها في بلاد أخرى، وهرولت إلى أم الحُسن التي كانت جالسة أمام المرآة تتجمل، وقالت لها بصوت مُتهدج بالبكاء: «مأمونة ماتت».

لا تتذكر نُزهة ما جرى بعدها، لكنها علمت أن الهانم أبلغت الباشا والذي كان في العزبة، فأرسل سائقه الخاص إلى جرجس أفندي حلاق الصحة، ليصطحبه إلى البيت لعمل اللازم، حيث حضر، وأكد الوفاة، ثُم أعد شهادة بذلك، وطلب الحانوتي لدفن الجارية في مقابر الفقراء بالغفير. صُدمت نُزهة أن أم الحُسن لم تطلب من أحد جلب مُقرئين، أو توزع صدقات على روح المرحومة، بل حتى لم تُلق النظرة الأخيرة على الراحلة التي خدمتها سنوات طويلة.

كانت مأمونة مُسجاة على الأرض الترابية بجلباب أسود مُتسخ، ووجهها صامت كلوح من الخشب، بينما تساقط مُعظم شعرها من تحت إيشارب قُطني قديم، عندما دخلت مُغسلة الموتى القصيرة، ومعها دورق وطشت، ثُم طلبت من نُزهة مُساعدتها، لكنها لم تحتمل، فغابت عن الوعي لزمن لا تعرفه، ثُم أفاقت فلم تجد مأمونة، ولا المغسلة، ووجدت بقايا المياه على أرضية الحُجرة، ولا شيء آخر.

من دونها فقدت نُزهة نصف راحتها وطمأنينتها ورضاها عن الحياة، التي لم تكن كالحيوات المفترضة لأناس عاشوا في هذه الأرض، وشعرت أن السماء بائسة وحزينة لموت مأمونة. سألت نفسها إن كانت مأمونة قد انتهت إلى هذا المصير دون حُزن، أو اهتمام من السيدة الكبيرة، فكيف تأمن هي على نفسها البقاء هُنا، حيث لا حُب ولا حنان ولا رحمة ولا إنسانية؟ إن عيني السيدة الكبيرة لم تطرفا حال سماعها نبأ رحيل خادمتها الأثيرة. لم تنبس بكلمة، ولم تبد أسفًا. لا شك أنها كانت تنتظر ذلك، لكن ألم تشعر بغُصة فراق لإنسانة اعتادت أن تراها؟ ألم تتعاطف مع عذابها طوال الشهور الماضية؟ وهل كانت تتصور أن كوب الحليب الذي قررته للجارية المريضة كل يوم كرم زائد؟ كيف يُفكر هؤلاء؟ وكيف يشعرون حيال الآخرين؟

لقد قرأت نُزهة كتابًا وجدته موضوعًا على مكتب الباشا، مُغلّفًا بجلد رقيق وعليه اسم عبد الرحمن الكواكبي، تضمن كلامًا كثيرًا جميلاً ما زالت تحفظ بعضًا منه. خلبتها عبارات موحية تنم عن عدالة الخالق وظُلم المخلوق، تقول:

«خلق الله الإنسان حُرًا، قائده العقل، فكفر وأبى إلا أن يكون عبدًا قائده الجهل».

ثم قالت لنفسها إنها حُرة، ليس من حق أحد أن يبيعها أو يشتريها أو يأمرها. ما جرى في الماضي كان جهلاً، والآن لا مجال لأن يستعبدها أحد لأنها صارت على علم.

قررت نُزهة الرحيل، وحددت مساء الجُمعة كموعد، ستذهب إلى دار العتقاء التي قرأت عنها في الأهرام، وهُناك ستحصل على تذكرة حُرية، وستُكمل تعليمها، وستصبح كما تشاء لا كما يشاء الآخرون.

***

انتهت حوا السودانية من فرش مسحوق الحناء على رأس إبراهيم الغربي، قبل أن تنثره بكفها الناعم بين خُصلات شعره الملفوفة في ضفيرة واحدة، مُمتدة حتى منتصف عموده الفقري. كانت أصابعها الرقيقة تُدلك فروة رأسه، وهو مُستسلم تمامًا على أريكة من القُطن تمدد بطوله الفارع عليها، بينما سحابات من الدُخان الأزرق، في فضاء القاعة الرئيسية لصحن منزله، تبعث رحيقًا غريبًا وغامضًا لبخور سوداني مُميز، جُلب خصوصًا له من أم درمان. كانت حوا عارية تمامًا كما اعتادت عندما تخلو بسيدها لتُدلك له جبهته، أو تُحنيه وتُطيبه في سويعات قيلولته النادرة.

مسحت بكفها المُبتلة بدماء الغزلان جبهته ووجهه، ثُم قبلت بحنو حقيقي شفتيه الغليظتين، قبل أن يسألها

في اهتمام عن أخبار النساء والرجال في مقهى السعادة. قالت إن الجميع تحت طاعته، يعملون بجد وإخلاص لتحقيق آماله وأهدافه، من إتاحة الحب والمتعة دون حدود، وجني الأرباح الكبيرة، وجمع المعلومات عن الأعيان والمشاهير والأجانب. قالت له أيضًا إن العبيد والجواري كافة ممتنون للحياة الكريمة التي يحيونها في بيوته، وإن الخواجات راضون جدًا عن أعماله، وسعداء بها في مصر. منحته ابتسامة طاعة ونظرات تذلل تدربت على إطلاقها سنوات طويلة.

تحسس إبراهيم قرطًا ذهبيًا اشتبك بمنخره الأيمن، وقال لها ساهمًا:

ـ ما زال أمامنا الكثير. إنني أبحث تطوير العمل. المتعة يجب أن تُقدم بأسعار أرخص، ولا مانع من تقديمها مجانًا للمبتدئين. أفكر أيضًا في تجهيز دار بالجيزة تُخصص للفتيان الذين يعشقون فتيات بعينهن، ويبحثون عن مكان للالتقاء. سيكون رائعًا لو وفرنا لهم ذلك مقابل قروش معدودة.

ـ فكرة سديدة يا سيدي. سيدعون لك نظير ذلك.

ـ لا أنتظر دعاءهم. أريد أموالهم، وبالطبع اهتمامهم.

ثم اعتدل قليلاً مستندًا إلى وسادة محشوة بالقطن، وقال كمن تذكر شيئًا:

ـ اسمعي يا حوا. من الآن فصاعدًا سنبدأ تقديم الأفيون والحشيش للرواد في البيوت والمقاهي كافة. أعتقد أن لنا حصانة عند الإنجليز، ولن تقترب منا الشرطة؛ خاصة أن كثيرًا من زبائننا من الأجانب. في الجمعة المقبلة ستصلنا أول كمية من الحشيش الجنوبي المميز. نبهي الخدم والفتيات كافة أن يضعن الحشيش أمام الزبائن بشكل جاهز. مفروك وملفوف.

ـ تمام.

قالتها ثم سألت:

ـ والضابط فيليب؟

قهقه إبراهيم وهو ينظر إلى موضع العفة في جسدها الأسمر اللامع، قائلاً:

ـ كيف تسألين هذا السؤال؟ أنتِ تحديدًا مسؤولة عن هذا الولد، والمفترض أن أسألك أنا.

قالت مبتسمة:

ـ هو طوع أمرك سيدي.

فكرت قليلاً إن كان هذا الكائن الذي تحبه بالفعل، وتؤمن بقوته وسحره يُمكن أن تمر به لحظة غيرة عليها، ثم استبعدت الخاطر عندما تذكرت كيف كان يبتسم ويُسر عندما يشاهدها تتلوى بين ذراعي زبون ما، أو رجل مهم. ليس لدى حوا أحدٌ يهمها سوى إبراهيم الغربي، بجبروته، وكرمه، وتشيطنه، وتسيُّده. لقد أحبته كما لم تُحب أحدًا، فمنذ كانت طفلة لم ترَ أبًا أو تتذكر أمًا، وإنما تذكرت عينين صاحيتين لصبي أسود، آثر أن يأخذها معه عندما سافر من كروسكو إلى القاهرة قبل سنوات. لم تجد حوا في هذا الحبيب جسدًا ونبضًا ودمًا ساخنًا كما أرادت، ومع ذلك فقد كان وما زال قادرًا على سحرها وإقناعها واحتوائها. حاولت كثيرًا أن تُنبت شجر الرغبة في ثناياه، لكنه كان صارمًا وجادًا ومكررًا أنه لا يُحب افتراس النساء، والأغرب أنه أيضًا ليس لوطيًا يقبل النوم مع بني جنسه. هو كائن غريب يحمل وجهًا أنثويًا وقلبًا ذكوريًا متحجرًا، وعقلاً جهنميًا وأفكارًا وتصورات وخبرات لا حدود لها.

حدثها إبراهيم عن تصوره بأن الغرائز تُحرك البشر، وأن المادية تحكم العالم، وأن الروح زيف ووهم كبير. ذكر لها أنه يسعى لاستعادة مملكة أجداده ببلاد النوبة، وتفريغ العقول والأفهام من الانحياز للأخلاق، والاعتقاد في الحياة الأخرى.

رمقته حوا بالنظرات الطائعة ذاتها، وداعبت رقبته قبل أن يسألها بصوتٍ هامس:

ـ ماذا لديك أيضًا؟ عيناك تحملان أخبارًا مهمة.

هزت حوا رأسها قليلاً ثم قالت:

ـ تحرينا عن الشاب الأسمر الذي يحوم حول المقاهي مُتلصصًا، وعرفنا أنه يسكن بشارع الخليج ويعمل أستاذًا.

وصمتت طويلاً باعثة التشويق له قبل أن تنطق:

ـ بالطبع هو يعتزم شرًا لك. عيناه لا تفارقانك، ويبدو جيب جلبابه ضائقًا بسلاح يعتقد عُثمان أنه مُسدس.

برقت عيناه وهز رأسه فواصلت:

ـ راقبناه من بعيد عدة أيام، واكتشفنا أنه قاتل مُحترف، وكثيرًا ما كان يختلي بالخواجات ليقتلهم في ظلام الأزقة، بعد أن يوهمهم أنه امرأة، ثم يقوم بسرقتهم.

ابتسم إبراهيم وتمتم:

ـ عظيم. صيد ثمين. سنقبض عليه عندما يقترب أكثر، وستشكرنا دولة صاحبة الجلالة على خدماتنا. قولي لعثمان ألا يقتله، نريده حيًا حتى تتلطخ يداه بالدماء تمامًا. قولي لعُثمان: لا أريد رعونة أو حماقة. مفهوم؟

ـ مفهوم سيدي.

ـ أريده أن يقترب أكثر. أطلقي عليه بناتك ليسحرنه ولتُفهمه إحداهُن أنها قادرة على تهيئة الفرصة له لقتلي. سيسعد ويهرول إلى مصيره البئيس.

قهقه إبراهيم في رضا، ورفع كأسًا من النبيذ إلى فيه مُرتشفًا قليلاً من الشراب الساحر، ثم صبَّ الباقي على صدر الجارية قبل أن يلعقه في تلذُّذ. وقال:

ـ البنت نبوية.

ـ ما لها؟

ـ مُناسبة له. مثله يعشق الجسد المُستدير واللون القمحي والجبهة البارزة. أريدها تتفرغ له. لا واجبات عليها سواه. ثلاثون يومًا وسنُقدمه للبوليس مُقابل جائزة كُبرى. السكوت عن الأفيون والحشيش يحتاج قرابين، وهذا القربان جاء في موعده.

ثم قهقه طويلاً.

***

كانت ماريا مُنشغلة بتهذيب أظفارها بمبرد نُحاسي، تلقته ضمن هدايا والدتها عند زواجها بفيليب ضابط البوليس الأشقر، ذي الجسد الفارع والشعر المسترسل والعينين الزرقاوين. فوق أريكتها الناعمة المحشوة بالجريد، جلست بقميص أسود قصير يكشف عن وركين من الرُّخام المُتلألئ، بينما ظهر نتوء بطنها مؤكدًا مرورها قريبًا بعملية ولادة صعبة، وبدا وجهها الأبيض الباهت شاحبًا تحت ضوء المصباح المتدلي من سقف منزلها المجاور لقسم الأزبكية. على يمينها جلس فيليب مُنشغلاً في قراءة أوراق مُرتبة في ملف كبير، عندما سحب سيجارة من علبة سجائره المعدنية، لم يتمكن من إشعالها بسبب صوت ماريا الذي علا فجأة:

ـ فيليب نريد مربية مناسبة لجون.

فكر قليلاً وقال لها:

ـ سأبحث عن فتاة مناسبة.

ثم ابتسم ابتسامة صفراء قبل أن تعود عيناه إلى الملف الذي بين يديه. كان الملف الذي وصل إليه في الصباح من حكمدارية القاهرة، يطلب المساعدة في تقديم معلومات وافية عن أنشطة غريبة يقوم بها رجل يُدعى إبراهيم الغربي، مثل الاتجار في الأفيون واسترقاق النساء والرجال، والتورط في عمليات تهريب ونقل أسلحة عبر الحدود. تضمن الملف خطابًا مُرسلاً من أحد شيوخ الجامع الأزهر، يتضمن شكاوى إلى الخديو من اتساع حجم الفسق والفجور، وسماح الحكومة لواحد من تُجار الرقيق بفتح بيوت للزنا بالقاهرة، وصل عددها إلى نحو عشرة بيوت، فضلاً عن منحه تراخيص بيع الخمور والمُسكرات. ومع الخطاب توصية من مكتب اللورد كرومر تفيد بضرورة تخفيف علانية الأنشطة التي يقوم بها الغربي، حتى لا تؤدي إلى إشعال غضب العوام. ثم قرأ أيضًا إشارة من مكتب البوليس السري البريطاني، تُفيد بتعرُّض بعض المستخدمين من الإنجليز والأوروبيين للاعتداء في مناطق قريبة من الأزبكية، وعقب خروجهم من بارات تخُص الغربي. تذكر فيليب لقاءه الأخير بالإمبراطور الأسود لمملكة الليل، وكيف أخبره بأن مصلحتهما مُشتركة، وهو ما جعله يستبعد تورط الغربي في قتل مستخدمي الجيش البريطاني من الأجانب، بعد خروجهم من بيوته. «لا بد أن هُناك عدوًا مُستترًا يتتبع الغربي ويوقع بزبائنه». هكذا خلص وهو يُلقي بسمة امتنان إلى ماريا التي مالت برأسها فوق كتفه. هُنيهة ووضع الملف جانبًا وقال لزوجته:

ـ هل استمتعت مع جون في رحلتكما إلى أسوان؟

ابتسمت ابتسامة باهتة، وقالت:

ـ بالطبع. جميلة رغم حرارة الطقس. الطبيعة هُناك مُذهلة، لكن الشمس قاسية جدًا. لقد عرفت لماذا يُعشش التخلُّف في هذه الأنحاء أكثر كثيرًا من القاهرة.

اعتدل فيليب قليلاً وسأل باهتمام:

ـ لماذا؟

ـ لا بد أن حرارة الشمس تؤثر بشدة على رؤوس الناس فتُغيِّب عقولهم.

ثم أفاضت شارحة:

ـ هؤلاء أناس خارج التاريخ. طيبون نعم. لكن ما رأيناه أنا ومسز دالورين ومارجريت في رحلتنا يستحق الكتابة.

أبدى فيليب اهتمامًا ظاهرًا لتواصل حكيها:

ـ رأينا هُناك مُعظم الفلاحين يدقون أوشامًا على رقبتهم ووجوههم، ويعتبرون ذلك علاجًا لأمراض وأوبئة مُستوطنة لديهم. رأيت رجلاً خادمًا رسم عصفورة على جبهته، ولما سألته عن سرها، قال إنه يُصاب بنوبات صُداع قاسية، وإن هذه العصفورة تُخفف أوجاعه. ورأيت سيدة معها طفل صغير، وقد رسموا على وجهه ثُعبانًا، وقال لي والده إن هذا الطفل مات إخوته قبل الخامسة، ولا بد من حمايته. وهناك كثيرون يرسمون سمكة على أيديهم للحماية من العفاريت.

ضحك فيليب مُستغربًا وقال لها:

ـ هذه الأمور طبيعية في مثل هذه المجتمعات. الخرافات هي الحاكمة. إنهم يقتلون الفتيات بحماس عندما ينتابهم الشك في سلوكهن، لكنهم يتنافسون في اللهاث وراءهن في البارات وبيوت العاهرات، ما دامت تلك الفتيات حبشيات أو أرمينيات أو يونانيات.

أغمضت ماريا عينيها قليلاً، وقالت:

ـ لقد جلست مع مارجريت في العيادة المتنقلة في قرية قُرب أسوان، وجاءت النساء الحوامل ووجدتهن يلتففن حولي، وينظُرن إلي في إعجاب شديد، وقالت لي مارجريت إنهن ينظُرن إلي لاعتقادهن أن النظر إلى أحد ما، يجعلهن يُنجبن أطفالاً يشبهون من ينظرون إليه.

هز فيليب رأسه واحتضن بيُمناه رأس زوجته التي واصلت:

ـ إن لدى الحوامل في الصعيد عادة غريبة، حيث يقومون بذبح كلب أسود في الشهر السابع للحمل؛ لأنهم يعتقدون أن ذلك يحمي الطفل ويصونه حتى يخرج من بطن أمه، وهناك تعويذة أخرى تضعها الحامل، إذا كان أطفالها يموتون قبل أن يصلوا إلى سن السابعة، وهي تتكون من رأس هدهد، وظفر حية، وأذن حمار ميت، وناب جمل وحرباء، تعلقها المرأة الحامل تحت إبطها الأيمن خلال فترة الحمل.

ـ يااااه.

ـ هل تعرف ما الوسائل التي تستخدمها النسوة في الصعيد لمنع الحمل؟

ـ ما هي؟

ـ تحضرن تمرًا من نوع معين، وتضعن عليه جزءًا من دمائهن، ويلف ذلك الدم بخرقة، وتخفيها السيدة الممتنعة عن الإنجاب في مكان ما في المنزل، وإذا أرادت أن تحمل، فإن عليها أن تخرج تلك الخرقة من مكانها.

ـ خُزعبلات.

علّق فيليب مُتذكرًا مقولة إبراهيم الغربي بأن هؤلاء البشر عبيد، مجبولون على التخلف. ثم قال لزوجته:

ـ دعكِ من هذا يا عزيزتي. هل ستسافرين إلى برمنجهام في عيد الميلاد؟

ـ الكريسماس؟ لقد نسيته. أفكر أن نحتفل به مع زوجات الموظفين البريطانيين والأوروبيين في القاهرة. لا بد أن الاحتفال هُنا له مذاق آخر.

لاحظ فيليب لوحة جديدة توسطت الجدار المجاور للباب، ظهر فيها صياد عاري الصدر يُطلق رصاص بُندقيته صوب غزالة راكضة، ثُم نظر إلى وجه ماريا المُبتسم ليسمع سؤالها المُتكرر كلما اشترت تُحفة جديدة:

ـ هل أعجبتك؟

ـ جميلة.

ـ اشتريتها من أحد تُجار التُحف الجرمان في خان الخليلي، قال إنها من قصر الخديو إسماعيل، وإن خدمه سربوا كثيرًا من اللوحات بعد عزله. إنها للفنان بول سيزان. انظر إلى جمال ألوانها.

ـ آه روعة.

واقتربت ماريا بوجهها من شفتيه مُعبرة عن رغبة حقيقية في أن يُقبلها، فمسح فيليب بكفه شعرها ثم قبلها، لكنه شعر ببرودة مشاعرها وتقليديتها، فتذكر فرشا جامحًا كان يصهل تحته آخر مرة زار فيها إبراهيم الغربي. فقال لنفسه: «يا له من أستاذ»، ثُم واصل تقبيل ماريته في آلية مُملة.

***

رغم أن الطريق إلى دائرة أعمال عبد الغفار باشا شكري طويل، لكن حسن أفندي آثر أن يقطعه ماشيًا، مُستمتعًا باعتدال الحرارة مع قُرب دخول فصل الشتاء. كان الشاب حليق اللحية قد أنهى عمله في جريدة «المُقطم»، بكتابة مقال حول الكتاب الذي ترجمه فارس نمر، صاحب الجريدة، عن الظواهر الجوية، ونال شكره ورضاه ووعده بمكافأته عندما أخبره عن اعتزامه الزواج. فكر حسن في قراره النهائي الذي اتخذه بالموافقة

على عرض عبد الغفار باشا بتزويجه بنُزهة، وقال لنفسه: «إنها تستحق المخاطرة»، ثُم كرر المقولة التي سمعها مرارًا من صاحب الجريدة، بأن «من لا يُخاطر في حياته لا يصعد إلى القمة أبدًا».

العروس جميلة، وصغيرة، وتبدو الرقة والبراءة لصيقتين بها، ومن الواضح أن الباشا حسن النية بشأنها وبشأنه، خاصة أنه سبق أن قام بتوظيفه دون مقابل. هكذا حدثته نفسه وهو في طريقه إلى دائرة الرجل، مُستنكرًا رأي أحمد سليم بأنه قام بتشغيله في جريدة الاحتلال، ليكون له عينًا لدى الشوام المقربين من الخديو، والمعتمد البريطاني على السواء.

كيف يُصاحب هذا المحبط اليائس؟ ليته كذلك فقط. إنه قاتل أيضًا ومتهور ومجرد معرفته خطر كبير. ثُم قهرته الحيرة ليرد على نفسه بأنه رغم كل هذا مُخلص ووفي.

نظر إلى سواد حذائه، وأعجبه أن يبدو لامعًا جديدًا، مناسبًا لبذلة كُحلية ناعمة الملمس بعث بها إليه الباشا، ولم يستغرق تضييقها سوى يومين فقط عند الخياط اليوناني بالسيدة زينب. تخيل هيئته جوار عروسه ليلة زفافهما في حي الخرنفش، وتمنى أن يرتدي كرافتة حمراء بدرجة احمرار طربوشه الطويل، مُتشبهًا بالمطرب المحبوب عبده الحامولي. «سيكون الباشا كريمًا وسيمنحني الكرافتة»، قالها لنفسه طاردًا أي وساوس سلبية عن الرجل الذي لم ير منه سوى الخيرات. صحيح أنه يتعامل معه بتعالٍ ظاهر في معظم الأحيان، لكن ذلك طبيعي لفارق المكانة والسن.

أبصر حسن الجلابيب الزرقاء والصفراء حوله قد اكتست بسترات من الصوف، وتحركت في نشاط عجيب يُناسب العاشرة صباحًا، وشاهد الحمير والبغال تمضي في الطرقات إلى جوار الناس، جارّة عربات مُحملة بالخضراوات والغلال، بينما كان بعض الصبية الصغار يجرون خلف عسكري إنجليزي، بعد أن رمى لهم لفات من السكاكر على الأرض، وهم يصيحون بإنجليزية خربة «شكرًا جوني».

الطريق إلى بر إمبابة ليس طويلاً، والسير في الصباح مفيد للجسد. هكذا قال لنفسه وهو ينعطف في شارع النيل، مُتفكرًا في استعدادات ضرورية لازمة للزواج. سيشتري دكة خشبية جديدة وعددًا من الوسائد، وسيحضر بطانية من الصوف وخزانة من الخشب الزان، وسيذهب إلى المزين، والحمام العثماني ليتفق معهما. وسيمر على دكان الحاج علي العطار ليجلب بخورًا وقرنفلاً وطيبًا وحناء، وسيكري عربة سوداء فخيمة تجرها مُهرة بيضاء كحيلة.

سيدعو والديه أيضًا، وربما يسافر خصوصًا لإحضارهما. لن يخذلاه رغم جفاء اللقاء الأخير. كان وجه والده الصارم القاسي ماثلاً أمامه، وكانت كلماته لا تزال ترن في أذنيه بأنه تفرنج وعمل في جريدة الاحتلاليين، وبأنه قتل آمال عائلته في أن تُخرج فقيهًا عظيمًا يخدم الإسلام. تذكر كيف احتضن أمه قبل ثلاث سنوات مودعًا، بعد أن أخبرها بأن مستقبله هُناك في القاهرة حيث الأدباء والفنانون والباشاوات.

وصل إلى قصر ضخم تُحيطه حديقة واسعة، مغروسة بأشجار المانجو، ليرى عربة الباشا واقفة أمامه وإلى جوارها شاكر أفندي سائق الباشا، بلونه الداكن وطوله الفارع ورقبته النحيلة المحنية. حياه في اهتمام قبل أن يصطحبه إلى الداخل ليجلس في بهو فسيح، يضم عددًا من المقاعد الخشبية. شعر براحة الجلوس بعد سير طال ساعة من الزمن، قبل أن يقول له السائق:

- ستنتظر قليلاً. سيُنهي الباشا بعض الأشغال وستذهب معه إلى البيت.

ثُم سأله في أدب:

- ماذا تشرب؟

- ليمون بارد.

أسند ظهره إلى حشو المقعد طالبًا التنعم ببعض الراحة والاسترخاء، مُستمتعًا برشفات من شراب الليمون

البارد. على الطاولة أبصر عدة ضحف مطوية، وميّز منها «المقطم» و«المؤيد» و«الأهرام»، ولمح حسن اسم عبد الله النديم في عنوان على الصفحة الأولى من «المؤيد»، فأمسكها ليقرأ نبأ رفض السلطان عبد الحميد سلطان الدولة العلية عودة الأستاذ عبد الله النديم إلى مصر، وقيام البوليس العثماني بتنزيله من الباخرة المقلة له إلى الإسكندرية. وقال لنفسه مُعتبرًا: «لن يموت حيث أراد».

سرح حسن أفندي في أحوال مصر الواقعة بين تجبر السلطان المُمثل لدولة الخلافة الإسلامية، وتهتك المحتل الأجنبي، وارتاح لمنهجه في الحياة، بأن المُجاهرة بمواجهة الاستبداد والاحتلال على السواء خطأ شنيع، وأن مَن يضطرون إلى ذلك يدفعون الثمن الفادح، فيموتون في السجون والمنافي، دون أن يذكرهم ذاكر أو يرثيهم مُحب. وتذكر حواراته مع أحمد سليم حول تصوره للمقاومة بالعلم والرقي والتطور، واستبشع مقولته الساخرة: «موت يا حمار»، وكيف ردّ عليها بأن علينا أن نخرج من دائرة الحمير أولاً، حتى نصبح قادرين على المجابهة.

سمع خطوات ثقيلة خلفه فوقف احترامًا للباشا، الذي بدا أنيقًا بحلة بُنية، ارتدى عليها كرافتة داكنة، تمنى حسن أن يرتدي مثلها.

- مُبارك يا حسن أفندي. كُنت أعلم أنك ستأتي.

- ممنون يا باشا. فضائلك لا تُحصى.

جلسا، ليتحدثا عن تفاصيل الزواج، وسر بإهداء الباشا له قطعة صوف إنجليزي، ثُم امتد الحديث لأمور السياسة وأحوال البلد، وأخبره الباشا بأن أبناء علي باشا شريف، رئيس مجلس شورى القوانين، أقاموا دعوى للحجر على والدهم، بسبب إنفاقه أموال العائلة على حسناوات أوروبيات، يرافقهن ويشتري لهن الحلي النفيسة، وهو ما أغضب الخديو عباس وأوغر صدره عليه. وحدثه الباشا أيضًا عن قيام بعض الأمراء بابتياع أوتومبيل ينقل الناس من مكان إلى آخر بسرعة، ودون خيول أو بغال، وقال حسن إنه قرأ كثيرًا عن هذه الآلة العجيبة وشاهد صورًا لها في «الأهرام».

امتد الحديث ساعة، وبدا الباشا راضيًا عن حسن أفندي، الذي نقل إلى الباشا تحيات فارس نمر له، وضحك الباشا كثيرًا، قبل أن يُفاجئ حسن بقوله:

- لنا رجاء عندك يا حسن أفندي.

خجل حسن من كلمة «رجاء»، واعتبرها أدبًا جمًا من الباشا، قبل أن يواصل محدثه قائلاً:

- الست أم الحُسن تطلب منك أن تكون حريصًا ألا تحبل نُزهة. هُناك طُرق عديدة لا بد أنك تعرفها.

انعقد حاجبا حسن، وسأل:

- ماذا؟

أشعل الباشا سيجارة أخرجها بتوتر من علبته المعدنية، ونفث دخانها في فضاء البهو، وقال مُبتسمًا:

- أنت لا تعرف مدى تعلُّق الست أم الحسن بالبنت. إنها تعتبرها مثل ابنتها تمامًا، وتأمل أن تستمر في زيارتها كل يوم، لتساعدها في أعمال البيت، خاصة أن الجارية مأمونة ماتت، ولم يعُد باستطاعة الهانم أن تعتاد على امرأة جديدة. فضلاً عن ذلك أنت تعرف أن عملية ابتياع جوارٍ جديدات، صارت محفوفة بالخطر بعد أن قبضوا على كثير من الجلابة.

لعب الشك في فؤاد حسن، وقال دون أن تنبس شفتاه: «إنك أنت اللعين الذي لا تريد أن تفقدها»، ثُم أردف وهو يتذكر سخرية صديقه أحمد سليم من الموضوع برمته، «تعتقها لتستعبد جسدها أيها الكهل الانتهازي». وفكر أن يتراجع عن قراره، لكنه شعر بحرج موقفه، عندما قال له الباشا:

- ستأتي معي لننهي الأمر في البيت. سأبعث إلى الشيخ علي الصعيدي، ليوقع لكما عقد الزواج. مبارك عليك.

- الصعيدي؟

قالها حسن مُستنكرًا، ثُم أضاف شارحًا:

- لا أحبه ولا يحبني. هو نموذج للعمائم الفاسدة. إن معظم طلبة الأزهر يحتقرو...

لكن الباشا قاطعه قائلاً:

- لا عليك. يُمكن أن نحضر أي مأذون.

ثُم قام، فتابعه حسن ورافقه إلى العربة التي تحركت بهما عبر شوارع عديدة، اصطفت فيها قصور وأبنية جميلة شكلت سلسلة باهرة أمام نهر النيل، بمائه المتلألئ تحت أشعة الشمس الخريفية الهادئة.

في الطريق قال الباشا باسمًا:

- هل تعرف أنك محظوظ جدًا؟

لم يُعلق حسن، فواصل الباشا قائلاً:

- ستتزوج في أسبوع زواج مولانا. لقد ظهرت علامات الحمل على إقبال هانم أفندي، وقرر أفندينا الزواج بها. لقد كانت إقبال هانم جارية لمولانا مُنذ كان وليًا للعهد، ويبدو أن حظها سعيد أن حملت منه. ستصير ملكة بعد أن كانت...

وصمت باسمًا، بينما كانت دماء حسن تغلي بالحيرة والرفض. كيف لحاكم دولة أن يستحل نساءً من كُل لون، لتصير واحدة منهن صاحبة الحظ الأوفر، وتنقلب من عبدة إلى سيدة، بل ملكة لها النهي والأمر؟ أي عقول ونفوس تحملونها يا أهل الشرق؟

وصلا سريعًا إلى البيت، ودعاه الباشا للدخول، لكنهما فوجئا بأم الحسن تجلس أمام باب القصر، وهي تبكي في حُزن ظاهر، وقبل أن يسألا عما حدث، جاء جوابها مُختلطًا بالنحيب:

- هربت البنت. هربت نُزهة.

- كيف؟

قالها الباشا مُنزعجًا، فردت زوجته مولولة:

- في الصباح لم تعدّ لي الفطور ولا الحمام كما المعتاد، فظننت أنها مريضة، وبحثت عنها في كل مكان فلم أجدها، ثُم وجدت هذه الورقة في حجرتها.

وناولته ورقة صغيرة كتب فيها بخط رديء: «خلق الله الإنسان حُرًا».

آه، هل وصل ما يقوله الشاب الأبي عبد الرحمن الكواكبي من حلب إلى المحروسة؟ وأين؟ في دار عبد الغفار باشا شكري؟ رأس الأعيان؟ يا لسخرية الأقدار. قالها حسن لنفسه وهو يضحك دون صوت، ثُم أبدى تأثرًا كاذبًا قبل أن يستأذن سعيدًا.

***

صبّ كأسًا من النبيذ المُعتق في جوفه، قبل أن يُخيل إليه سماع صوت ارتطام مكتوم، بالشرفة الخلفية المطلة على حديقته الصغيرة إلى جوار النيل. كان فرانسوا دي روسو لا يعرف أنها الليلة الأخيرة له في الحياة، عندما طلب من خادمه الذهاب إلى بيت إبراهيم الغربي لدعوة نبوية لذة لتبيت عنده، وجلس إلى طاولة

الصالة المستديرة في منزله، يتأهب لليلة دافئة مع فتاة يُفضلها على كثيرات، للونها الأسمر واستدارة عجيزتها ودلالها المفرط.

كان الطقس مائلاً للبرودة عندما فوجئ فرانسوا بباب الشُرفة الخشبي يُفتح فجأة، لتتراقص شعلة المصباح الزيتي المُعلّق في حلقة نحاسية أعلى الجدار الملاصق. هبّ الرجل الستيني ذو الصلعة الحمراء والسالفين الأصفرين ليُغلق الباب، لكنه وجد أمام ناظريه شبحًا أسود وبيده مُسدس مُصوب تجاهه. ظن فرانسوا أن النبيذ المُعتق أشد سُكرًا مما كان يتوقع، فمسح بأصابعه جفنيه المُتعبين عدة مرات، محاولاً الاستيقاظ من الخدر المُزعج دون جدوى، إذ بدت ملامح الشبح تتضح رويدًا لتكشف عن ابتسامة ساخرة، وعينين لامعتين، ووجه أقرب للنحول وأشبه بأولاد البلد من الأفندية والفلاحين. نادى بصوتٍ هامس على خادمه «آدم»، لكنه لم يسمع إجابة، ثُم تذكر أنه بعث به إلى بيت العاهرات قبل قليل. انتابته حالة من الذهول والسكون التام، قبل أن يوصد الشبح باب الشُرفة في هدوء ثلجي يليق بمحترفين، ثُم قال له بفرنسية سليمة:

- اجلس مسيو فرانسوا.

بدا له الوجه مألوفًا وشعر أنه سبق أن رآه مرارًا، لكنه لم يُحدد أين بالضبط. قال لنفسه إن الوجوه تتداخل والملامح تتشابه في اللحظات العصيبة. شعر بقشعريرة تغزو أوصاله عندما قرأ في عيني صاحب المُسدس شرًا مُستطيرًا. تذكر أن لديه بُندقية طويلة حصل عليها من القنصلية الفرنسية، عندما قدم إلى مصر وقرر السكن إلى جوار نيلها، لكنها الآن نائمة كعادتها تحت سريره النُحاسي.

حاول فرانسوا التشبُث بالشجاعة، فجلس ودعا آمره للتفضل بالجلوس، وسحب غليونه الأبنوسي المنحوت عليه برج إيفل، تمهيدًا ليُشعل بقايا تبغ محشوة فيه، لكن صاحب المُسدس تقدم خطوة إلى الأمام وقال بجدية بالغة:

- أنا أقرر الجلوس متى أريد.

وأضاف مُشيرًا إلى ما بين يديه:

- وأنا لم آذن لك في أن تُدخن. اتركه يا فرانسوا.

وسحب من يده الغليون العاجي ووضعه على الطاولة، وتفرس بعينين سوداوين في محتويات الصالة، لتفر عيناه سريعًا على ستائر مزركشة، ومكتبة أوروبية الطراز، وأريكة على هيئة نصف دائرة أمامها منضدة صغيرة، كان من الواضح أنها مجلوبة من أوروبا خصوصًا. ثُم رنا بنظرات مُخيفة نحو فريسته التي تجمدت أطرافها، وظل صاحبها صامتًا للحظات قبل أن يسأل:

- ماذا تريد؟ هل تريد مالاً؟

- أنا لست لصًا.

قالها حامل المُسدس في برود.

سكب المصباح المُعلّق بعض ضوئه على وجه الشبح فبدا واضحًا لفرانسوا، والذي تذكر أنه رآه كثيرًا في مقهى «متاتيا»، وتذكر أيضًا أنه التقاه مع حسن أفندي الكاتب قبل أن يسمع كلام الرجل:

- هل تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا رسول الله؟

اسمه أحمد سليم. تذكره جيدًا. يعمل مُدرسًا، ولا بد أنه مخبول من مخابيل الدين المُحمدي. يُريده أن يُسلم. يتبع كُتابهم الذي طالما بحث عن تشكيكات فيه، وخاض مُناظرات وحججًا لنفي منهج محمد عبده العقلي للإسلام. يُريده خاضعًا لأولئك المُتعممين الجهلاء، الذين يتصورون أنهم أفضل وأطهر من شعوب أوروبا المُتحضرة.

سكت حيرة، وخوفًا، وبدأ يستمع إلى دقات قلبه، وحفيف الأشجار في الخارج، ولا شيء آخر. لا صوت أقدام تقترب تذل أن خادمه المطيع عاد، ولا صفارة خفير الناحية المتجول ليلاً توحي بأنه غير نائم، ولا صوت نفسه المتقطع الشائخ من تدخين الفليون يعني أنه قادر على المقاومة.

التحف بالصمت، لكن أحمد سليم اقترب أكثر منه، حتى شعر بزفيره يحرك بقايا شعره الخفيف الملتف حول صلعته الحمراء، والتي ازداد احمرارها. وقال أحمد في صرامة:

ـ لقد سألتك سؤالاً ولم تُجب.

ارتعد فرانسوا، وتذكر سنوات ترحاله في بلاد الشرق مُنذ قدم صغيرًا مع شارل ماسبيرو، فاختار الأول القاهرة واختار هو بغداد، ومنها عرج إلى دمشق. مرت بخياله جلساته مع صديقه المُستشرق جولد تسيهر وهو يطلب منه دراسة اللغة العربية دراسة وافية، تمهيدًا لمشروع كبير يُخطط له لوضع كُتب عن الإسلام تكشف مثالبه. تذكر كيف عمل مع بعض يهود الشام على نشر الانحلال والفجور في المُجتمع، ثُم كيف قبل دعوة إحدى الجامعات الفرنسية لدراسة المجتمع المصري، قبل أن يلتحق بخدمة الخديو كمستشار.

فكر فرانسوا دي روسو سريعًا، وقرر أن يتحايل أملاً في النجاة، فقال:

ـ هل تعرف يا سيدي. أنا أحب الإسلام كثيرًا، وأشكر الله أن هداني إليه على يديك.

ـ هل تشهد أن لا إله إلا الله وأن مُحمدًا رسول الله؟

ـ بالطبع يا أخي، أشهد أن لا إله إلا الله، وأن مُحمدًا رسول الله.

ابتسم أحمد في برود ثُم قال له:

ـ عظيم.

ثُم قال بعد هنيهة:

ـ من الأفضل لك أن تموت مُسلمًا. لا تقلق يا مسيو فرانسوا. سأصلي عليك.

وبحركة مفاجئة أخرج أحمد خنجرًا من بنطاله، وغرسه في صدر فرانسوا الذي لم يتوقع الضربة، فصرخ صرخة مكتومة، لكن أحمد باغته بضربة أخرى في جانبه الأيسر، ثُم ثالثة اخترقت جدار المعدة فسقط على الأرض ونوافير من الدم تتدفق من جسده، لتمتصها سجادة حمراء زينت أرضية الصالة. رأى فرانسوا ما لم يره من قبل، سواد في سواد، وارتعشت يداه وحاول النُطق لكنه شعر أنه شخص آخر، وشهق عدة شهقات غير مُكتملة، وتجمد جسده تمامًا.

«إنه الموت. مُحني الرؤوس، وماحق الفعل، وساحق رد الفعل. لا مهرب، ولا مُجير. نهايتكم هُنا، وبدايتكم هُناك، حيث لا امتيازات أجنبية، ولا وساطات، ولا رعاية مُحتل، ولا قُرب من كبير. الموت يا سارقي الحضارات وناهبي الشعوب. الدليل الوحيد أنكم ضُعفاء، وحقراء، وأدنى من بعوضة».

قالها أحمد كمن يرثي راحلاً، ثم أدخل مُسدسه في جيب بنطاله ومسح دماءً حول خنجره بمنديل صغير، وبدأ سلب ضحيته بهدوء وروية وتلذذ، ليأخذ فرنكات وقروش كانت في جيبه، ويخلع خاتمًا ذهبيًا كان يُزين إصبعه، ثُم أخذ زجاجة عطر صغيرة كانت على رف المكتبة المجاورة، ووضع القاتل كل ما لديه في كيس قُماشي كبير أخرجه من جيبه، والتقط بعض التُحف الصغيرة كغنائم من ضحيته، مُبديًا إعجابًا وسرورًا بقداحة فضية، ومحبرة صغيرة، وغليونٍ من الأبنوس وكيسٍ من التبغ.

نظر أحمد إلى جُثة فرانسوا، وتمنى لو يراه صديقه حسن الكاتب، والذي كان مُغتاظًا من طعن الرجل، وتشنيعه على النبي الكريم وعلى الإسلام. ابتسم ابتسامة تشفٍ، وقال: «أنا على الحق يا حسن. لا تغيير ولا تحرر بالعلم وحده. ماذا فعل العلم مع مثل هذا الكلب؟». ثُم تذكر بيت أبي تمام الشهير: «السيفُ أصدق إنباءً

من الكُتب.. في حده الحد بين الجدِ واللعب». ومضى بخطى ثابتة وسكينة رضا.

***

في حقيبة صغيرة من القماش وضعت مشطًا، ومكحلة، وخلخالاً من النّحاس، وصديرية من القطن، وسراويلين داخليين، وقميصًا، وطرحة سوداء، وبرقعًا. وصلت نُزهة إلى دار الفتقاء سيرًا بعد سؤال. كانت قد قرأت في جريدة «الأهرام» أن مصلحة عتق الرقيق أنشأت مؤخرًا دارًا لإيواء العبيد المحررين من النساء والرجال، وأن مستخدمين بالدار يقومون بتشغيل الأرقاء بعد منحهم تذكرة حُرية. ولما تأكدت الفتاة الصغيرة من حقها في نيل حريتها دون حاجة إلى إعلان مالكها قيامه بعتقها، قررت الذهاب لاستخراج تذكرة الحُرية، لتبدأ حياة جديدة تمتلك فيها إرادتها وحرياتها.

قالت لنفسها وهي تجلس تنتظر دورها في صحن بيت فسيح يطل على ميدان الإسماعيلية: «سأفلت إلى حيث أريد. أقرر ما أرى وأعمل ما أبغي. لا يستعرض لحمي صاحب مال أو سلطان، ولا يهديني رجل لآخر كمتاع، ولا أؤمر بما أكره وأنهى عما أحب. الحرية هي أن أختار بين اثنين وثلاثة، أن أقول ما أشاء لمن أشاء، أن أعامل كإنسان له إرادة ورأي لا كحمار يحمل فوق ظهره الحطب، أو حتى كغزال يستمتع الآخرون بالنظر إليه».

كان الصحن يضُم ثلاث دكك خشبية، كل واحدة خلفها جدار من جدران الصحن، وعلى كل واحدة منها جلست سيدة أو اثنتان معظمهن من سمراوات البشرة، وأعمارهن تتراوح بين الثلاثين والأربعين، والتففن بملاءات سوداء وغطين وجوههن بأنصاف طرحهن، وفي الوسط زُرع مكتب خشبي بسيط، رُصت عليه كومة من الملفات والأوراق، وخلفه وضع كُرسي صغير انحشرت فيه سيدة بدينة، أمامها لافتة خشبية صغيرة كُتب عليها باللغتين الإنجليزية والعربية، مسز مارجريت.

بدت مسز مارجريت ذات النمش الكثيف والوجه الأحمر وخُصلات الشعر المقصوفة، والتي لا تتناسب مع كونها في العقد الخامس من عمرها، جادة في إصدارها الأوامر وإدارتها لشؤون العمل، وهو ما أعجب نُزهة وأثار دهشتها.

كانت تتحدث بوجه جامد إلى كُل سيدة تقف أمامها دون أن يرتد لها طرف. وبدا وجهها باردًا كالثلج وهي تتفرس في أولئك المُتشحات بالسواد، والخارجات من عبودية الرق إلى عبودية الجهل وازدراء المُجتمع.

بهزة من رأسها أشارت إلى نزهة لتتقدم، فقامت نُزهة والخجل يُغطي وجهها، ووقفت أمامها كطفل صغير في أولى سنوات سيره. سألتها عبر تُرجمان أسود طويل يقف إلى يسارها عن اسمها، فأجابت بصوت خفيض:

- نُزهة.

- نز...هة. ماذا تعني؟

انحنى التُرجمان على أذنها هامسًا، فكتبت اسمها في ورقة أمامها، ثُم سألت في صرامة:

- نُزهة بنت مَن؟

لم تجب نُزهة، وهزت رأسها علامة الجهل، لم تر والدها ولا تعرفه، ولا سمعت اسمًا آخر وهي في بيت لحم، ثم عند حسن الجلاب.

سألتها مارجريت عن عمرها، فكررت نُزهة هز الرأس، ثُم سألتها عن سيدها فكررت الحركة ذاتها، لكنها لمحت مارجريت وهي تكتب في شهادة ورقية بخط عربي ركيك:

«تذكرة حُرية.

الاسم: نُزهة

الجنس: شامية

السن: في حدود ١٦ عامًا

اسم من كانت بطرفه: مجهول

الأوصاف: بيضاء. عسلية العينين، دقيقة الفم والأنف. شعر طويل أسود. لا علامات مميزة.

صادرة بقلم الرقيق بالقاهرة باسم نُزهة بنت محمد، وتحررت هذه التذكرة لاعتماد حريتها كسائر الأحرار، بتاريخ أول نوفمبر ١٨٩٤...».

لم تُصدق نُزهة عندما منحتها مارجريت تذكرة الحُرية. لامستها باستغراب وسرور شابه بعض القلق، عندما قال لها الترجمان الأسود:

- ستسكُنين في الطابق الثاني في دار العتقاء، ولك ماعون يومي بيضة وقطعة جبن وطبق فول، ولك مرق مرتين في الأسبوع، وثلاثة قروش حتى يجدوا لك عملاً. ستخدمين في أحد منازل الخواجات.

وأضاف ناقلاً كلام مارجريت:

- ستخدمين فقط مقابل أجر. من الآن أنت لست جارية، ولك الحق أن تتركي العمل إن لم يرُقك. لكن أتمنى ألا تهربي للعمل في البغاء مثل معظم النسوة.

هزت نُزهة رأسها موافقة، ثُم قالت للرجل:

- الحُرة لا تعمل في البغاء.

ثُم قالت في فخر:

- أنا مُتعلمة. بإمكاني القراءة والكتابة.

فوجئ التُرجمان الذي التفت إلى السيدة الفديرة مُتحدثًا، فنظرت إلى نُزهة مُتمعنة، ثُم أشارت إلى التذكرة ودعتها لأن تقرأها، فقرأت في ثقة واتزان أثارا إعجاب السيدة والترجمان المصاحب لها.

نظرت مارجريت بسرور إلى نُزهة وقالت لها عبر الترجمان:

- أنتِ محظوظة. هُناك زوجة لضابط بالبوليس تبحث عن مُربية لطفلها من المصريات، لكنها ستكون سعيدة للغاية لو علمت أنك تعرفين القراءة والكتابة. ستحملين عنها الطفل، وتُحممينه وتُنظفينه وتعتنين به. إنه عمل سهل وبسيط ولا يحتاج إلى المهارة مثلما يحتاج إلى الإخلاص والتحضر. سأتصل بها، وانتظري في عنبر النساء، ولا تهربي إلى بيوت إبراهيم الغربي مثلما تفعل بقية النسوة. أنت حُرة، وكما قُلتِ أنتِ، الحرة لا تعمل هذه الأعمال. ليباركك الرب.

شكرتها نُزهة في فرح، ثُم صعدت إلى حيث أشار الترجمان لتقابلها سيدة بدينة، قمحية اللون، في الطابق الثاني، أخذت من يديها التذكرة وأمعنت في النظر فيها، وبدا أنها حركة آلية وأنها لا تعرف القراءة، قبل أن تقودها إلى ممر طويل على جانبيه غُرف مستطيلة، فتحت باب إحداها لترى نُزهة مراتب مُتراصة بطول الغرفة المنتهية بنافذة على هيئة مشربية، تُشابه تلك الموجودة في غرفة سيدتها السابقة أم الحُسن. لمحت خزانة كبيرة على يمين النافذة، وسألت السيدة البدينة، التي قدمت لها نفسها قائلة: «خالتك سنية»، عن رفيقاتها في الغرفة، فقالت لها مبتسمة: إنهُن يهربن للعمل في بيوت السعادة. ثُم أضافت مُبررة:

- النسوة ليس لهُن عمل في هذا البلد إلا فتح الساقين. مُعظم المُعتقات يحصُلن على خمسة قروش من إبراهيم الغربي نظير كُل ليلة، وهُن يأتين هُنا مرة أو مرتين في الأسبوع، أو عندما تتعب أي واحدة منهُن.

- كُلهُن؟

سألت نُزهة، فأجابت سنية:

ـ نعم.

ثم بنظرة خُبث:

ـ لو أردتِ عملاً أوصلك. لكن كُل واحدة منهن تدفع لي قرشًا في الليلة.

قرش. قالت نُزهة لنفسها في أسى وسخرية. ما لم تعرفه يومًا أن نزهة كانت تأخذ كُل صباح مليمين اثنين من أم الحسن، لتدفع للسقا وهبة ثمن ثلاث زلعات من الماء، تحملها إلى بيت الباشا. في العيد الماضي قال لها السقا إنه سيأخذ مليمًا ويترك لها آخر، لتشتري شيئًا تُحبه بمناسبة العيد، ففعلت واشترت مكحلة ومشطًا. اشترت أيضًا سراويل داخليًا ليقيها صقيع الليل، وغدر الباشا في نزواته الليلية المفاجئة. تلك أيام انقضت، ولن تعود. هكذا أقسمت وهي تُلقي بنفسها على إحدى المراتب المحشوة بالجريد لتنعم بالراحة، وترنو إلى غد أجمل.

***

اضطراب عام ساد أروقة مكتب البوليس السري الإنجليزي، في ثكنات قوات الاحتلال بقصر النيل. كان نبأ تجدد حوادث اغتيال الأجانب في أزقة وشوارع القاهرة، قد أثار موجات من الفزع بين الجاليات الأوروبية المقيمة في العباسية والجزيرة وقصر النيل. دعت القنصليات الأجنبية رعاياها كافة لتوخي الحذر، وعدم السير ليلاً في مناطق غير مأهولة، والاهتمام بإغلاق بوابات منازلهم جيدًا في المساء.

وضع المكتب بيانًا بأسماء الموظفين، وأصحاب الحوانيت الذين سبق اعتقالهم بعد معركة التل الكبير، بتهم إحداث الشغب، وتم توزيعه على أقسام الشرطة كافة. كان بعض هؤلاء قد أنهوا مُدد حبسهم، بينما كان البعض الآخر لم تتم إدانتهم جنائيًا، وأُفرج عنهم بعد إعلان الخديو توفيق العفو العام. كما قررت السُلطات تشديد حراستها على كبار المستخدمين لديها، وبعض الشخصيات المهمة من الجاليات والقناصل الأجنبية، وتعيين خُفراء سريين في بعض الحارات والأزقة التي شهدت حوادث مشابهة.

وطبقًا لما نشرته جريدة «المقطم» فإن اكتشاف جريمة قتل المسيو فرانسوا دي روسو، المستشرق الفرنسي، فتح تحقيقًا موسعًا في حوادث العثور على جثث خواجات يونان، وطليان، وإنجليز، في أماكن متفرقة من القاهرة. ونظرًا إلى تباين طرق القتل بين الخنق، والطعن بخنجر أو سكين، أو الضرب بآلة حادة على الرأس، فقد استنتجت سُلطات التحقيق اشتراك أكثر من شخص في تنظيم سري، لاغتيال الأجانب. وكشفت الجريدة احتمال عودة جمعية الانتقام التي أسسها بعض الموتورين، بعد دخول القوات البريطانية إلى مصر سنة ١٨٨٢، موضحة أن المعتمد البريطاني تعهد بتقديم القتلة السريين إلى المحاكمة قريبًا.

وكان عُثمان الطوشي قد أبلغ قسم الأزبكية عن العثور على الخواجة فرانسوا، في صحن منزله مضرجًا في دمائه، بعد أن أخبرته إحدى المومسات اللاتي ذهبن إليه، باكتشافها باب المنزل مفتوحًا، ورؤيتها جسد الخواجة مُلقى على الأرض والدماء في كُل مكان. ومن جانبه قام قسم الأزبكية بإبلاغ قسم قصر النيل. وذكرت «المقطم» أن القتيل جاء إلى مصر للخدمة لدى المغفور له الخديو توفيق، كخبير في الفنون الأوروبية، وأنه تفرغ بعد وفاة الخديو للعمل في مجال التأليف ومراسلة الصُحف الأوروبية.

وكتبت جريدة «الديلي تلغراف» أن الأمن مفقود، لعدم مقدرة البوليس الحفاظ عليه، وأنه يخشى من تعدي الأهالي على الأجانب، خصوصًا وأن الأيام الأخيرة حصلت حوادث من هذا القبيل.

وفي مكتبه البسيط بقسم الأزبكية، كان الضابط فيليب يكتب تقريره عن صاحب البلاغ لإرساله إلى الحكمدارية بناء على طلبها، عندما انتابته حالة من القلق تجاه الجريمة، متخوفًا من أن يكون إبراهيم الغربي متورطًا فيها، خاصة أن إحدى فتياته كانت وراء اكتشاف الجريمة. تذكر صرامة وجهه، وقسوة ملامحه رغم

السمت الأنثوي، إلا أنه طرد فئران الشك من رأسه عندما استرجع قول الغربي له في لقائهما الأخير، إنه يعمل كل شيء لخدمة مصالح دولة صاحبة الجلالة، وإنه يكن كراهية شديدة لأهل البلد من المصريين والعرب. قال فيليب لنفسه وهو يرشف رشفات تلذذ من فنجان القهوة الصباحية: «إن الغربي يعلم أن هناك خطوطًا حمراء، ورعايا الدول الأوروبية لا يجوز المساس بهم».

وكتب فيليب في تقريره موصيًا بضرورة الاستفادة من خدمات صاحب بيوت السعادة، المعروف بإبراهيم الغربي، خاصة في مجال المعلومات؛ لأنه يمتلك جيشًا من البصاصين والسحابات والعاهرات، ولديه بارات وبيوت دعارة، يُقال فيها ما لا يقال، وتحتمل جدرانها أسرارًا وأخبارًا قد تكون مفيدة في هذا الشأن.

تذكر فيليب زوجته متوجسًا خيفة من بقائها هي وجون وحيدان في المنزل، ثم قرر إرسال رسول إلى مسز مارجريت، والتي أخبرت زوجته قبل أيام أن لديها خادمة مُناسبة. نادى الكونستابل الإيرلندي لوكس، صاحب العينين الضيقتين والوجه الفأري الأبيض، وطلب منه الذهاب إلى مسز مارجريت في دار العتقاء لتحضر إليه الخادمة الجديدة. «أوكيه»، رددها الكونستابل ساحبًا قدميه في خفة وشرعة لتنفيذ المطلوب.

نظر فيليب إلى وجه الخفير الواقف أمامه بليدًا صامتًا. لا يتحرك ولا ينفعل. لا يكاد يُبدي تعبًا أو مللاً رغم وقفته الدائمة. خادم من أهل البلد، لم يجد عملاً سوى الحراسة. مَن يحرس؟ لا يهم. ولمَ؟ من أجل قروش معدودة تُنفقها ماريا في ابتياع قميص نوم جديد، أو زجاجة عطر صغيرة. هل يعرف هذا الرجل الذي تجاوز الخمسين، أنه يحرس ضباطًا ينتمون إلى أمة تحتل بلاده؟ رُبما كان عبدًا وتحرر. زملاؤه من المصريين والسودانيين مثله. طائعون بلا حدود. هل هُم أيضًا كانوا عبيدًا؟ عويس. قُرني. إدريس، والخضر وثُلة الخفر دائمًا ساكنون. أما الضباط المصريون فأفضل قليلاً. منافقون إلى أبعد مدى. يثرثرون ويتفكهون ويُحاولون الظهور دائمًا بمظهر الأصدقاء والمحبين، لكن مآقيهم تحمل كراهية دفينة لا تكاد تبين. هكذا فكر وهو ينتظر عودة الكونستابل وبصحبته الخادمة.

دقائق لم تطل ليدخل الكونستابل وخلفه ملاءة سوداء تحمل لفة من الملابس المكورة، اعتاد فيليب رؤيتها تفر في الشوارع كل يوم. سألها في عربية رديئة عن اسمها، فأجابت:

ـ نُزهة.

أشعل سيجارة ونفث دخانها في الهواء، ثم سألها باستخفاف ظاهر:

ـ كُنت جارية؟

هزت رأسها بالإيجاب، فواصل:

ـ عند مَن؟

لم تُجب، فقال:

ـ لا يهم.

سألها ثانية إن كان لها أهل، فهزت رأسها بالنفي.

رن جرس التليفون أمامه، ففزعت نُزهة ثم اندهشت عندما رأته يتحدث في آلة صلبة، مربوطة بسلك يصل إلى كُتلة معدنية كبيرة، موضوعة على المكتب. كان فيليب جذابًا وساحرًا بلغته الإنجليزية التي سبق أن سمعتها من مسز مارجريت، وبعينيه الزرقاوين وشعره الذهبي الناعم، ولم تر مثله مُنذ جاءت إلى المحروسة.

قال فيليب لمُحدثه بإنجليزية سليمة ضاغطًا كُل كلمة:

ـ لا أعتقد أن يكون الغرض من الجريمة السرقة. اللصوص لا يخاطرون باقتحام بيوت الجزيرة، لأنهم يعرفون أن لدى كثير من الشكان بنادق. أتصور أن القتلة عصابة تتبع الأجانب وتقتلهم ثم تسرق أموالهم.

سكت كأنه يستمع إلى كلام بعينه ثم قال:

- نعم يا سيدي. إبراهيم الغربي لا يُمكن أن تكون له يد فيما جرى. لقد كتبت توصية بالتعاون معه. الرجل لديه رغبة جادة في ذلك، وتجب الاستفادة من المعلومات التي يحوزها.

واصل حديثه في اهتمام ثم قتل سيجارته في منفضة أمامه، قبل أن يودع مُحدثه بأدب جم ويُعيد السماعة فوق الكتلة المعدنية، لتبرق عينا نُزهة استغرابًا وعجبًا. بدت عيناها جميلتين ولاح ما ظهر من وجهها رائقًا، كاشفًا عن حداثة سن، ورقة طبع.

تأملها فيليب قليلاً ثم أبلغ الكونستابل أن يصطحبها إلى المنزل، ليُقدمها إلى زوجته ماريا قائلاً:

- ستخدمين في البيت. تُنظفين الأثاث وتغسلين الملابس، وتساعدين مسز ماريا في الطعام ورعاية الطفل الصغير، وستقيمين لدينا.

هزت رأسها لأسفل، فواصل مُستبقيها بإشارة من يده:

- لن تخرجي من البيت إلا إذا طلبنا منك ذلك. لدينا مياه ولا نحتاج إلى جلب الماء كما تفعلون. وكل صباح تحضر عربة المستخدمين الأجانب لنا الخضراوات والفاكهة والدقيق. ستنامين في حجرة خاصة، وسنُعطيك جنيهًا كل شهر.

ثم قال وعيناه تلمعان:

- أهم شيء لدينا هو الأمانة. مفهوم؟

هزت رأسها موافقة، وحملت بُقجة ملابسها وحاجياتها، ومضت خلف الكونستابل حالمة بحياة أخرى، وأناس غرباء في كل شيء.

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

حسن أفندي الكاتب أيامًا طويلة وهو يبحث عن اثنين، الفتاة الرقيقة التي كان ينوي الاقتران بها، وأفلتت هروبًا من الرق المفروض عليها، وصديقه المتهور الحاد الذي صار خطرًا داهمًا.

ذهب حسن إلى سوق الخضراوات، والسبيل العمومي القريب من قصر عبد الغفار باشا شكري سائلاً ومحققًا دون جدوى. استفسر عدة مرات من شاكر أفندي سائق الباشا إن كانت نُزهة قد عادت إلى المنزل، فجاءه الرد مُخيبًا، وعلم أن صاحبة القصر مريضة بسبب ما جرى. ذهب بنفسه إلى مصلحة الرقيق، وسأل إن كانت لديهم بيانات عن فتاة باسم نُزهة، فقال له حارس المصلحة إن المديرة سافرت لقضاء إجازة عيد الميلاد في بريطانيا، وإنه لا يُمكن لأحد إخراج أي بيانات حال غيابها. في النهاية استنفد حسن آماله في العثور على صاحبة الوجه الصافي، والعينين العسليتين، وقاوم هواجسه أن تكون قد لجأت إلى باشا آخر، أو وقعت في براثن إمبراطور مملكة الليل، الذي تكاثرت بيوته ومقراته كحظيرة أرانب.

بعد مقتل فرانسوا شعر حسن برضا نفسي، مُقتنعًا بأنه نال النهاية التي يستحقها بعد دسائس ومؤامرات تورط فيها، ومُعتقدًا دون أدنى شك أن صديقه أحمد سليم هو المُخطط والمُنفِّذ في آن. ذهب إلى مقهى «متاتيا» مرارًا دون أن يجده، ومر على الحجرة التي كان يستأجرها في السيدة زينب، فأخبره جاره المُسن أنه ترك المكان مُنذ أكثر من شهر، ولم يجد بدًا من الذهاب إلى المدرسة الخديوية ليجد في انتظاره مفاجأة، مفادها أن صديقه مُنقطع عن العمل مُنذ شهور طويلة، وأنه تم رفده بناء على توجيهات ناظر المدرسة. احتار حسن وتحقق أنه أخفق في فهم أحد أقرب الناس إليه، والذي كان محل استشاراته، ومستودع أسراره.

في مقر شُغله جلس يُتابع الأخبار الواردة من الأستانة بوفاة الخديو إسماعيل، بعد ستة عشر عامًا من السياحة في المنافي بعيدًا عن نفوذه، وهيلمانه، وترفه. قرأ الوصية التي أبرق بها مُراسل الجريدة، والتي ترجى فيها أن يدفن في مصر. كان الخديو عباس قد سعى بعد توليه الحكم لدى السُلطان عبد الحميد، في إعادة جده للعيش في مصر دون استجابة، سواء من الخليفة نفسه أو حتى الإنجليز، أولئك الذين كانوا يرون في عودة الخديو المعزول بداية أزمة سياسية جديدة، خاصة أنه غزل بناء على رغبات الدول الأوروبية التي ضغطت السلطان لإقصائه. قرأ حسن كيف عانى الخديو من أمراض الالتهاب الرئوي والسرطان وتليف الكبد، فضلاً عن العزلة، والمُراقبة الدائمة، وهو يقبع في قصر «الأمركون» على ضفاف البوسفور. وقال له فارس نمر صاحب «المقطم»، إن الرجل بقي سنوات كاملة حبيس قصره لا يُغادره، فمنذ استعطف السلطان للعيش في بلاد المسلمين، بعد صفعات الجفاء التي واجهته في عواصم أوروبا، وهو مُقيد الحركة، لا يخرج دون إذن، ولا يُزار دون إذن، ولا يجد جديد دون أن تُذل نفسه لولي الأمر الأكبر. قالوا إن اشتداد المرض على الخديو المعزول دفعه لأن يطلب من السلطان السفر إلى مدينة «إمس»، للاستشفاء بمياهها المعدنية، لكن الرد كان موجعًا بأنه: «يمكن لك الذهاب إلى مياه بورصة المعدنية للعلاج، وسبق لك أن استشفيت فيها، وأعلنت وقتها أنها أفضل من حمامات أوروبا».

كان حسن أفندي صادمًا عندما قال لصاحب «المقطم»: إن الديون الباهظة، والسفه اللا محدود، وعبادة المظاهر التي اقترنت بالخديو السابق، كانت سببًا كافيًا لهذه النهاية المأساوية. لقد بنى الرجل قصورًا ومباني فخيمة، وشق ترعًا وأنشأ جسورًا وكباري، لكنه لم يُفكر يومًا في بناء الإنسان. حكى له أنه لما سافر الخديو إلى باريس في بدايات حُكمه تساءل الناس هُناك: ماذا يعني خديو؟ وما هي مصر؟ ففتح خزائنه لمنح كُل زائر الذهب والمال، حتى ظن الناس أنهم أمام ملك من ملوك ألف ليلة وليلة. ولما دُعي إلى وليمة أحد النبلاء في قصر رائع، سأل إن كان يُمكنه ابتياع القصر، فبالغ صاحبه في سعره عارضًا إياه بخمسة ملايين فرنك، فوافق الخديو على الفور، ثم شاهد ابنة صاحب القصر الصغيرة أمامه فحرر عقد البيع لها وسط ذهول الناس. ولما سافر إلى الأستانة أقام الولائم والاحتفالات للسلطان عبد العزيز، وأهداه خمسمئة بندقية من طراز «مارتيني هنري»، وقدم له طقم سفرة من الذهب الخالص، ومنح خمسة وعشرين ألف جنيه إنجليزي للصدر الأعظم.

فضلاً عن منح وهبات سخية لوزير الدفاع ولباقي الوزراء. كان كل هذا السفه مقابل قروض استدانها الرجل على حساب الخزانة المصرية، ما مهد لسيطرة الأجانب ومنحهم امتيازات بلا حدود، ثم استغلت تلك الديون لاحتلال مصر والسيطرة على مقدراتها وخيراتها.

وكان الخديو عباس حلمي قد أمر بتهيئة مقبرة لائقة لجده، إلى جوار ضريح الشيخ الرفاعي، أحد أكثر أولياء الله الصالحين زيارة من أصحاب الحاجات، بعد أن أبرق إليه الأمير أحمد فؤاد بدنو أجل الخديو السابق. وجهزت الحكومة الترتيبات اللازمة لاستقبال الجثمان، وشاع الخبر في شوارع ومقاهي مصر، فترحم البعض عليه، بينما تشفى آخرون.

وعلم حسن أفندي من فارس نمر صاحب جريدة «المقطم»، أن هناك أزمة مكتومة داخل عائلة الخديو الراحل؛ لأنهم اكتشفوا قيامه ببيع القصر العالي الذي تسكنه والدته إلى زوجاته الثلاث شهرة هانم، وجنانير هانم، وجشم آفت، وأن الخديو عباس، ذلك الشاب ذا العشرين ربيعًا، تدخل لتخصيص قصر آخر للوالدة باشا. لقد ذاعت حكايات عديدة حول مكائد ومخازي حريم العائلة الحاكمة، وكان حسن مقتنعًا أنهم مثلهم مثل الإنجليز مغتصبين لمصر، ناهبين لكنوزها، مستغلين لخيراتها. لا تعنيهم ككيان، ولا كوطن، ولا كأمة، وإنما هي في تصورهم مجرد أرض جميلة يخترقها نهر جميل وأصيل. كان يعي جيدًا أن الجهل المفعش في أدمغة البشر، والخرافات الحاكمة لفعالهم، والتدين الظاهري المفتعل الذي يسود المجتمع المصري، هي حصون الحكام الباطشين، سواء الخديو الحالي أو السابق أو الأسبق، حتى محمد علي باشا الكبير، وربما تبقى تلك الحصون قائمة إلى يوم يُبعثون.

فكر حسن كثيرًا أن عليه أن يجد أحمد سليم بأي طريقة، ليدعوه للهرب إلى السودان أو الشام. سيصلون إليه حتمًا وسيجدونه بسهولة، ولا مجال لمخاطرة جديدة. استغرق في تفكير محير ودعا الله أن ينجيه من الإنجليز.

***

مطارد خيرٌ من سجين، ومختبئ أفضل من معذَّب. هكذا قرر عندما سحب حقيبته وكوّر ملابسه وسافر إلى بلبيس طالبًا الفرار من الخطر. في غرفة ضيقة فوق سطح منزل شقيقه العطار، أقام لا يكاد يبين، مرجئًا فكرة تصفية القُبحاء، ومؤجلاً حُكم الإعدام على إبراهيم الغربي وخادمه وباقي الخونة وعبيد الأعداء.

كان أحمد سليم قد غادر بيت الخواجة فرانسوا آخر ضحاياه، محملاً بمال يكفي نفقته لعدة أشهر، لكنه اندفع في شرعة عجيبة مغيبًا بنشوة النصر لتنفيذ خطته لقتل عثمان الطوشي، ثم سيده إبراهيم الغربي. شعر أحمد بتأخره في تنفيذ العملية، التي سبق أن تعهد أمام صديقه حسن الكاتب بإتمامها قبل عيد الميلاد. قال لنفسه: «ما بال الأيام تفر أسرع مما ينتظر، وليست هناك فرصة للاقتراب سريعًا من شيطان الليل إلا باقتراف بعض الخطايا». زار مقهى السعادة مرتديًا جلبابًا جديدًا من الصوف الإنجليزي، وملمعًا بُلغته، ومهذبًا شاربه، ونافخًا طربوشه، ومتعطرًا بعطور تركية أصيلة، وشاهد حفلة الرقص الشرقي، قبل أن يهمس في أذن إحدى السحابات بكلمات ويدس في يدها بضعة ملاليم. استقبله عثمان الطوشي بابتسامة ترحيب مصطنعة، مكررًا عبارة «شرفتنا يا سيد الناس»، ومبالغًا في انحناءات التقدير والاحترام. ذلك العبد الأسود الكريه دائمًا يثير في نفسه الاشمئزاز والاستياء. ذكرته هيئة عثمان الطوشي بخليل أغا خادم الخديو إسماعيل، الذي تتحدث المجالس عن أمواله ونفوذه، وأنه عاش نصف عمره عبدًا مخصيًا يخدم في بلاط الأسرة الحاكمة، قبل أن يستحسنه الخديو إسماعيل ويمنحه أراضي وبيوتًا لا حصر لها، ثم يفيء عليه من خيرات المصريين حتى صار مثل قارون في الثراء والأبهة. طلب أحمد بيرة «كراون»، متماديًا في أداء دوره كواحد من الأعيان المُنفلتين، الباحثين عن البهجة لدى تاجر السعادة. شرب بطيئًا بالتذاذ ظاهري، بينما كانت عينا عثمان الطوشي تفحصانه فحصًا دقيقًا كأنهما ميكروسكوب حديث.

«من الذي يُمكن أن يخاف من أغا؟»، سأل أحمد نفسه، وهو يشاهد نبوية تتلوى يمينًا ويسارًا، وهي تُغني

بصوت مبحوح: «والنبي لأهشه يا العصفور».

انتهت نبوية من وصلتها ومسحت بمنديل أبيض عرقًا مُتصببًا فوق جبينها، وبدا الكُحل المنثور فوق عينيها سائلاً بسبب التعب. ألقت عيناها الفرهقتان نظرات وله مُصطنع، وهي تقول له بضحكة ماجنة: «أهلاً يا سيد الناس»، ومالت برأسها إلى الأمام لتُظهر ثديين متكورين يفيضان جمالاً وإثارة، ثُم وضعت ساقًا فوق الأخرى لتُظهر غري وركيها، وغمزت قائلة: «سنشرب معًا كأسًا من الشمبانيا، ونصعد لننام». ضحكا معًا ولامست بكفها الناعمة رقبته وصدره، وهي تُبدي إعجابًا شديدًا بوسامته وأناقة ثيابه. تبعها كقط حذر بعد أن منح غثمان عشرة قروش، صاعدًا على درج داخل المقهى ينتهي بممر طويل، يصل المقهى ببيت من بيوت السعادة، حيث مر على غُرف مرصوصة بانتظام على جانبي صالة، جلست فيها عدد من النسوة، وفتحت نبوية إحدى الغرف، لتدلف باعتيادية، وتتمدد في آلية على كنبة سوداء تتوسط الغرفة ذات الشباك المغطى بستارة كُحلية، وشمعدان مُعلق على الجدار المقابل للباب. وسريعًا خلعت نبوية بذلة الرقص التي كانت ترتديها، ثُم سراويل قصيرًا، وصديرية بُنية لتبدو أمامه كتمثال إغريقي باهر. تذكر أحمد مومسات أخريات بقدود مُترهلة ووجوه كالحة، وروائح عفنة، سبق أن التقاهن في خفر وش البركة أيام الفقر المدقع، بعد شهور قليلة من كسرة غرابي قبل اثني عشر عامًا، وتيقن من صحة المقولة التي تعلمها صغيرًا في الكُتاب بأن: «الغالي دائمًا يستحق ثمنه». جذبته نبوية إلى مروج من الفتعة، فارتشف مُعتذرًا لضميره بعظم غايته، ومُتذرعًا بضرورة الإتقان للوصول إلى غايته كمُجاهد ضد الكفرة والمُفسدين.

في الليلة التالية حرص على تكرار الزيارة، وقصد نبوية التي بدت حائرة العينين، ومهمومة النفس، رغم الابتسامة المرتسمة على وجهها. منحه غثمان الطوشي ابتسامة ترحيب، وأبدى إعجابه بالغليون الجميل الذي يحمله بيمينه، وسأله في خُبث إن كان يبيعه، لكن أحمد اعتذر بأنه غالٍ عليه، لأنه هدية من صديق عزيز. فكر أحمد وقتها أن يدعو غثمان لمشروب على حسابه، ليدس له السم الذي يسكن حُقًا صغيرًا في محفظته، لكنه تراجع مُفضلاً التريث حتى يأمن له غثمان أكثر.

في الغرفة وبعد ساعة من التشابك والتوحد مع جسد نبوية الدافئ، قرأ حُزنًا مُتدفقًا من وجهها، وصدمته المفاجأة وهي تهمس له في أذنه: «اهرب يا سي أحمد. اهرب. إنهم يعرفون كُل شيء».

بين الموت والحياة لحظات، وكثيرًا ما تدفع الأقدار بعض الناس بعيدًا عن الخطر دون أفعال يقصدونها. هكذا خلص حين أخبرته نبوية أن غثمان سيقبض عليه بعد قليل، ليُسلمه إلى البوليس بتهمة قتل الخواجة فرانسوا. شعر أحمد بالغباء لأنه ترك في جيبه غليون الخواجة القتيل، والذي يعرفه كثير من الناس لتميزه بنقش برج إيفل، وكان يمكن استخدامه كدليل ضده. في منزله أيضًا مُسدسه الذي أرهب به ضحيته، وخنجره الذي غرسه في صدره. سألها في حيرة عما دفعها لأن تُخبره بحقيقة ما يجري، فأجابته بوجه يملأه الحيرة بأنها لا تدري، ثُم قالت في حُزن:

ـ رُبما هي دعوة أمك، أو دعوة مسكين ساعدته يومًا فادخرها الله لك ليوم شدة.

تعجب من ردها، وقال لها ساخرًا:

ـ لم أكن أتصور أنك تعرفين الله.

ابتسمت ورددت:

ـ لست شيطانة كما تتصور. أنا مجبورة على ما أنا فيه، عبدة، جارية، ليس لي من أمري شيء. المهم. يجب أن تهرب بجلدك. بسرعة.

ـ هل سيؤذونك؟

سألها وهو يرتدي ملابسه، فأجابت ببرود:

- لا. سأخبرهم أنك جرحتني بموسى وأنني ضربتك فخرجت هاربًا.

لم يفهم أحمد، لكنها سحبت جلد مؤخرتها بموسى أخرجته من جانب الكنبة السوداء، لتنزف قطرات من الدم فوق ثيابها، قبل أن تجهش ببكاء مرير بصوت عالٍ أقرب للصراخ.

هبط أحمد سريعًا من سلالم البيت دون أن يمر بالمقهى، لمح فتيات سمراوات يضحكن، ورأى أحد الرجال المخنثين يلف سجائر في صينية واسعة، وشاهد سيدة بدينة تضع قمصان نوم حريمية في طشت كبير، وأخرى ترسم وشمًا لفتاة نائمة على حجرها. في الدور الأول أبصر أحمد عينين لامعتين لفتاة سمراء ممشوقة القوام، ترتدي جلبابًا مُمتلئًا بالخرز والترتر. رنت الفتاة إليه باهتمام مُبالغ، قبل أن تصيح بصوت عالٍ: «أمسكوا القاتل. أمسكوا المجرم. أمسكوه»، فضاعف أحمد من عزمه وركض كجواد عربي أصيل، وحمل ثلغته وأفلت من عيون خدم البيت، الذين هرولوا استجابة لصيحات الفتاة التي كانوا ينادونها حوا. بجسد ضئيل وخفيف نجح أحمد في الفرار من عبيد وخدم إبراهيم الغربي، واختفى عن أنظارهم ليذهب إلى منزل صغير كان يستأجره في حي المغربلين، حيث جمع حاجياته وملابسه ودس مُسدسه في شق بالجدار المجاور له، ثم أخذ معه الخنجر واختفى تمامًا.

في منفاه الاختياري بمدينة بلبيس حلّ كضيف على شقيقه مُحملاً بالهدايا، موقنًا بأن ما لديه من أموال غنمها من ضحاياه، يُمكن أن تكفيه وتساعده على الابتعاد عن القاهرة لشهور قليلة، حتى يعود بعد ذلك إليها مُستكملاً تنفيذ الأحكام.

***

أمام المرآة جلست أم الحسن تُغطي رذاذ الشيب المرشوش على حاجبيها، مُعلنًا أفول أنوثة تُركية كانت يومًا مضرب الأمثال بين عُشاق الجمال. رسمت بقلم كُحل صغير خطين عريضين فوق عينيها، مُتأسفة على شباب ولى في بلد تحاكى باشاوات ونُبلاء الأستانة بروعته وطيبة أهله، قبل أن تأتي إليه فتصدمها الكآبة الطاغية بين الناس. قالت لنفسها إن زمن الخير والنُبل ولى دون رجعة، بعد أن هبط الجراد على تركة الرجل المريض، ليقتطع منها بلدًا خلف آخر، وتتحول الخلافة العُثمانية إلى مُجرد اسم بلا أفعال. في البداية استولى البريطانيون على عدن، ثُم نزل الفرنسيون أرض الجزائر قبل عقود من ابتلاعهم لتونس، ثم تدفقت جيوش أوروبا لتأكل خيرات بلاد المُسلمين دون رادع أو مانع.

انتابتها حالة من الحُزن الشديد بعد هروب نُزهة، تلك المُتمردة الغادرة، التي رأت أنها لم تحفظ لها جميل حُسن المُعاملة لنحو ثلاث سنوات. تذكرت أنها دفعت فيها قيمة خُلخال أصيل باعته مللاً. كيف استحلت هذه الجارية أن تُحملها خسارة ثمنها دون تأنيب ضمير أو لوم نفس؟ هكذا سألت نفسها وهي تُسرح شعرًا مُخضبًا بالحناء، راصدة تجعدًا وشحوبًا غزا جيدها وامتد إلى جلد الوجه.

لم تعُد أم الحسن ترى الباشا كثيرًا مثلما كانت، ففي الظهيرة يأتي ليجلس في مكتبه ثُم يخرج مرة أخرى إلى النادي اليوناني، أو لزيارة أي من أصدقائه من الباشاوات، ولا يعود إلا في الساعة الواحدة صباحًا بعد أن يزورها وهن الانتظار. لم يعد يتحدث الباشا كثيرًا ولا يُبدي أي مُلاحظات على ملابسها، أو زينتها، أو حناء شعرها، وحتى عطرها الذي كان يُجن به في بداية زواجهما لم يعُد يميزه. لا يكترث الباشا لكثير من الأمور، فلا يطلب طعامًا بعينه كما كان يفعل، ولا يسأل عن أخبار شقيقاتها في الإسكندرية وإسطنبول، ولا يهتم بابتياع تُحف جديدة كما اعتاد من قبل. حتى الصُحف التي يجلبها معه يتركها في الغالب بتكويرها نفسه دون قراءة، ولا يتناقش معها في أهم الأخبار.

شعرت أم الحسن أن المساحة المشتركة التي تربطها بزوجها تضيق رويدًا. كانت نُزهة فرصتها الأخيرة لإثارة الباشا، وتوريطه في إشباع حاجة جسد مُترهل، بدأ ينسحب من قدراته ومميزاته تدريجيًا. ربطت السيدة الفطنة علاقتها الجسدية مع الباشا برشفات مُمتعة، من جارية صغيرة السن، رشيقة القوام، ناعمة

الجلد، مثيرة المفاتن، تُمنح له كمكافأة أو تعويض أو مُتمم للنوم معها.

مدت ملقاطًا من النحاس لتقبض على شعيرات صفراء قصيرة، توزعت على وجنتيها، وتذكرت سنوات الترف والأبهة والدلال في قصر والدها على ضفاف البوسفور. كان الخدم يقفون صفًا، وكانت الجواري مضطجعات نصف عاريات في صحن البيت، تعزف أياديهن ألحانًا عذبة، لتتراقص اللوحات الباهرة والتُحف الثمينة المرصوصة يمنيًا ويسارًا بجمال متحفي.

سمعت أقدامه صاعدة على درج القصر الخشبي. تهيأت لقدومه بابتسامة مرسومة على شفتين مكرمشتين، سكبت نصف زجاجة الياسمين على صدرها ورقبتها، وشدت قميصها الشفاف قليلاً لأسفل، تبيانًا لكل شيء. حياها سريعًا واضعًا طربوشه على طاولة الغرفة مبديًا تعبًا ظاهرًا، وهو يخلع أزرار حلته السوداء واحدًا بعد آخر.

- الجنازة حارة.

قالها وهو ينظر في المرآة على بقايا أناقة وحسن بدأت بالانسحاب. ثم ألقى بجثمانه الثقيل فوق السرير قبل أن يواصل:

- تصوري يا هانم. كل مَن سار في جنازة الخديو إسماعيل اليوم كان يشتمه. رجال القصر، والوزراء، وضباط الجيش، والقناصل الأجانب، وباشاوات مصر، وحتى الشعراء الذين نالوا من ذهبه.

- هكذا الدنيا دائمًا يا باشا. الناس بلا سلطان عبيد. لا يهتم بهم أحد، ولا يلتفت إليهم أحد.

قامت من أمام مرآتها لتجلس إلى جواره كاشفة نصف فخذ سمين، وقالت:

- أنا مُكتئبة يا باشا.

أجابها في برود:

- لِم؟

فقالت:

- بعد هروب البنت ناكرة الجميل شعرت بوحشة شديدة، وتألمت نفسي كثيرًا بسبب الخيانة والغدر. ورغم أنها لم تكن تفعل شيئًا مُهمًا في البيت فإنها كانت موضع تسلية وونس، خاصة أنك لا تبقى كثيرًا في البيت.

اشتم الباشا رائحة لوم، فبادر:

- أنت تعرفين مشاغلي الكثيرة. أدير عزبة، وأعمل في السياسة، وأشارك في وضع القوانين الجديدة، وكل هذا يجعلني أنفق أي وقت راحة في النوم. مَن لا يعمل ما أعمله تنتهي به الحال إلى التواري والضياع. ألم تقولي للتو إن الإنسان بلا سلطان مثل العبد؟

- لا ألومك يا باشا. لكن ما فعلته نُزهة ملأني غيظًا، وأشعر أن أحدًا أغراها بالهروب ولا بد أن أعيدها.

امتعض قليلاً لذكر سيرة الجارية، وقال لها في صرامة:

- انسي موضوعها. نحنُ لا يُمكننا أن نعيدها. على الأقل الآن. ابتياع الجواري وامتلاكهن صار ممنوعًا بحكم القانون. ألم تعرفي ما جرى لعلي باشا شريف، وللشواربي باشا بعد أن اشترت زوجاتهما جواري؟

- أعرف. لكن الأمر معنا يختلف. لقد كُنا نُحسن إليها ونُعلمها الذوق والآداب، ولم نضربها مرة واحدة. لقد كان أبي يجلد العبيد والجواري كل فترة حتى لا يتمردوا، ونحن لم نفعل ذلك مرة واحدة.

- الزمن تغير.

قالها وهو يزيح ذراعها الملتفة حول رقبته، ثم قال:

ـ أمور البلد مُقلقة جدًا. هناك حركة تمرد بين كثير من الشباب، والأيام الأخيرة شهدت حوادث قتل لبعض الأجانب، والأثرياء. والصُحف تزخر بكتابات محرضة على العنف باسم الوطنية، وتثار بين الحين والآخر مطالب باستقلال مصر حتى عن الدولة العثمانية.

ـ ياااه. عشنا لنرى زمن انقلاب المبادئ.

تبسم الباشا في برود وهو يقول:

ـ آخر تقاليع الشباب هي مطالبة الناس بإنشاء مدارس كثيرة للفتيات، للتعلم والكتابة والاشتغال.

مصمصت شفتيها مُتمعضة، وقالت:

ـ هذا زمن غابر.

صمتت لحظات، كأنها تذكرت أمرًا فاقتربت منه، وقبلته في رقبته قبلة باردة، وألقت ذراعها حول عُنقه، لكنه مرة أخرى أزاحها بهدوء، وقال لها:

ـ نامي يا هانم. أنا مُتعب من السير في جنازة الخديو إسماعيل. ذلك الرجل الذي أتعبنا حيًا وميتًا.

وأغمض عينيه مُتظاهرًا بالإنهاك.

***

ليست سيدتها. هكذا قررت نُزهة عندما التحقت بخدمة حرم الضابط فيليب. هي تعمل لديها فقط، وما تطلبه منها مقصور على واجبها كمربية لطفل صغير ما زال في المهد، وكمساعدة لها في أعمال المنزل. راقتها صُحبة السيدة ذات البشرة البيضاء، وأعجبت بجمالها الغريب، واندهشت لجرأتها وقوة شخصيتها، وخضوع الضابط ذي العينين الزرقاوين لها. رضيت بالإقامة في البيت طوال الأسبوع، وتنازلت عن إجازتها الفقررة، لأنها كما أخبرت مخدومتها مقطوعة من شجرة.

في اللقاء الأول معها بعد التحاقها بالعمل طمأنت السيدة مارجريت على نفسها، وأفهمتها أنها قادرة على استيعاب طلباتها بالإشارة، فضلاً عن تعرفها بضع كلمات إنجليزية، مثل: « شُكرا»، و«صباح الخير»، و«مساء الخير»، و«أهلاً».

مع الوقت بدأت نُزهة متـابعة جرائد إنجليزية يُحضرها فيليب معه كل مساء، وتمكنت رويدًا من تعرف بعض الكلمات الإنجليزية الأخرى.

كانت ماريا هادئة، مُتبسطة، مُبتسمة دومًا ومُقبلة على الحياة، ولا تشعر مَن معها بالتكبر أو الاستعلاء، بينما كان فيليب باردًا وصامتًا مُعظم الوقت، وكثير التغيب عن البيت صباحًا ومساء. شجعت ماريا نُزهة على التعلم، وأبدت تعاطفها معها عندما أفهمتها نزهة أنها ترغب في تعلم القراءة والكتابة بالإنجليزية.

بدت الحياة بالنسبة إلى الفتاة المُقبلة على العقد الثالث قابلة للتغير، ونمت في رأسها فكرة الزواج والأسرة والحب الجميل. أعجبها أنها صارت للمرة الأولى في عمرها القصير حُرة في أن تختار، وتُقرر، وتقبل، وترفض، وتُجادل، وتُناقش. سعدت أنها مصون بحكم القانون، وأنه ليس لأحد أن يعبث في صدرها أو يتحسس مؤخرتها، أو يُقبلها رغمًا عنها.

منحتها ماريا جلبابين من القُطن، وقميصًا حريريًا ناعمًا، وحذاءً من الجلد، وأتاحت لها الاستحمام كل يوم، والتعطر بعطرها، والتكحل بكحلها، وتسريح شعرها، قبل أن تبدأ في الساعة السابعة صباحًا يومها بتجهيز الإفطار المكون من البيض والعسل والجبن والشاي. بعد تناولها الفطور جالسة إلى مائدة المطبخ، تذهب نُزهة إلى الطفل الصغير جون لتتحسس ثيابه، وتُنظفه، وتحمله إلى أمه لترضعه، ثم تتلصص على قُبلة مُعتادة

https://t.me/riwaya2025

يطبعها فيليب على خدي زوجته، قبل مغادرته إلى العمل، بعد ذلك تستمع لمقطوعات مدهشة من الموسيقى الغربية التي تحرص ماريا على تشغيلها، من خلال آلة عجيبة تقبض على أقراص معدنية غريبة. ثم تقوم بترتيب فراش الزوجين، وتفتح النوافذ لأشعة الشمس، لتلقي بدفئها ونورها وحيويتها على البيت الجميل، المزينة جدرانه بلوحات فنية باهرة. ثم تعود ثانية لهدهدة الطفل، وتضعه في فراشه للنوم مرة أخرى، وتُقبل على تقشير البطاطس أو عصر الطماطم، وتقطيع الخضراوات واللحم والدواجن، قبل أن تطهو السيدة ماريا الطعام بيديها. في المساء تُتابع الطفل وهو يلعب في سريره، وتغسل ثياب العائلة، قبل أن تجلس لتقرأ كُتبًا وصُحفًا يجلبها إليها فيليب خصوصًا بناء على طلب زوجته.

في يوم أبصرت نُزهة مخدومتها تجلس مُغمضة العينين، وتتحدث بصوت هامس، فسألتها عما تفعل فردت بأنها تُصلي، وتدعو الله أن يحفظ وليدها، ثُم سألتها إن كانت تُصلي كمسلمة فردت بأنها شاهدت كثيرين يُصلون، لكن أحدًا لم يُعلّمها الصلاة. قالت لها ماريا إنها لا بد أن تفعل، لأن الله يقبل صلاة البشر جميعًا باختلاف أديانهم وألوانهم.

لاحظت نُزهة على ماريا أنها رغم رقة مشاعرها مُحبة للحياة بدرجة لا توصف، تقتني المجوهرات، وتُعجب بالتُحف واللوحات، وتهتم بحياكة فساتين باهرة لدى خياط يوناني شهير يتعامل معه معظم الأجانب.

حلمت نُزهة بأسرة صغيرة مُشابهة، وبزوج هادئ الطباع يحترمها، وبيت بسيط يملأه الحب والسرور، وبواقع أكثر راحة بال بلا سيد ولا مُتحكم ولا خوف. وترحمت على أمها التي عاشت ثُلث قرن مجبورة، ومُسيرة، ومُساقة، وتمنت لو قُدرت لمأمونة حياة أطول لتراها حُرة، تعمل بأجر، وتُعامل باحترام.

كانت الحياة في نظرها أجمل وأروع وأطيب، فلا شك أن قهر السيدة أم الحُسن لها، وتحرش عبد الغفار باشا بها بين الفينة والأخرى، وتقتير الطعام، والنوم على الحصير، ورتابة العمل وشدته عندما كانت جارية، لا يُمكن مُقارنته بما آلت إليه حالها بعد منحها الحُرية، وتشغيلها في بيت الضابط الإنجليزي، إلا أنها مع ذلك كانت ترنو إلى سعادة أكمل، قوامها الحُب والاستقرار.

عرفت نُزهة في بيت فيليب أن هُناك أقوامًا آخرين يلبسون ملابس غريبة، ويضعون فوق رؤوسهم قُبعات جميلة، ويلفون حول أعناقهم أربطة متنوعة الألوان، ويتحدثون أحاديث عجيبة، ويتقنون الابتسام ويتسمون ببرودة الأعصاب، ويتعاملون بلطف شديد مع زوجاتهم. في الحفلات النادرة التي كانت تُقيمها السيدة ماريا، عرفت نُزهة أن هؤلاء الأغراب أقوى من جناب الخديو الذي سبق أن قرأت عنه في الصُحف، بل أقوى حتى من السُلطان عبد الحميد سُلطان المُسلمين أجمعين، وأنهم يتحكمون في كُل شيء في البلاد، بدءًا من النيل وحتى المدارس والشوارع التي استحدثوها. علمت الجارية التي نالت حُريتها مؤخرًا أن هؤلاء الأقوام يسمون المحروسة بالمستعمرة، وأنهم يعتبرون كُل من فيها جُهلاء وأشرارًا ومتخلفين، وأنهم وكلاء لنقل المدنية والتحضر إليه. وبينها وبين نفسها أقرت نُزهة بصحة ذلك الفرض عندما تذكرت جبروت أم الحُسن، وتوحش زوجها الباشا، وبؤس مأمونة، وانحلال الجارية نبوية، وسوء أخلاق أهل البلد من الباعة والسقائين، لكنها عادت فتذكرت حسن أفندي الكاتب، وحديثه الهادئ معها، وقوله لها إنها حُرة، وإنه لا سيد لها، فأبت ابتلاع الفكرة تمامًا. وخلصت نُزهة بعد تفكير طويل إلى أن المصريين ليسوا جميعًا أشرارًا، ولا يستحقون كلهم أن يستعبدهم أقوامٌ آخرون ويتحكموا في أرزاقهم ومعايشهم.

كانت ملامح حسن أفندي ترتسم في ذاكرتها كنموذج باهر لرجل يحترم الإنسان، ويرى أن له حقوقًا. ذلك الوجه ينضح بالخير والأمل ويبشر بطيب المعشر وزقي المعاملة. قالت لنفسها، قبل أن تُخبر ماريا عندما سألتها إن كانت أحبت أحدًا، إنها واقعة في غرامه وإنها مُعجبة به، وتتمنى أن تلقاه مُجددًا. تسارعت نبضاتها وغزا الدم عروق وجهها، عندما قالت لها حرم الضابط إنها ستساعدها كي تصل إليه.

لم تكن فتاة بيت لحم البريئة وقتها على علم أنها عندما هربت من العبودية والقبح، أفلتت من الاقتران بفارس أحلامها الوحيد.

***

قضمت شفتاه الغليظتان قضمة لذيذة من ثفاحة حمراء التقطها من صحن فضي مربع، موضوع أمامه، قبل أن يسأل في غضب:

ـ كيف أفلت منك ذلك المجرم؟

ثُم واصل رافعًا صوته الأنثوي:

ـ ولد قاتل يخنق الأجانب، ويسرق أعيان البلد، ويأتي برجليه إلى بيتنا ثُم نفقده. عدو الإنجليز الهارب الذي ذبح الخواجة فرانسوا يفر من بين أيدينا؟ كيف ذلك؟

فكر غثمان الطوشي قليلاً قبل أن يجيب سيده الأسود، ثُم قال وهو يضغط كُل كلمة:

ـ كان يبدو صيدًا سهلاً، وكان تحت عيني حتى اللحظة الأخيرة، وأتصور أن هُناك واشيًا.

هز إبراهيم الغربي ساقًا موضوعة فوق الأخرى وواصل التهام تفاحته، ثُم سأل في خُبث:

ـ هل تشك في أحد يا ولد؟

أجاب الولد الذي شاب كثير من شعره في برود:

ـ نعم سيدي.

ثُم صمت قليلاً كأنما يمنح إبراهيم الغربي فرصة اختبار حدسه، قبل أن يضيف:

ـ نبوية لذة.

وأردف:

ـ لا بد أن يكون الولد قد راقها فخانتنا.

ابتسم إبراهيم ابتسامة ثقة وسأل عبده دون أن يوقف اهتزاز ساقه:

ـ هل فتشت حاجياتها؟

هز غثمان رأسه موافقًا، فكرر إبراهيم سائلاً:

ـ ماذا وجدت؟

ـ لا شيء يتعلق بالولد المجرم. قروش قليلة وسجائر متنوعة وزجاجة عطر صغيرة، وقصاصات من تصاوير للست ألمظ مقصوصة من بعض الصحف.

توقف إبراهيم عن مضغ تفاحته ثم سأل:

ـ إذًا لماذا تشك فيها؟

لمعت عينا العبد الخصي الذي يفهم سيده وقال مبتسمًا:

ـ عيناها خائفتان. نظراتها تفضح سرها عندما تقف أمامي. تتلجلج وتتلعثم وتبتعد سريعًا كأنها تنتظر استجوابًا. بالطبع لم أقل لها شيئًا ولم أسألها، لكن عينيها حكتا كُل شيء.

تذكر غثمان كيف وقف ذلك الموقف مرارًا وهو عبد صغير بعد أن بتروا دليل رجولته، وألقوا به في قيظ الصحراء بين الحياة والموت. كانوا يبتسمون في برود مُستعذبين أوجاعه التي لا يُمكنه وصفها، بينما كانت بذور الكراهية تنغرس في قلبه لكل إنسان على أرض البسيطة.

ـ الخوف فضاح يا سيدي.

قالها لإبراهيم الذي توقف عن هز رجليه عندما دخلت حوا، تُخبره بصوتٍ هامس أن الخواجة صاروفيم بالخارج، ينتظر الإذن بالدخول. هزّ إبراهيم رأسه مُجيبًا والتفت إلى عثمان قائلاً:

ـ راقبها جيدًا. لو شعرت بأي نية للهرب احبسها في بدروم الغورية حتى نُقرر أمرها. يبدو أن حناني ورأفتي ستسببان لي مشكلات صعبة.

دخل الخواجة صاروفيم ذو الشعر المتهدل، والنظرة الزائغة بصُحبة حوا مُحييًا الحضور في تذلل بادٍ، قبل أن يُمسك كف إبراهيم الناعمة ويصافحه دون أن يتحرك إبراهيم من مكانه. كان من الواضح أن الرجل المدعو بالخواجة صاروفيم زار بيت إبراهيم عدة مرات من قبل، حتى إنه لم يلتفت كما فعل مرارًا بنظرات الإعجاب إلى اللوحات الفنية الجميلة، التي زينت الجدران، والتحف والأثاث الأوروبي البديع المرصوص بذوق رفيع داخل البهو، ثم قال لإبراهيم:

ـ سيدي. جمعت كُل شيء عن الولد المُجرم.

ثم أخرج ورقة من جيبه، ونظر إلى إبراهيم الذي ابتسم ابتسامة انتصار، مُتذكرًا عطاياه وهداياه التي أغرقه بها، مُنذ أعلن في جلسة شكر جُر إليها استحقاق عشيقته أسما للقتل، بسبب خيانتها لولي نعمتها، وقرأ بصوت عالٍ:

ـ أحمد سليم. مُدرس بسيط، درس بالجامع الأزهر، شرقاوي متعصب، شارك في هوجة عرابي، وثارت شبهات حول تورطه في فتنة الإسكندرية، وحوكم وتم حبسه ثلاثة أعوام، وخرج من السجن ليعمل مُدرسًا للغة العربية.

سحب قليلاً من الأوكسجين وواصل قائلاً:

ـ يجلس كثيرًا على «متاتيا» بصحبة بعض التجار والأفندية، ويراه الناس كثيرًا وهو يحمل في يديه جريدة «المؤيد»، وهو رغم حُسن هندامه ويسر أحواله، فإنه لا يشرب الخمر ولا يصاحب فتيات الليل، لكنه في الآونة الأخيرة شوهد مرات عديدة في بار الخواجة يني، وسكن عدة حجرات صغيرة، كانت أخراها في حي السيدة زينب، قبل أن يتركها ويسافر قبل أيام. جيرانه يقولون عنه إنه كان غريبًا وسخيًا، وإنه كان يغيب لأيام طويلة قبل أن يظهر فجأة.

ـ هل يعرف أحد من أي بلاد الشرقية هو؟

ـ نعم. بلبيس.

ـ أي عائلة؟

ـ لا أعرف. من الواضح أنها عائلة فقيرة غير معروفة.

ـ إذًا كيف نصل إليه؟

ـ بالتأكيد يمكننا أن نعرف طريقه إن دفعنا أموالاً لشيخ الحارة أو بعض الجيران.

ـ افعل.

هز إبراهيم رأسه وأشار إلى حوا إشارة ذات مغزى، مدت على أثرها بعشرة قروش كانت بين أصابعها إلى الخواجة، الذي لم يكترث لنظرات احتقار منحها إياه عُثمان الطوشي، فواصل قائلاً:

ـ هُناك شاب أفندي أسمر اللون مُهندم الملبس، وحليق الوجه، سأل عليه قبل أيام، وقد تتبعه أحد الصبية بناء على توصيتي وعرف أنه يعمل كاتبًا في جريدة المُقطم.

- عظيم. ما اسمه؟

سأل إبراهيم وهو يُشخشخ أسورة يمينه بعصبية، فأجاب صاروفيم:

- حسن أفندي.

ثم قال بعد أن لمعت عينا عثمان:

- إنه يبحث عنه هو الآخر. يبدو أنه خطير جدًا.

ابتسم إبراهيم في غرور، ثم قال موجهًا حديثه إلى عثمان:

- جر رجليه إلينا. يبدو أنهم جماعة، وربما سيدفع الإنجليز كثيرًا جدًا ثمنًا لهم.

***

أسعده النبأ. انتدابه للعمل في إدارة العمل السري دليل كفاءة ورضا قياداته، ربما يكون أيضًا نتاج توصية من صهره الثري، وصاحب النفوذ الكبير في لندن. انتقل فيليب إلى مكتب الوكالة السرية في قصر النيل، قبل أن يُكمل عامين ضابطًا في قسم الأزبكية.

في مكتبه الفخيم جلس يُراجع خطط الإدارة لمواجهة النشاط الوطني المتشدد، خاصة في ظل الاعتداءات المتكررة على بعض المستخدمين الإنجليز والأجانب. رصد فيليب جميع الشخوص الذين حوكموا مع العرابيين، لتورطهم في حوادث اعتداء على أجانب قبل عقد ونصف، وأعد ملفًا عن كل شخص متتبعًا تقلبات حياته، وتطوراتها. حدد الضابط الشاب نحو ١٣٥ شخصية بين ضباط سابقين، وخُطباء، وفتوات، وعُمال مصانع، وأزهريين، وتُجار وعربان، كعناصر خطرة يُمكن تورطها في أعمال عُنف. كما أعد أيضًا كشفًا بأسماء مُجرمين، وقُطاع طُرق، ولصوص يسكنون الصحارى وكهوف الجبال، لوضعهم ضمن قوائم المطلوبين للعدالة.

وضع فيليب اسم أحمد سليم ضمن الشخصيات الخطرة، مدفوعًا باختفائه المفاجئ عقب حادث قتل الخواجة فرانسوا، وشهادة إبراهيم الغربي التي أكد فيها رصد خادمه للرجل وهو يراقب الأجانب، فضلاً عن اكتشافهم لغليون الخواجة المقتول معه، في إحدى الليالي التي قضاها في أحد بيوت السعادة. كذلك أفادت التحريات أن المطلوب سبق اعتقاله في حوادث اعتداء على أجانب إبان الثورة العرابية. حصل فيليب على إذن من النيابة للقبض عليه، واتجهت قوات من الشرطة إلى منازل أشقائه في الجيزة وبنها وبلبيس، دون أن يعثر له على أثر. قال شقيقه في بلبيس إنه زاره للمرة الأخيرة قبل نحو عامين، وإنه لم يره مرة أخرى، وقال باقي أشقائه ومعارفه إنهم لم يروه مُنذ عشر سنوات.

استحسن فيليب ما فعله على مدى الأيام القليلة الماضية من عمل. كان قد أعاد تخطيط إدارة مكافحة الإرهاب المصري، من خلال إنشاء إدارة لوضع دراسات لرصد سلوك المصريين، وعاداتهم في القُرى والنجوع المختلفة. أخذ فيليب ببعض التوصيات التي خلصت إليها دراسات سابقة، كتبها اللورد كرومر المعتمد البريطاني، عن كيفية استغلال الجهل والإيمان بالخرافات في السيطرة على عقول الناس، فضلاً عن بث بذور الفرقة بين المصريين، مسلمين ومسيحيين، وبحاروة وصعايدة، وأولاد بلد وأتراك، من خلال مقالات بالصحف، وخُطب بالمساجد، وأحاديث الناس على المقاهي.

إن بقاء علوم الأزهر على ما هي عليه من إغراق في الشطط والتخلف، أمر ضروري لخلخلة العقول والهيمنة عليها، لذا فإن توصيته بتحريض شيوخ وطلبة الأزهر ضد مُخططات الإصلاح، التي يُنادي بها الشيخ محمد عبده من تعليم الطلاب لعلوم الدنيا من طب، ورياضيات، وفلسفة، ومنطق، ولغات أجنبية يجب تفعيلها بكل جهد. قرأ الضابط الشاب تقريرًا عن ضيق الخديو عباس بأفاعيل الشيخ محمد عبده، وإصراره على تنقية عقول الأزهريين وتحسين علومهم. فيما سبق كان خديو مصر قد أبدى إعجابًا بالشيخ عقب عودته من المنفى، وشكا إليه استئثار الإنجليز بكل شيء، ورغبته في السير بالعدل والإصلاح، وإرضاء العباد، وقال له الشيخ

إن هناك ثلاث نواحٍ بعيدة عن تدخل الإنجليز، ولا يستطيعون معارضته في إصلاحها؛ وهي الأزهر والأوقاف والمحاكم، وقدم بالفعل مذكرة بذلك، لكن عيون الإنجليز ورجالهم في القصر أوغروا صدر الخديو على الشيخ، مُدعين أنه يسعى لتقليص نفوذ الخديو، ونزع سلطاته في منح الكسوة والعطايا للشيوخ الطائعين.

وضع فيليب تصورًا حول ضرورة استغلال بعض العناصر الإجرامية، التي يُمكن السماح لها ببعض التجاوزات، مقابل العمل كعيون للمخابرات في تتبع أعمال العنف، والإيقاع بأصحاب الآراء والأفكار المعادية لدولة بريطانيا العُظمى. إن قراءة سريعة للتاريخ المصري تؤكد أن الحكام الأقوياء كافة، مارسوا تلك الأفعال لوأد ثورات الشعب في مهدها.

الشائعات سلاح مُهم أيضًا للتغرير بذوي التوجهات الرافضة للاحتلال، خاصة أولئك الذين يلتفون حول الخديو عباس حلمي، مُتحصنين بسُلطانه، ومُستبشرين بقدرته على تحدي البلد الذي لا تغرب عنه الشمس.

كان فيليب يعلم أن بعض الكُتاب وأصحاب الصُحف يحصلون على عطايا شهرية ثابتة، لتمجيد مولاهم، والإشادة بسجاياه، والكتابة الدائمة عن عدله ونبله وجرأته في مواجهة الاحتلال. قال لنفسه إن الشيخ علي يوسف، والشاب مُصطفى كامل لا يمثلان خطرًا حقيقيًا على بريطانيا، وإنما الخطر الفعلي يتمثل في الأفكار المُتحررة وغير المُعتادة، التي يُقدمها محمد عبده وتلامذته. فكر قليلاً في أن كُل ما يريده الخديو هو أن يبقى على عرش العزبة، التي ورثها عن والده، بصرف النظر إن كان حاكمًا فعليًا أو شكليًا عليها. إن تحليل شخصية الخديو يؤكد أنه شخص مُتكبر، باحث عن بطولة، ومُحب للمال والنساء بلا حدود، وهو شخص شديد القلق، متوتر، يخاف بشدة إن شعر بإمكانية تكرار ما جرى لجده معه. من هُنا يُمكن السيطرة عليه. هكذا خلص وهو يجلس يرتشف قهوته الصباحية في تلذذ، يليق برجل يعمل في الشرطة السرية.

قال لنفسه إن هذا العمل يُحبه، يستمتع به، يُقبل عليه، يُشعره بتفرده وذكائه، يُنشط خلايا مُخه، ويُحرره من حالة السأم والروتينية التي ينخرط فيها رجال الشرطة. العمل المُخابراتي عمل مُهم يُغير أحداثًا، ويُبدل أنظمة، ويُقيم دولاً ويُسقط أخرى، وتلك هي لذته العظيمة.

تذكر فيليب أن يوزع صورًا لأحمد سليم على مخبري الشُرطة السريين كافة، وشيوخ الحواري والفتوات الموالين، للإيقاع به في أقرب وقت، وتذكر كيف قرأ عن اختفاء عبد الله النديم عن الأنظار عشر سنوات، قبل أن يتم القبض عليه ونفيه خارج القطر. وقال لنفسه إن هؤلاء المصريين رغم تكاسلهم وسلبيتهم، يخفون أبطالهم السريين ويساعدونهم في الهرب. هذا ما جعله مُركزًا على خوض التحدي، والبحث عن أحمد سليم في أي مكان، والإيقاع به بأي وسيلة.

أعاد قراءة ملف المُتهم الهارب. المعلومات المُتاحة عديدة، ومتنوعة، لدرجة تمييع الصورة الحقيقية، وتضليل مُحللي البيانات. المُتهم مُتدين، لكنه شوهد في مرات عديدة يرتاد بيوت البغاء. مُتعصب، لكن جيرانه من اليونانيين والشوام يُشيدون بُحسن تعامله. ضئيل الجسم وأقرب إلى النحول، لكنه قوي الضربات، جريء الوجه لا يهاب أحدًا. مُتقن الحديث باللغة العربية الفُصحى، ومع ذلك يحفظ قاموس ألفاظ الشوارع من فتوات ومُتشردين.

وضع فيليب نفسه مكانه وقرر أن يُفكر بعقله. كيف يُمكنه الهرب من البوليس والمُخبرين، وشيوخ الحواري والفتوات والفضوليين، والعيون هُنا وهناك؟ كيف يفر بتلك الخفة وذلك اليُسر؟ أين يُمكنه أن يختبئ، ما دام بعيدًا عن أشقائه وأقاربه ومعارفه التقليديين؟ إنه لا بد أن يُفكر بعيدًا عن التصورات الطبيعية. لا يُمكن أن يبقى في مكان يتوقع الوصول إليه فيه. لكن أين؟ صعب الوصول.

وقف فيليب كثيرًا عند فقرات بعينها في ملف أحمد سليم، تُشير إلى صداقته مع مُحرر يعمل في جريدة «المُقطم». لقد سأل عنه هذا المُحرر في غرفته التي يقطنها بالسيدة زينب، وشوهد معه مرارًا على مقهى «متاتيا»، ولا بد أنه على عِلم تام بما يفعل. المُحرر حسن أفندي الكاتب. حليق الوجه، هادئ الطباع، لا يُثير

الريبة، وصديق لأعيان وباشاوات ومستشرقين أجانب.

نادى على مساعده الكونستابل لوكس، والذي نقله للعمل معه مستبشرًا بوجهه الفأري الأبيض ولكنته الإيرلندية، وقدم إليه ملفًا باسم حسن أفندي الكاتب، وقال ببروده المعتاد:

- أريد كل شيء عنه. كل شيء. هل تفهم؟

***

انقبض قلبه.

للمرة الأولى يتم استدعاؤه إلى قسم الشرطة. مخبر من القسم ترك له ورقة استدعاء في محل عمله أثارت الريبة في قلبه، قال إنه لم يخط خطوة داخل قسم شرطة منذ أن عمل محررًا، واستقر بالقاهرة. أنهى حسن أفندي عمله بالجريدة كاتبًا مقالاً عن سجايا الراحل علي باشا شريف، الذي وافته المنية تحت تأثير أزمة قلبية مفاجئة. تحدث كثيرون عن كرم الباشا الراحل، وأدبه وظرفه وحسن هندامه، وفكره المتفق مع المدنية، ونسوا حادثة الجواري الشائنة. تجاهل المؤبنون أيضًا سبب وفاته، والتي كانت حسرة من المرحوم على دعوى قضائية أقامها أبناؤه عليه، اعتراضًا على تبديده لثروته.

أوقف حسن حوذيًا يقود عربة سوداء كانت تسير ببطء بحثًا عن زبون، وصعد بخيلاء تُناسب بحبوحة أول الشهر الميلادي، وقد استلم للتو راتبه البالغ جنيهين. كان راتبه على مدى أكثر من خمسة أعوام ثابتًا عند جنيه ونصف، حتى اقتنع صاحب الجريدة مؤخرًا بحسن أدائه واجتهاده، فوافق على زيادة راتبه. في الطريق إلى قصر النيل تذكر وجه نُزهة الحليبي، وشكر الله على أنها تحررت وهربت من الرّق. قال لنفسه إن كثيرين ممن يحسبون أنفسهم أحرارًا، يرفلون في الرق دون شعور. إن الخديو في نظره حاكم على شعب قوامه ثلاثمئة وسبعون ألفًا من البشر، لكنه وعائلته وحاشيته ورجاله وما يملكونه، خاضعون جميعًا للسلطان الأعظم في الأستانة، كما أنهم خاضعون أيضًا للمعتمد البريطاني في القاهرة، والنُّظار الذين يتمايلون فخرًا وتيهًا يُساقون ويُسيّرون كما يشاء الخديو، فيفعلون ما يؤمرون به، وينتهون عما ينهاهم عنه، مثلهم مثل الأرقاء الذين اعتادت رقابهم على الانحناء. آلمته طرقعة السياط فوق ظهر البغل، وتذكر الباشا الذي يُنافق رجال الجناب الخديوي والإنجليز، ويتغطرس عندما يتعامل مع أولاد البلد، وقال إنه عبد لمكانة ونفوذ اكتسبهما ظلمًا دون وجه حق. مر بخياله المستشرق المستغل الذي حظ على بلاد غريبة عنه، ليخدع أهلها ويشوه معتقداتهم جانيًا المال والذهب، وقال إنه أيضًا عبد لتعصبه الغربي وشراهته للمال. طاف برأسه مشهد إبراهيم الغربي وهو يُرحب بطلاب المتعة، ليقرر أن القواد الذي يُدير بيوت ليل سرية وعلنية للزنا والمتعة الحرام والممنوعات، هو أيضًا عبد للدناءة والوضاعة الإنسانية. وفكر كذلك في عبودية الشيوخ الذين يُطوعون الدين لإرضاء أصحاب السلطان والأعيان، وحتى هؤلاء الناس الذين يبتسمون أمام كل منكر، ولا يتحركون حيال أي شر، فهم عبيد للخوف والكسل والجهل.

كانت سياط الحوذي تُطرقع فوق ظهر البغل الضخم الذي يجر العربة، عندما غيمت السماء قليلاً قبل أن تُمطر، إعلانًا عن شتاء صريح يعرف جيدًا قسوته ووحشته. تذكر نوات الإسكندرية وهدير الأمواج المفزع في وقت السحر، فحمد الله على ذلك المطر الخفيف. شاهد حسن أفندي بعض أصحاب الحوانيت يمدون أغطية قُماشية، فوق مساند خشبية اعتلت محلاتهم، تخوفًا من تلف بضائعهم، ورأى النساء الملتفات بالملاءات السوداء يلتصقن بُجدران الأبنية اتقاء للبلل، بينما ميزت مظلات صغيرة مجموعة من الأجانب السائرين في الشوارع والطرقات. كانت القاهرة على الرغم من المطر والبرد الزاحف صاخبة بالضجيج، ومفعمة بالحيوية كأنها ملتقى أطياف البشر. تابعت عيناه الصاحيتان وجوهًا من كل لون، وملابس متنوعة دالة على أذواق وثقافات مختلفة، ورواجًا تجاريًا يُنبئ عن ارتفاع واضح في مستوى معيشة الناس، وزيادة في دخولهم.

وصل إلى قُسم شرطة قصر النيل، ودفع إلى الحوذي قرشًا كاملاً، ثم أخرج من جيبه ورقة الاستدعاء

ليقدمها إلى العسكري الواقف أمام الباب، ليسمح له بالدخول. دلف حسن بعقل حائر وفكر مشوش، منتظرًا في زدهة نصف مضيئة بداية الاستجواب. استبعد أن يكون الاستدعاء بسبب مقالاته التي كتبها قبل أيام، مؤيدًا أفكار الشيخ محمد عبده الإصلاحية. إن أحدًا لم يُعلق على شيء مما خطت يداه، كأنه يكتب لتسويد صفحات في جريدة ينقم عليها الناس باعتبارها مؤيدة للاحتلال. قال إن الجميع يؤيدون الاحتلال سواء صرحوا أو لم يصرحوا بذلك. ألم يُرحب خديو مصر من قبل بالإنجليز، ويمنحهم نياشين رفيعة لانتصارهم على غرابي وصحبه؟ وكُل هؤلاء الذين يُنددون بالاحتلال ويكررون مطالب الاستقلال، يُصاحبون الإنجليز وموظفيهم، ويتوددون إليهم، ويوسطونهم لنيل مناصب معينة أو حصانات محددة. قال لنفسه إن أصعب ما ابتليت به هذه الأمة هو النفاق. العيش بوجهين، والظهور برأيين، والكلام بصوتين.

استبعد حسن أيضًا أن يكون الأمر له علاقة بجارية عبد الغفار باشا شكري الهاربة. فالرجل تعلم جيدًا من درس علي باشا شريف، وهو مُناور ذكي ويحرص دائمًا على إرضاء الإنجليز والخديو معًا، لذا فإنهم سيصمتون حتى لو اكتشفوا حادثة ابتياعه للجارية. حادثه قلبه عن أحمد سليم. قاتل القُبحاء والأشرار. المُختفي عن الأنظار. لا بد أنهم اكتشفوا أمره.

سمع نداءً باسمه فقام ليدخل حجرة واسعة أشار إليها عسكري مصري، تغلب عليه الملامح الريفية، جلس أمام مكتب صغير يتصدره خواجة ضئيل الحجم، بعينين ضيقتين غابتا إثر حديثه الصارم، الذي أثار في نفسه هواجس متباينة.

ـ اسمك وسنك وعنوانك؟

أجاب في صبر وهدوء اكتسبهما من مُصاحبة أجانب وشوام.

سأله مستجوبه، الذي لمح اسمه «لوكس» على لافتة خشبية باللغة الإنجليزية فوق المكتب، عن علاقته بأحمد سليم. قال إنه صديق قديم، زامله في دراسة العلوم الشرعية في الأزهر قبل أن يتركا الدراسة للعمل.

ـ ماذا كُنتما تدرسان في الأزهر؟

سأله السائل فرد مُستغربًا:

ـ التفسير والشريعة وعلم الحديث والفقه الشافعي والحنفي، والشعر والبلاغة والخطب المنبرية...

لاحظ قيام مستجوبه بتدوين ردوده على ورق أبيض بخط صغير، قبل أن يواصل الاستماع إلى الأسئلة الغريبة.

ـ هل تذكر بعض أسماء الكُتب التي درستماها هُناك؟

ردّ مُبديًا الدهشة قائلاً:

ـ وهل هذا مهم؟

أجابه المُحقق بجدية:

ـ نعم. مهم جدًا.

ابتسم وواصل الإبحار بمُحدثه بعيدًا، وقال:

ـ نعم. أذكر البعض. خُذ مثلاً كتاب شرح الهداية في علم الحكمة، ومتن الجغميني في علم الهيئة، واللمعة في تقويم الكواكب السبعة، عين الحياة في علم استنباط المياه، الكلام اليسير في علاج البواسير، التصريح في علم التشريح، إتحاف البرية في معرفة الأمور الضرورية، ورسالة القول الأقرب في علاج لسع العقرب، وبلوغ الأرب في أسماء سلاطين العجم والعرب، ومنهج السلوك في نصيحة الملوك.

أوقفته إشارة من كف الكونستابل الذي قال:

- إلى ماذا يُشير كتاب الملوك؟ السياسة أليس كذلك؟

رد حسن بابتسامة ماكرة:

- لا أذكره. للأمانة يا حضرة الكونستابل، تلك الكُتب لا يبقى منها في ذاكرتي سوى القرآن الكريم.

- هل يعني ذلك أنك غير مُقتنع بكُتب الأزهر؟

- ما ضرورة هذا السؤال؟

ابتسم الكونستابل لوكس ابتسامة باردة تعلمها من سيده، قبل أن يقول:

- كُل كلمة هُنا لها مغزى. لا شأن لك به، لكن عليك الإجابة بصراحة. مفهوم يا حسن أفندي؟

هز حسن رأسه في تسليم مُنتظرًا بقية الأسئلة، ثُم أخرج منديلاً من جيب بنطاله ومسح به أنفه، قبل أن يسمع الكونستابل سائلاً:

- متى رأيت أحمد سليم آخر مرة؟

صمت قليلاً ثُم قال:

- الشهر الماضي.

- أين؟

- في حجرتي.

لاحت على وجه الكونستابل ابتسامة انتصار، فواصل سائلاً:

- هل من المُعتاد أن يزورك في سكنك؟

هز حسن رأسه بنعم، قبل أن يتلقى سؤالاً إضافيًا:

- ما الأمر المُلح الذي جعله يزورك في منزلك؟

رد في هدوء:

- بالتأكيد كان يطلب رأيي كصديق في أمر ما.

- ما هو هذا الأمر؟

- كان يرغب في السفر إلى أوروبا.

- لِمَ؟

- بحثًا عن حياة أفضل، وعلم أعظم.

- هل كان لديه المال اللازم للسفر وهو ابن أسرة متوسطة الحال، وتقريبًا بلا عمل؟

- أتصور أنه كان لديه مال وفير اختصه به جده لأمه قبل وفاته.

- ما نعرفه أن أسرة أحمد سليم جميعها من الفلاحين، وليس فيهم مَن يمتلك أموالاً أو أراضي.

- هو كان يقول لي ذلك.

واصل الكونستابل لوكس النظر في ورق أمامه، ثُم سأله على نحو مُباغت:

حصري على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

- هل تعرف الخواجة فرانسوا دي روسو؟

- نعم.

- أين تعرفته؟

- في مقر شغلي، عندما زار قبل عامين فارس نمر صاحب «المقطم».

- وهل يعرفه أحمد سليم؟

- لا أدري.

- ما الذي يدفع شخصًا غريبًا مثل أحمد سليم إلى قتل هذا الخواجة؟

- لا أدري. أنا لا أظن أبدًا أن أحمد سليم يقتل أحدًا.

- لماذا تظن ذلك؟

- أولاً لأنه شخص هادئ ومتحضر ومتعلم، فضلاً عن كونه ضعيف البنية.

- إذًا لماذا اختفى فجأة بعد مقتل الخواجة؟

- أعتقد أنه سافر قبل هذا التاريخ.

- إلى أين؟

- لندرة.

وابتسم حسن قليلاً عندما دخل فيليب بخطوات هادئة، ثم جلس إلى جوار حسن ووضع ساقًا فوق أخرى، وسأله بصوتٍ هامس:

- هل تعرف إبراهيم الغربي؟

ابتسم حسن وأجاب:

- نعم. مَن الذي لا يعرف إبراهيم الغربي.

- ماذا تعرف عنه؟

- قواد.

- وما جزاء القواد في شرعكم؟

- جزاؤه موكول إلى ولي الأمر مولانا الخديو.

أشعل فيليب سيجارة، ونفث دخانها في الهواء وقال سائلاً:

- وماذا ينبغي للمسلمين الأتقياء أن يفعلوا له إن لم يجازه ولي الأمر؟

ابتسم حسن مرة أخرى، وقال في ثقة:

- لا شيء. هذا شأن ولي الأمر.

- لكن هُناك مُسلمين يقولون غير ذلك.

ابتسم حسن ابتسامة باهتة، وسأل:

- ماذا يقولون؟

حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية https://t.me/riwayat2025

رد فيليب:

ـ يقولون إن عدم قيام ولي الأمر بتطبيق الشرع يدفعهم هم إلى تطبيقه.

ـ هذا الكلام غريب. لكن حتى لو كان هناك من يقول ذلك فأنا أخالفهم في الرأي.

ـ وأحمد سليم؟

ـ ما له؟

ـ ما رأيه؟

ـ أعتقد أننا نتشارك الرأي.

وضع فيليب ذراعه فوق كتف حسن أفندي، وقال وهو ينظر في عينيه:

ـ حسن أفندي. في اعتقادك، ما الذي يدفع رجلاً مثل إبراهيم الغربي إلى القول إنه رأى غليونًا، يماثل غليون الخواجة فرانسوا مع صديقك أحمد، وإنه هرب مذعورًا عندما كُشف أمره.

ـ أولاً إبراهيم الغربي ليس رجلاً، وليس ممن تُقبل شهادتهم قانونًا. وثانيًا ربما اختلط الأمر عليه، خاصة أنني على ثقة بأن أحمد سليم لا يعرف في الأصل ما هو الغليون ليدخنه، كما لا أظن أنه يذهب إلى بيت بغاء.

مطّ فيليب شفتيه وأشار إلى لوكس ليستكمل أسئلته، التي سحبت حسن رويدًا نحو السياسة، ورأيه في الاحتلال، وبريطانيا، والثورة العرابية، والتي أجابها جميعًا باعتدال وروية، ثم وقع على محضر الاستجواب وصافحهما مغادرًا.

قتل فيليب سيجارته في منضدة زجاجية على مكتب الكونستابل، قبل أن يقول له:

ـ هذا الرجل يعرف كُل شيء. إنه أخطر من أحمد سليم نفسه.

***

لمحت شعرة بيضاء بين خصلاتها أمام المرآة في حُجرة الجواري السمراوات. جلست نبوية لتسرح شعرها الغجري الطويل، بينما كان جمع من الفتيات طويلات، وقصيرات، وسمينات، ومعتدلات القوام يتحادثن ويضحكن بشكل عبثي. تذكرت الفتاة مُبتسمة الوجه موجوعة القلب أنها قضت ثلاث سنوات في كنف إبراهيم الغربي، دون أن تقطع أي شوط في حلمها القديم، أن تصير عشيقة لأي من الخواجات ميسوري الحال، لتذهب معه بعيدًا عن ذلك الشرق البائس. فكرت في الخواجة فرانسوا الذي تمنت يومًا العيش معه، لكنها عادت، وقالت إنه كان سخيفًا وكريهًا وساديًا، وإن موته ربما حررها من وهم كاذب. قالت لنفسها إن أحمد سليم هو الأطيب، والأنبل، والأجدر على تخليصها من لا حياة إبراهيم الغربي. في أذنها ذات القرط الفضي رنّت كلمة جرجس أفندي لها، بأنها قطعة خراء، والتمست له العُذر، لأنه لم ير منها سوى ابتذال وانحطاط يليقان بساقطة، تُنكح من طوب الأرض، وفئران السكك وخُثالة البشر.

فكرت وهي تتحسس بكف خمرية نحيلة الشعرة الوحيدة البيضاء في مفرقها، في أن الاستمرار في لعق تُراب الغربي والعمل كمومس ضمن حريمه مقابل لا شيء، يتساوى مع حياة الحرمان التي هربت منها في فاس. الفقر نفسه، والانحطاط ذاته في بلاد عشش فيها الجوع قرونًا. إن الحياة لا يُمكن أن تستمر بهذه الدونية، خاصة أن الجواري يتحررن شرقًا وغربًا، ويقررن ما يردن، وليس أدل على ذلك من أن كثيرات من الحريم العاملات في بيوت إبراهيم الغربي مُتحررات، ويحصلن على أجر مُقابل عملهن، فضلاً عن حقهن في بقشيش الزبائن، دون إخفاء أو تفتيش من الطوشي. تذكرت أن عثمان الطوشي يتجنب ضرب هؤلاء الفتيات، لأنهن يعملن بإرادتهن طبقًا لاتفاق، فمنهن زوجات لتُجار وفلاحين من الأرياف والنواحي البعيدة، يأتين إلى المحروسة بدعوى زيارة الأولياء، ليُسلمن أجسادهن لطالبي المتعة، ومنهن سيدات مُطلقات، وأرامل ينفقن على

أبنائهن من القروش القليلة التي يمنحها الغربي، مقابل استغلال بيوته واصطياد الزبائن منها. ومنهن أخريات يطلبن المتعة للمتعة فقط، ويتخيرن الزبائن والرجال مقابل غداء أو عشاء، وكأسين من الخمر المعتق.

رنت إلى حوا السودانية ذات العينين الواسعتين، والتي دخلت للتو إلى الحجرة منظمة ليوم عمل الفواني كعادتها كل صباح. قالت إنها ليست مثلها تؤمن في عظمة وجبروت سيدهما الغربي، الذي يدعي معرفة الغيب، وتسخير الجن لحمايته وصون مملكته. تصورت أن حياتها بوتيرتها نفسها استنزاف لشباب، يُمكن أن تجني منه أموالاً لا آخر لها. وقالت إن ما أخبرته به إحدى الفتيات من حصول الفتاة نُزهة على تذكرة حُرية، من قلم عتق الرقيق بمنتهى السهولة، واشتغالها مُربية لدى الضابط الإنجليزي فيليب، يُجدد أملها في ضرورة الفرار من هذه الجحيم. إنها لن تبقى خرقة بالية يبول عليها الغادي والرائح، ولن ترضى بأن تعمل دون أجر، وذلك المارد المتجبر فاقد الرجولة المُسمى بالطوشي، لا يجب أن ترضخ له مرة أخرى. لا مصير أسما المعروف والمتداول سرًا بين بنات السعادة يُخيفها، ولا تهديدات حوا السودانية برش ماء النار على وجوه المفارقات تجعلها تتراجع عن غاية التحرر، والعودة إلى الإنسانية القائمة على عدم استغلال أحد لجسدها، ذلك الذي خلقه الله تحت تصرفها وحدها.

بخيالها طاف أحمد سليم مُعضدًا، ومناصرًا، كجدار من صوان يُمكن الاستناد عليه. كانت ترى في عينيه نُبلاً نادرًا، وشهامة عاتية، وجرأة لا حدود لها. لم يكن متعجلاً لافتراشها عند أول لقاء مثلما رأت من قبل من بعض العُمد، والتجار، وأعيان الصعيد، ولم يكن ساديًا أو موجعًا وهو يحتضنها في حنو بالغ لا يتناسب مع بيت بغاء. كان خليطًا غريبًا من أولاد البلد الطيبين والمتعلمين، الذين يفيضون قوة ورقة في الوقت نفسه. من غُرفتها هرب كأرنب بري قافزًا فوق فخاخ الصيادين بذكاء وسرعة وشجاعة. قالت لنفسها إن ما فعلته هو أقل ما كان يجب فعله، لإنقاذه من مؤامرة الملك المخنث لمملكة الليل، الذي كان سيسلمه إلى الشرطة. لم كان سيفعل؟ لأنه قاتل؟ ولو. كررت دون أن تنطق أنه قاتل، لكنه قاتل بحق، ثم مَن قال إن هؤلاء لا يستحقون القتل. فرانسوا، والطوشي، وإبراهيم الغربي، وحوا السودانية وغيرهم.

إنها ترغب مثله في قتل أولئك الأشرار المُستعبدين للناس بالخوف والمال.

سمعت حوا تُناديها لتمنحها مهام اليوم. «صبرٌ جميل» قالتها في سرها.

ـ لديك زبون زائر من العربان في الساعة السابعة مساءً.

هزت رأسها موافقة، فتابعت حوا قائلة:

ـ وبيات بعده عند تاجر يوناني في حي العباسية.

كررت هز الرأس كما اعتادت دائمًا، لكنها قررت في سرها الفرار. قالت لنفسها إنه ليس أفضل من الفرار، والتحصن بقوة ونفوذ يحسب لهما إبراهيم الغربي وكلابه حسابًا. فكرت نبوية في أن نزهة التي سبق والتقتها مرات محدودة، بعد أن فرّق بينهما حسن الجلاب قبل سنوات، يُمكن أن تكون الملجأ. معها ستكون في مأمن، خاصة أنها تعمل عند ضابط الشرطة الإنجليزي.

ستطلب مساعدتها، لتحصل على تذكرة حُرية، وتعمل لدى أي من أصحاب البيوت الأخرى مقابل أجر، حتى تتمكن من تحقيق حلمها بفتح بيت سعادة باسمها. «بيت نبوية العايقة للسعادة والمتعة. فتيات جميلات من كل سن ولون. تخفيضات خاصة لأولاد البلد». ستفتح بابها للفتيات الباحثات عن مأوى، والطالبات للمتعة مقابل عمولة زهيدة. ستبحث عن أحمد سليم وتحتضنه بصدق، وتُخبره أنها لم تحب أحدًا إلاه. ستمد خيوط الصلات والمعارف مع القناصل الأجانب، ورجال المال، وأصحاب الحوانيت وكبار موظفي الدولة، لتحمي بيوتها وتجارتها. ستكبر مملكتها أسرع مما تتوقع وتتخيل، وتصير قادرة على منافسة الغربي وسرقة الزبائن منه. هكذا فكرت وهي ترمي حوا السودانية بنظرات احتقار وكراهية.

***

دفع جرجس أفندي بابًا خشبيًا ليدلف إلى حجرته الضيقة، المطلة على قسم شرطة الأزبكية. كان صاحب الجلباب المتسخ دائمًا يقطن إلى جوار حديقة الأزبكية الفسيحة، وعلى بعد خطوات من الوحدة الصحية الرئيسية، التي يعمل بها مساعدًا لطبيب إنجليزي كثير الغياب. وضع لفة ساخنة يبللها الزيت على طبلية خشبية، تتوسط الحجرة ذات الأثاث البسيط، والخالية من سرير نحاسي وثير اعتاده ضيفه المتلفع بشال من الصوف، يناسب برد فبراير. سلم جرجس على ضيفه في آلية باردة، قبل أن يجلس ويفك اللفة الورقية لتفوح منها رائحة الكباب شهية طيبة، بدأ معًا الأكل كصديقين قديمين فرق بينهما الزمن سنوات طوالاً.

بدا الضيف المتلفع بالشال مهمومًا وهو يقضم قطع الكباب بتلذذ ظاهر، وران عليه صمت طويل، قطعه جرجس بعد لحظات مفاجئًا ضيفه:

ـ البنت نبوية.

ـ ما لها؟

ـ هربت من بيت الغربي أمس، وذهبت إلى الضابط فيليب في منزله طالبة الأمان.

ـ غريبة. لماذا فيليب؟

ـ لأن صديقة نبوية تعمل في بيته.

ـ مَن؟

ـ فتاة تُدعى نُزهة، كانت جارية عند أحد الباشاوات الكبار.

هز الضيف رأسه قليلاً وأطرق يفكر، ثم قال:

ـ يجب أن نُساعدها.

مط جرجس شفتيه الغليظتين امتعاضًا قبل أن يرُد:

ـ لا تستحق يا أحمد. مثل هذه الفتاة خطر علينا. التورط معها قد يكشفنا.

تحسست كف أحمد نبت شعر لحيته، وواصل أكله وقال في ثقة:

ـ جرجس. لا تنس أنها أنقذتني في اللحظة المناسبة. أخبرتني بمخطط الغربي للإيقاع بي في الوقت المناسب، ولولاها لصرت الآن مُعلقًا من قدمي في قصر النيل، لأكشف لهم قصة التنظيم كاملة.

ابتسم جرجس مُخرجًا سيجارة ملفوفة من عُلبته المعدنية ليناولها لأحمد، قبل أن يسأله:

ـ هل كُنت ستقر عليّ؟

ـ هذا السؤال لا يجب أن تسأله أنت تحديدًا، ولو سألته لا يجب أن يكون من نصيبي. جرجس. أنت تعرف الإجابة جيدًا.

تذكر جرجس أفندي اثني عشر عامًا مرت على تزاملهما في خلية قتل الأجانب، التي شكلها أحد الضُباط الموالين لعرابي باشا، بقصد إرهاب وتصفية المغتصبين لحقوق المصريين في كُل مكان. وقتها سقط التنظيم كله وقُبض على أحمد سليم، واعترف بكثير من التُهم وأبى أن يذكر كلمة واحدة عن جرجس أفندي، الذي كان يشارك في عمليات ذبح وقتل الأجانب والشراكسة في الصعيد، عندما كان يخدم هناك. ظل جرجس بعد نقله إلى القاهرة على صلة ببعض أفراد التنظيم الذين نالوا عفو الخديو توفيق، إلى أن انقطعت تمامًا برحيل بعضهم وسفر الآخرين عدا أحمد سليم، ذلك القاتل العنيد الذي لا يؤمن بأي إمكانية للتغيير بعيدًا عن القتل.

قال أحمد لصديقه:

https://t.me/wafaa2025 حصريا على روايات كتب عربية عالمية

- إننا سنساعد نبوية عن طريق حسن الكاتب. ستبعث إليه برسالة تحوي التفاصيل كافة. لكن كُن حذرًا. إنهم يراقبونه.

- أعرف. لكن حسن لا يعرفني.

- ستترك له الرسالة دون أن يراك.

- أين؟

- في متاتيا. إنه يجلس كل مساء هُناك. ستجده يُدخن النارجيلة وفي يده جريدة المُقطم، استأذنه فيها لحظات كأنك تريد قراءتها، ثُم دُس فيها هذا الخطاب، وانصرف.

- تمام.

أطفأ أحمد سيجارته وأخرج من جيبه ورقة صفراء وقلمًا، وشرع يكتب في تأنٍ والابتسامة الباهتة تغطي وجهه. بعد عدة دقائق ناول الورقة صاحبه الذي سأله مُبتسمًا:

- هل أقرأها؟

- طبعًا.

وقرأ في هدوء:

«أخي حسن،

احرق هذا الخطاب فور قراءته.

لا تخف عليّ. سأنجو. وعدتك بأن أقتص من كل عدو لهذا البلد، وكل ساخر من معتقدات أهله، وكُنت أتمنى لو كُنت حاضرًا تذلل الخواجة فرانسوا عند تنفيذ حُكم الإعدام. تصور، هذا المُتغطرس بال على نفسه خوفًا من مفارقة الدُنيا. كم أطربتني حشرجة فرار الروح عن ذلك الجسد الخبيث، وسأطرب أكثر عند التخلُّص من إبراهيم الغربي، وعثمان الطوشي، والباشا الخائن، وكل وغد فاسد مُعين للأجانب والأعداء. ليس لنا أن نصمت يا صاحبي، وفكرة مُعلمك محمد عبده عن تعليم الناس وإصلاحهم لا تناسبني. قُلت لك من قبل ولا أزال عند رأيي، لا سبيل سوى القتل، ولا طريق غير العُنف. هؤلاء الأوغاد لا يستحقون شفقة أو رحمة أو انتظارًا لجزاء قانون عقيم مُخترق. لن أهنأ وهُم أحياء، وما داموا كُثر فيبدو أنني لن أهنأ أبدًا. الإعدام نهائي لا يقبل نقضًا أو مُراجعة، كل ما هُنالك أن موعد التنفيذ تأجل. أنا العدالة التي يخافونها.

أعجبتني مناوراتك أمام استجوابهم. اطلعت عليها عن طريق عيوني. ما زال أصدقاء الماضي ورفقاء الجهاد مُخلصين كأنبياء. ويبدو أنك ما زلت قادرًا على تشتيت محاوريك، وتشويش معلوماتهم. إنني أشكر الشيخ محمد عبده أنه زرع فيك قواعد الحوار المنطقي. عمومًا سيحاولون إيجاد أي دليل يدينك بالتواطؤ معي. لا تخف، أنت في معزل بهدوئك وتعقلك ورضاك بالإنكار بالقلب فقط. أما ماضيك فقد أخفيناه إلى الأبد.

إنهم خلفي. لا عليك. أنا دائمًا أسبقهم بخطوة أو اثنتين. لقد لاحقوني في كثير من الأماكن بسرعة أكبر من توقعي. في بيت إبراهيم الغربي كانوا يُعدون لي مصيدة شممت رائحتها سريعًا، وفضحتهم جارية مجبورة على البغاء، ففررت سريعًا. في منزلي هربت قبل دقائق من وصولهم، ولما ذهبوا إلى أخي في بلبيس علمت فور تحركهم، وأفلتُّ في اللحظة الفناسبة. أنا الآن آمن تمامًا.

ما أريد أن تعرفه هو أنهم لا يمتلكون أي دليل بشأني، وحتى تقرير التشريح الخاص بجُثة فرانسوا تم تشويهه، ليظهر القاتل قوي البنيان، طويل القامة، أيسر الحركة، وهو ما يكفل لي النجاة التامة. فضلاً عن حصولي على تقرير من المُستشفى الإسرائيلي بوجودي داخل المستشفى وقت الجريمة. لذا فإنني سأظهر لكن في الوقت المُناسب.

ما أريده منك لا يضعك في أي موضع شبهة. أولاً: فتاتك التي تبحث عنها صارت حرة وتعمل الآن في منزل الضابط الإنجليزي فيليب، ويمكن أن تتصل بها وتتقدم إليها بعيدًا عن اشتراطات الباشا الكهل واستغلاله. سأخالف نصيحتي السابقة وأدعوك للاقتران بها، وأعتذر عن سوء فهمك لما عنيته في حوارنا الأخير. ثانيًا: أرغب في الحصول لإحدى فتيات الغربي على الأمان، خاصة أنها كشفت لي مؤامرته، وأخشى أن ينتقم منها، حاول أن توفر لها سكنًا مؤقتًا. ثالثًا: عليك أن تُقدم بلاغًا في قسم البوليس ضد إبراهيم الغربي، وتُخبرهم أنه يحتفظ في بدروم بيت بولاق بكميات كبيرة من الأفيون، والحشيش المحظورة تجارته. وكُن حريصًا على أن تُقدم صورة من البلاغ إلى إدارة مكافحة الممنوعات بنظارة الداخلية.

وأخيرًا ادعُ لي بخير، وتذكر أنه على الرغم من اختلافنا الكبير في الآراء والتوجهات، فإننا كُنا وسنبقى دائمًا وأبدًا أخوين في الدين، والوطن، والكرامة الإنسانية. والسلام ختام.

العفريت».

ابتسم جرجس ونظر إلى أحمد، وقال له:

- رائع. أنت عفريت فعلاً. مَن يسير بجانب بيوت الغربي في زي امرأة، ويصعد إلى حُجرتي دون أن يشتبه فيه أحد، لا بد أن يكون عفريتًا.

ثُم تمتم في إعجاب:

- أنت أفضل مَن يُخطط.

وتذكر كيف ساعده أحمد سليم قبل خمسة عشر عامًا في التخلُّص من زوجته الخائنة، التي تتبع خطوها يومًا تتسحب إلى زريبة ابن العُمدة، في إحدى قُرى الصعيد، ليفترشها في دناءة. كان عائدًا من تدريب بالوحدة الصحية العمومية في القاهرة، حيث انضم إلى خلية المصريين الأحرار، وقرر قتلها. ولما حدث أحمد سليم عن ذلك في زيارته التالية للقاهرة، منحه زجاجة سم صغيرة، ودعاه لوضع قطرة واحدة منه في طعامها كُل يوم. وبعد خمسة أيام صفعتها الحمى، وجلس إلى جوارها يسمع اعترافها الأخير قبل أن تلفظ أنفاسها، وفي جنازتها بكى ألم الفراق، وتلقى تعازي الأهل، ثُم رقص فرحًا بانتقامه ووحدته عندما انفض العزاء. وسافر إلى المحروسة وبقي باژا بجميل صديقه القاتل الوطني.

***

تحلقوا مقا، ثلاثتهم، والدخان رابعهم يُثرثرون في انفعال مُعتاد ببار النادي اليوناني. بدا عبد الغفار باشا شُكري مُنفعلاً في سترته السوداء، المصنوعة من الصوف الإنجليزي، بينما اعتاد البرود وجه صديقه محمد باشا شفيق، على الرغم من ارتعاش الفليون العاجي بين أصابعه، وإلى جوارهم تكوم إسماعيل باشا حكمت، الذي زاد وزنه كثيرًا في الشهور الأخيرة، حتى اختنق لحم وركيه بالمقعد الصغير. قال عبد الغفار باشا إن الظروف في مصر تُنبئ بأحداث عظام، خاصة في ظل الحركة المتعصبة النامية، والتي تجد دعمًا دائمًا من رجال على مقربة من الخديو، ودلل على ذلك بأن البعض يُجاهر بلعن الإنجليز والمعتمد البريطاني في كُل مكان، وهو أمر لا يمكن السماح به طويلاً في ظل حوادث الإرهاب التي تستهدف الأجانب. وردَّ إسماعيل باشا حكمت بأن سوء الأحوال وتخوف كثير من أصحاب التجارة من تقلبات الأسواق، دفع كثيرين إلى البحث عن أي منصب بالدولة العلية، حيث سافر كثيرون إلى الأستانة طالبين أعمالاً ووظائف.

تذكر عبد الغفار باشا إلحاح زوجته أم الحسن لدفعه للسفر إلى إسطنبول، والاستفادة من علاقات أسرتها بالدولة العلية لتدبير الإقامة، تمهيدًا لنقل أعماله التجارية إلى هناك، لكنه فكر أن وراء إلحاح زوجته العقيم رغبة مؤكدة في إبعاده عن مُحيط المصريين، حيث تخشى زواجه بواحدة منهن طلبًا للولد. لقد قال لها مرارًا إنه لن يفعلها أبدًا، وإنه لا يهتم من قريب أو بعيد بمَن يرثه، لكنها كعادتها لا تصدق ما يقول.

وقال عبد الغفار لصديقيه إن تربُّص اللورد كرومر بالخديو واضح، وإنه يتعمد إحراجه في كثير من المواقف. وردَّ إسماعيل باشا قائلاً:

- إن اللورد يُشيع في كل مكان أن الخديو يُقرب عناصر خطرة إليه، ويُشجع شبابًا متطرفًا على انتقاد الإنجليز في صُحف أوروبية، تحت دعوى طلب الاستقلال.

وعلَّق محمد باشا مؤكدًا:

- نعم. هناك طالب اسمه مُصطفى كامل، خطب خلال زيارة الخديو لمدرسة الحقوق ونال استحسانه.

وقال عبد الغفار باشا:

- إن كرومر يحاول الإيحاء للقناصل الأجانب بخطورة الحاشية المحيطة بالخديو، وتعصبهم ضد أي أجنبي.

راقت للجالسين بدء الحفلة الموسيقية، والتي انسابت لتُقدم عزفًا فرنسيًا باهرًا، قطعه محمد باشا شفيق وهو يُشعل غليونه العاجي قائلاً:

- إن مصر خسرت كثيرًا بحادث قتل الخواجة الفرنسي فرانسوا، خاصة أن فرنسا كانت ولا تزال من أهم الدول الداعمة لمصر في طلب الاستقلال.

- ماذا تعني يا باشا؟

سأله إسماعيل باشا حكمت، وهو يريح ظهره على مسند المقعد الوثير، فأجاب في زهو:

- تصوري أن الاستخبارات البريطانية وراء عملية قتل الخواجة الفرنسي، حتى يتم تعكير العلاقات بين الخديو وفرنسا.

برقت عيون، وقطبت ملامح، وهز عبد الغفار باشا شُكري رأسه موافقًا، وقال:

- هذا كلام منطقي، بالطبع. لو حسبنا حساب المنافع، سنجد أن الإنجليز هم أكبر مستفيد من اغتيال المستشرق الفرنسي، وحوادث القتل الأخرى التي نالت مُستخدمين أجانب.

ثم أضاف قائلاً:

- لاحظوا أن أقرب المستشارين الأجانب لمولانا هُم المسيو بوترون رئيس لجنة أملاك الدولة، والمسيو برونيير رئيس المحكمة المختلطة، والمسيو برون مندوب السكك الحديدية، وهُم جميعًا فرنسيون.

- هذه مُلاحظة في محلها.

قالها إسماعيل حكمت مُضيفًا:

- لا تنسوا أيضًا خدمات أرستيد جافييو الصحفي الفرنسي، الذي أتاح للخديو النشر في عدد كبير من الصُحف الباريسية.

على الطاولة تراصت زجاجات ويسكي متنوعة، وكؤوس مُمتلئة وفارغة، وأطباق ممتلئة بالفستق والفول السوداني، وامتدت كف عبد الغفار باشا لتصب المزيد من مشروب الويسكي الساحر، في الكؤوس كلما فرغت، وقال بأسى شديد:

- خسارة يا باشاوات. مصر لم تعُد كما كانت.

واسترجع كلامًا مُشابهًا لزوجته وأضاف:

- الخيرات تتناقص، والأجانب يحلبون كل شيء، ولم يعُد لنا سوى فُتات ما يبقى منهم.

ابتسم إسماعيل باشا وقال في خُبث:

- نعم يا باشا. حتى النساء الحسان غلت أثمانهن.

هز محمد باشا رأسه، وسأل صديقه:

- تقصد الجواري يا باشا؟

- ألا يسينك أنهم حظروا تجارتهن ومنحوا كل الإماء الحرية؟

ضحك محمد باشا غامزًا قبل أن يقول:

- بالطبع هذا مُسيء.

ثم أضاف قائلًا:

- بلغني أن أحد الباشاوات الكبار قام بتسريب جارية حسناء، صغيرة السن، خوفًا من الوقوع تحت طائلة القانون.

تجاهل عبد الغفار باشا اللمز الموجه إليه، وتظاهر بانشغاله بطلب زجاجة ويسكي جديدة، ثم ردد مع الموسيقى المنبعثة قوله: «أمان أمان أمان»، لكنه فوجئ بإسماعيل باشا يسأل في برود:

- مَن هذا الباشا؟

- لا يهم.

- بالله عليك.

- لا يهم يا باشا. رُبما هو معذور.

قالها محمد باشا، فتابع إسماعيل باشا:

- لو كُنا مكانه لفعلنا مثله. النساء تستحق الشراء.

- النساء دائمًا تستحق. ألا تذكر علي باشا شريف. عاش عليهن، ومات عليهن.

ثم قال محمد باشا ضاحكًا:

- أليس ذلك أرقى من نساء إبراهيم الغربي؟

وواصلوا سُكرهم وثرثرتهم.

***

حُضن دافئ ترجم إلى شوق حقيقي بين رفيقتين لم تجمعهما مُنافسة، أو غيرة، ووفدتا إلى المحروسة في يومٍ واحد، لكنهما صارتا مصريتين لحمًا ودمًا. نُزهة بريئة الوجه، ناضجة العقل، ونبوية ذات العينين الصاحيتين والنظرات الجريئة. تعانقتا لتبلل دموعهما عنقيهما الناعمتين. على باب منزل الضابط فيليب وقفتا تتذكران أيامًا من خوف، وتوجس، وأمل، عاشتا فيها العبور الأول من بوابة الرق إلى عالم المحروسة الصاخب، المُفعم بالحياة والحكايات والإثارة. كانت نبوية تلتف بملاءة سوداء كبنات البلد، مُغطية وجهها ببرقع أخفى أنفًا بارزًا، وعلى كتفها حقيبة قماشية وضعت فيها بعض ملابسها، عندما نادت من أمام باب الحديقة بصوت عالٍ باسم نُزهة، التي خرجت ترتدي فُستانًا مُزهرًا، وبدا شعرها باهرًا في تحرره دون أغطية. قالت نبوية إنها فرّت من الجحيم، وجاءتها مُستنجدة، طالبة الإنصاف والحرية. بدا السرور مُضيئًا لوجه نُزهة لتجذب صاحبتها للدخول معها، ترقبًا لاستيقاظ سيدة الدار لاستئذانها لرعاية نبوية.

على أريكة ناعمة تتوسط المدخل أجلستها، قبل أن تُقدم لها كوبًا من الماء، وتمنحها دقائق استرخاء سألتها بعدها إن كانت جائعة، فأشارت إليها بنعم، فدخلت إلى المطبخ لتجلب إليها كعكًا وكوب شاي، ثم جلست إلى

حصريا على روايات وكتب https://t.me/riwaya2025

جوارها محاورة ومطمئنة. قالت نُزهة:

ـ لا تقلقي، ستساعدك الست ماريا، إنها تُحب النساء وتعمل على معاونتهن، ولو عرفت أنك كُنت مجبورة على البغاء ستهتم أكثر.

ابتسمت نبوية بعد أن خلعت البرقع عن وجهها ليبدو ذابلاً، وقالت:

ـ لن أرجع إلى هذا المُجرم أبدًا. تصوري كُل النساء تُضربن، وهناك فتاة صغيرة كانت معنا عند حسن الجلاب، ذبحوها.

رانت ملامح الخوف على وجه نُزهة، لكنها كتمتها قائلة بثقة:

ـ قولي كُل شيء، وستتم مُحاكمة المُجرم ولن يذهب دم البنت هدرًا.

ثُم قالت مُتبسمة:

ـ المُهم أنك خرجت من هذا الوحل، والحمد لله أنك خرجت مُبكرًا. الله يقبل التوبة.

انعقد حاجبا نبوية وبدت بسمتها ساخرة، وهي تقول:

ـ توبة؟ ليس بعد. ما زلت صغيرة. أنا هربت من إبراهيم الغربي لأعمل بحريتي وأفلت من الاستغلال. أنا أولى بعرق لحمي.

لاح الكدر على وجه نُزهة، وشعرت أنها سقطت بغتة من فوق جبل المقطم، ونظرت في ضيق إلى صاحبتها مُكررة:

ـ بغي يا نبوية. مطية للرائح والغادي.

ثُم سألت بنبرة استنكار:

ـ ألا تسأمين من تقديم جسدك إلى شيخ مُسن، أو مراهق ساذج؟ ألا تشعرين بالقرف من...

ولم تكمل بإشارة من يد نبوية التي صاحت بصوتٍ عالٍ:

ـ كفى. كفى يا نُزهة. ألم نتجادل من قبل. ألم أقل لك إنني لا أملّ ولا أكلّ. نعم أنا بغي. أحب الرجال، ولا أستنكف أن أفعل ما يريدون ما دام ذلك بمقابل. أنا لا أعرف عملاً غير هذا. لا أجيد مهنة سوى الـ...

ـ لا عليك يا نبوية. مفهوم.

وصمتت لحظات قبل أن تقول:

ـ لكن تذكري أنك تهربين من العبودية إلى العبودية.

ـ العبودية هي الاستغلال.

أسكتتها قبل أن تُكمل، ثُم قالت لها إنها ستتركها لتوقظ سيدة الدار وتُخبرها بأمرها، لتعرف كيف تُمكنها المُساعدة.

ـ كيف تتفاهمين معها؟

سألت نبوية، فأجابت نُزهة:

ـ كُنا نتفاهم عن طريق الإشارة، والآن هي تفهم كثيرًا من الكلمات العربية، وأنا أعرف بعض الإنجليزية. هناك دائمًا أرض وسط.

غابت نُزهة، فتطلعت نبوية إلى لوحات زيتية جميلة تُصور مناظر طبيعية في غابات أوروبية، ووجوه

https://t.me/riwayat2025 حصريا على روايات وكتب عربية وعالمية

حسنة لنساء ورجال وأطفال موزعة على اللوحات، التي تخللتها شمعدانات من النحاس، مُعلقة على الجدران، بينما تناثرت قازات بلورية ملونة، وتُحف معدنية باهرة، وأوانٍ من الجص مرسومة عليها وجوه فرعونية، فضلاً عن تماثيل صغيرة لمساخيط الفراعنة القدامى.

تذكرت نبوية غمرًا من العذاب والوجع، وتطلعت إلى مرحلة جديدة تختار فيها ما تريد، وتُقرر ما تشاء، وتتكسب بما تفعل، بدلاً من أن يجني ثمارها مُجرم أو فتوة أو قاطع طريق. تخيلت بيتًا مثل هذا الذي يضمها، ولوحات وتحفًا وسجاجيد وأثاثًا جميلاً، وأسرّة من النحاس، وناموسيات من الحرير، وفاكهة كثيرة، وخمرًا مُعتقًا. نظرت إلى صورة صغيرة مأسورة في برواز خشبي لضابط شاب، بعينين ملونتين، تذكرت أنها سبق أن رأته زائرًا في قصر إبراهيم الغربي. «لا بد أنه يعرفه» هكذا قالت لنفسها، لتفتح الأبواب والنوافذ لنمل الخوف ليغزو أوصالها، قبل أن تنتابها الرجفة، مُكررة أنها لن تُفرط في الحُرية تحت أي لافتة. «إنهم أحباء، ربما. أصدقاء، مُحتمل. والضابط الإنجليزي لن يقف في مواجهة الشيطان الغربي، خاصة أنه لن يستفيد شيئًا»، فكرت مرة أخرى في أنها فرت بملابسها كاملة، وأن الجميع علموا بهروبها لتُصبح مُباحة الدم في غُرف إمبراطور مملكة الليل، ولا مجال للعودة مرة أخرى، ومهما كان أو سيكون من الضابط فيليب، فإنه لا يستطيع التفريط فيها أو تسليمها، لأنه مسؤول عن تطبيق القانون، وحظر الرق قانون إنجليزي واجب التطبيق. هكذا قالت لنفسها قبل أن تسمع خطوات قدوم نُزهة، والتي فاجأتها بسيدة، نحيلة الجسم، مليحة الوجه، باردة الملامح، تصحبها لتصافحها بيد بيضاء رقيقة، ثُم تطلب منها أن تحكي لها كُل شيء في تفصيل، بعد أن تعهدت نُزهة بترجمة ما تستطيع من كلام الجارية.

بدت عينا ماريا مُتعبتين بسبب سهر طويل الليلة الفائتة، في حفل عيد ميلاد صاحبة الجلالة، الذي احتفلت به السفارة البريطانية وسط حضور واسع من الضباط والموظفين الإنجليز، وقناصل الدول الأوروبية وعائلاتهم، وكبار رجال البلاط، وجمع كبير من الأعيان والباشاوات. في تلك الليلة شربت ماريا كما لم تشرب من قبل، ولولا اطمئنانها برعاية نُزهة لطفلها الصغير لما تمكنت من مُصاحبة فيليب إلى الحفل.

حكت نبوية حياتها في مصر مُنذ مجيئها، وما قاسته من جوع وضرب وتعذيب في رحاب إبراهيم الغربي، ثُم تحدثت عن أملها نيل حريتها مثل بقية الجواري اللاتي سمعت عنهن. قالت إنها عرفت بنيل نُزهة حريتها، وسمعت حكايات عن فتيات كثيرات كُن خاضعات لرجال قُساة غِلاظ، وإن عدالة الأمة الأوروبية أنقذتهن من ذلك البؤس الفظيع.

حاولت نُزهة الترجمة وتوصيل الحكاية إلى مخدومتها التي سألت معتمدة على لغة الإشارة، إن كانت نبوية مُتعلمة مثل نُزهة، فهزت رأسها نفيًا، فسألتها إن كانت تُجيد الحياكة فنفت أيضًا، فكررت سؤالها عما تُجيد، فأجابت وهي تهز خصرها: الرقص الشرقي. وأضافت في فخر:

ـ أعرف الرقصة الجديدة المعروفة بهز الوسط.

ابتسمت ماريا التي سبق أن شاهدت النساء في زيارتها إلى الصعيد، يرقصن رقصات رتيبة من خلال القفز بشكل غريب وحركات مُضحكة، وطلبت منها أن ترقص رقصة هز الوسط، وسط استغراب نُزهة التي ابتسمت في فضول، وهي تُشاهد صاحبتها تربط طرحتها حول وسطها الضيق المُستدير، وتحل شعرها الطويل الغجري، ثُم ترقُص دون موسيقى، وسط قهقهات ماريا التي قامت وطلبت منها الرقص على أنغام موسيقى صاخبة أدارتها سريعًا. وبدأت نبوية الرقص بخفة ونشوة، مُتمايلة يمينًا ويسارًا، ووقفت ماريا تُحاكيها وهي تُقهقه في مرح جم.

***

ضربات مُباغتة. لم يتوقع إبراهيم الغربي هذه السلسلة من المصائب، التي أهلّت قبل ساعات من احتفال المصريين بشم النسيم، ذلك العيد الذي يسعون فيه للتنزه والشراب والتفكُّه. هربت البنت نبوية، مُخلفة شرخًا

في هيبة المملكة التي سعى إبراهيم سنوات طويلة لترسيخ دعائمها، وأعيد فتح التحقيق في مقتل الفتاة أسما بعد شهادة نبوية أنها كانت تعمل لديه، فضلاً عن اتهامات بابتياع الجواري من السودان واسترقاقهن في بيوته. لم يُصدق الغربي استدعاءه من ضابط جديد بقسم الأزبكية، للتحقيق في اتهامات عديدة ضده، وزاد الأمر سوءًا قيام صحيفة «المقطم» بنشر حكايات استرقاق النساء، وإجبارهن على العمل في البغاء، وتورطه شخصيًا في ذلك. وذكرت «المقطم» أن مسؤولين كبارًا بنظارة الداخلية يُعدون لتقديم الغربي إلى المحاكمة، في جرائم عديدة، بعد قيام مديرة مصلحة رعاية الرقيق بتقديم بلاغ إلى مجلس النظار، بناء على الشهادة التي قدمتها نبوية. وقالت «المقطم» أيضًا إن الفتاة الهاربة من جحيم الغربي صارت محل اهتمام في الصحافة الإنجليزية، باعتبارها دليلاً على انحطاط وتخلف المجتمع المصري.

ولم يُصدق الغربي كذلك ما جرى من مداهمات، قامت بها قوات من إدارة مكافحة الممنوعات بالداخلية لعدد من بيوته، للبحث عن الأفيون والحشيش، حيث تم تحرير محاضر تعاطٍ لكثير من زبائنه بعد تفتيشهم والعثور معهم على ممنوع. طلب الغربي عن طريق رُسله الاجتماع مع الضابط فيليب، لكنه لم يتلق ردًا لعدة أيام، ما جعله يندفع للذهاب بنفسه إليه في ثكنات قصر النيل.

جلس إبراهيم الغربي للمرة الأولى دون حُراس وخدم، مُنتظرًا مجيء الضابط الذي طالما أهداه مجوهرات وتُحفًا وهدايا ثمينة، وأموالاً لا حصر لها. رمى وجه الكونستابل المساعد للضابط فيليب بنظرات احتقار، صائحًا في أعماقه بأنه وقائده ورؤساؤه لا شيء. تذكر كيف ربط مصالحه بخيوط خفية بمصالح دولة صاحبة الجلالة، وكيف قدم معلومات وافية عن العناصر العدائية للوجود البريطاني في مصر. كيف عاونهم وأمدهم بالمعلومات الوافية عن العُمد والمشايخ والصعاليك والأثرياء. قال في نفسه: «إن المعلومات كنز، ولا حُكم مُستتبًا دون معلومات وافية عن المحكومين». فكر أن تلك الخدمات لا تُقدر بثمن، وليس أقل من الشكر والامتنان عليها من رجال الإمبراطورية البريطانية، لا الملاحقة وتوجيه الاتهامات. قال في سره كأنه يُحدث مسؤولي بريطانيا: «إنني شخص مُحب لكم ومُسالم أعمل على إسعاد الناس، وأشغلهم عن قتلكم وإشهار السلاح في وجوهكم». وتابع صامتًا: «أيها الحمقى، لن يرضى عنكم المصريون حتى لو اتبعتم ملتهم. إنهم ناعسون الآن. هذا صحيح. لكن عندما ينتفضون سيذبحونكم».

برقت عيناه إرهابًا للرد على نظرات استهزاء وجهها إليه الكونستابل الأجنبي، ذو الوجه الأبيض، عندما لمح أسورة ذهبية في معصميه. قال إن هذا الكونستابل ذا الوجه الفأري لا بد أنه يُفكر إن كان الجالس أمامه رجلاً أم امرأة، مثلما يفكر الراؤون له للمرة الأولى. قال في سره: «أنا الاثنان معًا أيها الخنزير الأحمق»، ثُم حوّل بصره بعيدًا شاخصًا نحو النافذة مواصلاً الانتظار. طالت الدقائق فسأل الكونستابل بصوت أنثوي هادئ إن كان الضابط فيليب سيتأخر، فكرر الكونستابل قوله إنه لا يعرف. قال لنفسه: «دائمًا تعرفون كُل شيء، وتدعون الجهل. مثلكم مثل المصريين تمامًا، هُم يستحقونكم كحُكام، وأنتم تستحقونهم كأعباء ومشكلات أزلية».

أخرج إبراهيم من جيب عباءته ذات الملمس الحريري حبات من لبان الدكر، مضغها في برود مُفكرًا في تبدل الحال وتغير الزمن. تذكر والده الملك الأسطوري الذي تخافه ذئاب الفلاة، ويحسب حسابه قُطاع الطُرق ومطاريد الجبل، هل سيحاسبه حاكمًا عليه بالفشل لو تم تقديمه إلى المحاكمة؟ تساءل أيضًا: كيف انفتحت عينا فتاة بلهاء على القانون والصحافة ومعرفة البوليس؟ كيف واتتها الشجاعة أن تهرب، وتذهب بقدميها إلى زوجة الضابط فيليب، لتوصلها إلى مصلحة الرقيق، ثُم إلى الصحافة المصرية، ثُم البريطانية؟ كيف صدقها الإنجليز؟ وكيف تجرأوا على تفتيش بيوته بحثًا عن الأفيون؟ هل هُناك مَن يترصده؟ وهل ما كتبه حسن أفندي الكاتب كان انتقامًا لصاحبه؟ هل هُناك صلة بين نبوية وحسن أفندي؟ وهل تعرف هي أين يختبئ المجرم أحمد سليم؟

ضغطت ضروسه حبات اللبان مُكسرة، ليختلط بلُعابه ويتحول إلى عجينة لذيذة، تتقلب تحت فكيه، وفكر أن ما يحدث نتاج عمل جماعة لا فرد. شعر أنه من المستحيل أن تكون سلسلة الضربات التي تلقاها مجرد

مُصادفات قدرية، وإنما هي أفعال مقصودة، وهو ما يعني أنهم يُجاهرون بالحرب عليه.

كان إبراهيم قد طلب من عُثمان الطوشي مراقبة الجواري كافة، وإيقاف نشاط بيع الممنوعات لفترة وجيزة، وطلب من مساعدته حوا عمل خصومات كبيرة على الفتيات الجديدات، اللاتي وردن إليه من الحبشة، لضمان استمرار الرواج والرد على الشائعات التي ستحوم حوله.

طال انتظاره أكثر مما ينبغي، فقام مُستأذنًا بعد أن فقد الأمل في قدوم فيليب، ولم تمض دقائق على مغادرته، وركوبه عربته الفطهمة ذات الخيول الثلاثة والستارة السوداء، حتى لمح فيليب قادمًا من بعيد، فأمر سائقه بالتوقف لبرهة. اقترب منه فيليب رويدًا ثُم صعد بملابسه الرسمية إلى العربة، بعد أن نظر خلفه في قلق، وقال في غضب:

ـ كيف واتتك الجرأة أن تأتي إلى هُنا؟ هذا ليس قسم الأزبكية. هُنا البوليس السري. ألا تفهم؟

نظر إبراهيم نحو وجه فيليب الفحمر ورد صائحًا:

ـ أنتم تقتلونني. ألم تعلم أنهم يفتشون بيوتي ويُهددون بتقديمي إلى المحاكمة، ويكتبون عني في الصُحف أنني مُجرم وقاطع طريق و...؟

ـ هذه أفعالك التي قادتك إلى هذا.

ابتسم إبراهيم ابتسامة باردة وردد:

ـ أفعالي؟

ثُم عقد حاجبيه وقال في نبرة لا تخلو من تهديد:

ـ قُل أفعالنا لا أفعالي. هل نسيت أنني ما توسعت إلا من أجلك، ومن أجل حُلمك ببنك معلومات عن كُل شيء؟ الهفوة، والرغبة، والنكتة، ما يعرفه المصريون، وما يحبونه، وما يخافونه، أسرارهم وفضائحهم، وحكايات الكبار والأعيان. ألم يصلك كل هذا يا حضرة الضابط الهمام؟ ألم أخبرك بتفاصيل عن الفُجرمين الذين يقتلون رجالكم في الحواري والأزقة؟ ألم أقدم لكم مطلوبين لعدالة دولتكم؟ ألم نتفق أن نتعاون على إفشاء الفساد، والوهن، والانحطاط بين شباب هذا البلد، كي لا تقوم لهم قائمة؟

ـ اتفقنا على ألا تُخطئ. اتفقنا ألا تتوسع بهذا الجنون. اتفقنا أن تحترم قواعد القانون. اتفقنا ألا تتعامل بعنف وقسوة.

جلس فيليب إلى جوار إبراهيم، وقال هامسًا:

ـ لاحظ يا إبراهيم أن هُناك أمورًا تتجاوز سُلطاتي. لقد كتبت بشأنك كثيرًا من التقارير، وأشدت بتعاونك، لكن في بلادي لو وصلت الأمور إلى الصحافة، فإنه لا يُمكننا الصمت. لا أنا ولا قائدي، ولا المعتمد البريطاني نفسه يستطيع حمايتك. واضح أن أعداءك أقوى منك. وأنت تعرف: نحنُ لا نعمل إلا مع الأقوياء.

اكفهر وجه إبراهيم، ورأى أسود والده أمامه تُزمجر في غضب، تمالك أعصابه قليلاً ليقول:

ـ لا يا فيليب. نحنُ في مركب واحد. أنا وأنت. لو سقطت ستسقط معي، ولو نجوت سننجو معًا. لا تنس أن نصف لوحات بيتك الثمينة من مالي.

وعلا صوته مُضيفًا:

ـ افعل شيئًا من أجل ماريا الجميلة، ومن أجل جون الصغير. من أجل مُستقبلك يا حضرة الضابط أوقف ما يحدُث، واقبض على أحمد سليم، وأنا كفيل بالكاتب.

ثُم صاح في سائقه:

- سر يا ولد.

وهبط فيليب ورأسه يموج بأفكار شتى.

حصريا على روايات وكتب عربية و عالمية https://t.me/riwayat2025

حسن أفندي الكاتب أمام القاضي قاسم أمين، مُستبشرًا بجيل جديد من الأعيان والنُبلاء الطامحين إلى العُلا، والباحثين عن الرُقي سيرًا على خُطى محمد عبده الإصلاحية. سُر بأن هُناك في هذا البلد عقولاً فتية راغبة في التغيير، وساعية نحو التحضر والانخلاع عن جهالات صنعها الفقهاء، تسببت في هزائم كارثية.

كان حسن أفندي قد نجح في إقناع فارس نمر، صاحب صحيفة «المُقطم»، بعمل سلسلة موضوعات حول أحوال المصريين، بعد كتاب أصدره القاضي الشاب بعنوان «المصريون». بالفعل ذهب حسن أفندي إلى محكمة القاهرة ليحصل على عنوان القاضي، واتفق مع سائق عربة فارس نمر أن يُقله إلى شارع الهرم بالجيزة، حيث يقطن القاضي الشاب.

كان ذهنه يعمل بسرعة راضيًا عما أنجزه في الأسبوع الفائت من مهام، اعتبرها أقوى من عمليات قنص جنود الاحتلال، وخواجات الأجانب المُستغلين. وصله خطاب صديقه أحمد سليم، وتحرك على الفور ليقدم بلاغًا إلى نظارة الداخلية، حول تورط إبراهيم الغربي في الاتجار بالممنوعات، كما ذهب إلى مصلحة رعاية الرقيق وطمأن نبوية، معلنًا مساعدتها والوقوف إلى جوارها ونشر موضوع عنها بالصحيفة، وبعث كذلك خطابًا إلى نُزهة لتقابله في مكتب مصلحة الرقيق في اليوم التالي.

كان اكتشافه مكان الفتاة الهاربة إلى الحُرية والتي ملأت شغاف قلبه، بمثابة هدية غير مُتوقعة من صديقه المُطارد. قال إن مثل هذه الفتاة الجريئة في غير وقاحة، الذكية في غير خُبث، هي الدليل المؤكد على أن المرأة الشرقية قادرة على التحدي، والتعلم، والمشاركة في التطور والتحضر.

خطا من باب حديدي كبير إلى بهو منزل مُتسع على الطراز الأوروبي، اقتاده الخادم إلى غرفة مستطيلة تضُم مكتبة باهرة، مصنوعة من الخشب الإفريقي الفاحم، ومُزدانة بمُجلدات لا حصر لها ومخطوطات بالعربية واللاتينية. جلس هُنيهة مُفكرًا فيما يُشاع حول غضب جناب الخديوي من أفكار قاسم بك أمين، وإصداره أمرًا بمنع دخوله إلى قصر عابدين، وتوقع أن ينبذه النابذون ما دام الحاكم قد أبدى غضبًا تجاهه. «هكذا قدر المُفكرين الأحرار دائمًا»، قالها لنفسه مُتذكرًا حكايات فولتير ومونتيسكو وجان جاك روسو.

بدا قاسم بك أمين أنيقًا كواحد من نُبلاء أوروبا في العصور الوسطى، كان يتحدث بابتسامة رائقة وعينين جميلتين عن ضرورة تعليم المرأة، باعتبارها نصف الأمة. كان مُباشرًا في أفكاره التي طرحها بهدوء واتزان يتناقض مع ملامحه التُركية، وكرر آيات كثيرة من القُرآن داعية إلى التعلم والتوعية، ومؤكدة حق المساواة في الحقوق والواجبات بين الرجال والنساء. وقال الرجل إنه بصدد إعداد كتاب حول المرأة وأحوالها، مؤكدًا أن تربية العقل والأخلاق تصون المرأة ولا يصونها الجهل، وأن تعليمها هو الوسيلة كي تكون في الأمة نساء يعرفن قيمة الشرف، وطرق المحافظة عليه. وقال أيضًا إن مَن يعتمد على جهل امرأته، مثله كمثل أعمى يقود أعمى، مصيرهما أن يترديا معًا في أول حفرة تصادفهما في الطريق.

سأله حسن أفندي: إن كان لا يخشى الاتهام في دينه، فأجابه بأن كُل مُختلف مع القطيع داعٍ إلى الإصلاح مُقبل على التحضر، مُتهم في دينه من قبل الجُهلاء. ودّعه وهو مُقتنع بذلك، فالجهلاء في كُل مكان، يتكسبون، ويسيطرون، وينتشرون. قال له نصًا: «هم أقوى من تصوراتنا، لكن علينا المقاومة».

في مقهى «متاتيا» مساءً استفزه تحلُّق الناس حول الشيخ علي الصعيدي، بلحيته الكثة وعمامته الكبيرة، كانت أوصاله تهتز كشيطان يتدلى كرشه من عباءة بُنية ناعمة، وهو يزعق في الناس باقتراب يوم الفصل. جلس أمامه مُقررًا المواجهة، مُتذكرًا ضرباته الأخيرة للمجرم المهيب إبراهيم الغربي. طلب شايًا، وانتهز فرصة سكون سنحت من الشيخ، ليسأله في هدوء عن خسائر الإسلام من تعليم النساء. عاود الشيخ ارتداء وجه الغاضب، وهو يقول:

- إنها بداية الفتنة. ألم تسمع قوله صلى الله عليه وسلم: «ستكون فتنٌ كقطع من الليل المظلم». المرأة يا

مُسلم أكبر الفتن. خروجها للتعلم، يلحقه اختلاطها بالناس، ثم يمد الشيطان بعد ذلك أواصر الزنا والفجور، وتعم الدياثة وينحدر المسلمون وينهزمون.

وكرر:

- ينهزمون يا إخوة.

وأضاف الشيخ قائلاً:

- ثم إننا أمة أمية لا تقرأ في الغالب.

ابتسم حسن أفندي مُلتقطًا كلمة «انهزام»، ليسأل بصوتٍ ساخر أمام الحضور:

- ينهزمون؟ هل هُناك انهزام أكبر مما هُم فيه الآن يا مولانا؟

عقد الشيخ حاجبيه، كأنما فطن لسخرية حسن أفندي، وقال في غضب:

- لا تُشكك في أصول الدين، فيلحقك غضبٌ من الله.

رشف حسن أفندي رشفة من كوب الشاي، ورد في ثقة:

- ما تقوله ليس من أصول الدين.

ثُم نظر إلى الجالسين الراضين بالصمت والمُستمعين في صبر:

- يا ناس. يا موحدين: هل تتصورون أن النبي مُحمدًا بُعث ليدعو الناس إلى الجهل والأمية؟ ثُم مَن قال إن تعليم النساء شر، ألم تتلق الأمة علومًا وفقهًا من السيدة عائشة رضي الله عنها؟

وعلا صوته ولم يلحظ وهو يُذكر الشيخ قائلاً:

- ألم تدع الناس يا مولانا يوم كُسر غرابي أن يجتمعوا لقراءة البخاري في صحن الجامع الأزهر، وقُلت إن ذلك كفيل برد الكفرة والمُشركين؟ لم لم ينهزموا ويرتدوا يا مولانا؟

اختلط الضجيج وانفض كثيرون من حول الشيخ، وبدا أن نصف الحاضرين مُتشككون فيه، مُكررون أنهم سمعوه بالفعل يوم التل الكبير يدعو الناس إلى المكوث في بيوتهم لقراءة البخاري.

وواصل حسن أفندي دك حصون خصمه، قائلاً:

- إن الناس لا ينسون يا مولانا. لقد قال لنا الله اعملوا وتعلموا واجتهدوا، ولم يقل اتكلوا عليه وانتظروا المدد من السماء.

صرخ الشيخ فيه:

- انا أعرفك يا ولد. أنت خادم لمحمد عبده. لقد سلطك علي.

وصلته لعنات وشتائم ورد بعض الأفندية نيابة عنه، فما كان من الشيخ إلا أن غادر مع بعض أنصاره مُنكسرين، داعين بالويل والثبور، وصابين لعناتهم على الأفندية جميعًا، وعلى قاسم أمين ومحمد عبده ومَن يسير خلفهما، بينما جلس حسن أفندي ليُكمل شايه باسمًا.

تذكر حسن موعدًا ضربه للقاء نُزهة في الصباح، وهمَّ بالوقوف عندما وجد ذراعًا ثقيلة فوق كتفه، واقترب من أذنه وجه أسود مُكفهر، ليهمس فيه قائلاً:

- إبراهيم بك ينتظرك الليلة في مقهى بولاق. جاءك السعد يا أفندي.

التفت حسن سائلاً:

- إبراهيم مَن؟

- إبراهيم الغربي يا رجل. هل هُناك أحد لا يعرفه؟

ومشى الرسول راسمًا ابتسامة لم تتناسب مع ملامحه القاسية، وفكر حسن للحظات ثم جرى خلف الرجل حتى لحقه، وصاح فيه:

- يا هذا. قُل لسيدك إنني لا أتشرف بلقائه.

برقت عينا الرسول وابتسم ابتسامة باهتة، وقال:

- أنت حُر. لقد رفضت نعمة لا ثمن لها، وعضضت يدًا ممدودة بالخير. ستندم. ومضى في سبيله.

***

ألقت نظرات وداع على سلالم الصعود بالقصر الوسيع الذي احتضنها سنوات، وحبست دمعة دافئة ولدت على طرف عينها، عندما حمل الخدم حقائب جلدية وأجولة من الجوخ تضم ملابسها ومجوهراتها، وبعض أدواتها الخاصة، هابطين بها إلى صحن الدار حيث جلس الباشا ذو البطن المُنتفخ، والشارب المُميز مُدخنًا بتوتر.

كانت أم الحُسن قد نجحت من خلال اتصالات أسرتها في استصدار قرار بتعيين زوجها، عبد الغفار باشا شُكري، في وظيفة كبير مُستشاري الصدر الأعظم بدولة الخلافة، لتُحقق آخر أمل تصبو إليه نفسها، بعد أن خذلها القدر في أمل الإنجاب في المحروسة. لقد ساءت الأحوال في نظرها بالمحروسة بسبب عموم الفوضى، وكساد التجارة، وتدخل الإنجليز في كل الأمور، وما صاحب ذلك من تجرؤ للعامة على الباشاوات وأسرهم.

بدا الباشا حانقًا دون كلام على الوظيفة الجديدة التي جُرجر لها، في ظل مؤامرات عديدة واضطرابات مُتكررة تشهدها الدولة العُثمانية، التي اشتهرت بين القناصل الأجانب بدولة الرجل المريض، في إشارة إلى الشيخوخة التي تضرب أركان البلاد، بعد دخول الأوروبيين بقواتهم العسكرية إلى أراضيها. كان عبد الغفار باشا يعرف أن الحياة في الأستانة مُملة وقاسية، خاصة أن النفوس هُناك مشحونة ضد كُل وافد، وأنهم يعتبرون كُل قادم من أرض العرب بمثابة خادم وتابع، مهمته تلبية طلبات الحاكمين، والركوع بين يدي سُلطان المُسلمين الأعظم. كان الباشا موقنًا أنه لا مجال للمحبة والصداقة والوفاء في تلك البلاد، التي يقتل فيها الرجل شقيقه، وابنه من أجل العرش. إنه يتذكر جيدًا، كيف كان على الأمير الأكبر سنًا حال وصوله إلى العرش، قتل جميع إخوته، وهو يبكي عليهم، حتى لا يصيروا خطرًا على تولي أبنائه السلطة من بعده. تذكر الرجل كيف نهبوا الأموال والضياع والزروع باسم الفتوح الإسلامية، وكيف ارتكبوا مذابح لا إنسانية ضد آخرين ينتمون لأديان وأجناس أخرى. تذكر كيف استعبدوا الأمم والشعوب عقودًا، وكيف ساموا بني البشر الذُل والهوان باسم الدين الحنيف.

هبطت أم الحُسن على السلالم بعد أن أحكمت لفة حجابها مُغطية رأسها الصغير، ومُسدلة عباءة سوداء فوق جسد بض سمين، يترجرج يمينًا ويسارًا. تذكرها عبد الغفار باشا قبل عقدين حسناء، باسمة، مُشرقة الوجه، مُثيرة العينين، رقيقة الصوت. كانت عيناها تشعان بهجة وسحرًا وبهاء. ما لها انطفأت وغمرها الذبول واعترى وجهها الملل الدائم. الغُم؟ الغُربة؟ الوحدة؟ هل كان ذلك هو ما قلب حالها؟ هكذا سأل الباشا نفسه، وهو يفكر في أصدقاء البار الخُبثاء الذين لا يملون اللمز، ولا يكفون عن السُخرية. طفوليون هُم رغم كهولتهم. قال لنفسه إن جميع باشاوات مصر يعشقون النساء، والخمر، ويعتادون القيل والقال، وذلك ديدنهم مُنذ دخل السُلطان سليم الأول مِصر عنوة، ليُعلّق جُثمان طومان باي على باب زويلة.

نظر إلى الصورة المرسومة له على جدار الحائط المُقابل لمدخل القصر، شاب مُهندم مُسترسل الشعر، مُهذّب الشارب. لقد رسمها له رسام فرنسي بعد أسبوع واحد من زفافه. قبل عقدين من الزمن كان كُل شيء مُغايرًا

لما هو الآن عليه، كانت مصر تسير على خُطى أوروبا في العمران والتمدن، وكان الناس يأملون تحسن الأحوال ورواج التجارة، خاصة في ظل خديو طموح يُناطح بنفوذه وإنفاقه الدولة الأم نفسها. تلك أيام خلت وولت.

وقفت أم الحسن قليلاً في صحن الدار، ولاحظت سكون زوجها، فقالت:

ـ أعرف يا باشا مدى حُبك لهذه البلد. لكن صدقني، وطنك هو حيث تجد الراحة والثراء. وطنك حيث تتحقق. وطنك حيث تأمر وتنهى. وطنك حيثُ تنمو أموالك، حيث تسعد يا باشا.

وأضافت:

ـ هُناك ستكون أعظم وأقوى وأعلى نفوذًا، ستشارك في تصريف أمور الدولة العلية، وستكون كلمتك نافذة، وسيعمل الناس هنا ألف حساب لك.

قال الباشا في صوتٍ خافت:

ـ الأمور اختلفت يا هانم. لم تعُد الأستانة هي الحاكمة لمصر الآن، إنه مُجرد خيط واهن من التبعية الاسمية وسيسقط قريبًا.

امتعض وجهها قليلاً وقالت:

ـ كيف يا باشا تقول هذا؟ إن مولانا السُلطان المُعظّم هو مولى الخديو، وهو الذي يُعينه وهو الذي يُقيله. هو الحاكم الأكبر.

ابتسم ابتسامة سخرية، وقال:

ـ هُناك الآن ألف حاكم وحاكم. المعتمد البريطاني بالقاهرة يحكم، والسفير الإنجليزي يحكم، والخديو يحكم، وناظر النظار يحكم، ومجلس شورى القوانين، والقناصل الأجنبية تحكُم، وكذلك الشركات التجارية، وأصحاب الصُحف والمُفكرون ورجال السياسة. الأمور دائمًا تتغير يا هانم.

هزت رأسها في تسليم، وقالت:

ـ نعم. سُبحانه مَن له الدوام.

رنت لعينَي الباشا التفاتة نحو حجرة المؤن وتذكر الفتاة الجميلة نُزهة، وبياض لحمها، ونعومة جلدها، وروعة عينيها، واستدارة خصرها، وتمنى لو كان افتضها قبل أن تهرب. قال في سره إنها كانت جارية مليحة وجذابة، وأجمل ما فعلته أم الحسن في حياتها أنها اشترتها. الويل للإنجليز. الويل للحرية المزعومة.

أفاق على صوت شاكر أفندي يُخبره أن العربة جاهزة للتحرُك، وأن الخدم وضعوا كُل الحقائب فيها. نظر الباشا بعينين حزينتين إلى قصره مرة أخرى. حملق إلى تفاصيله، المدخل، البهو، السلالم، الجدران، اللوحات المُعلقة، الأرائك والأبسطة والسجاجيد، التحف الجميلة. كان يقول للأشياء وداعًا بعينين غلبهما الهم، ومنعته كبرياؤه أن تذرفا الدمع.

ـ هل حزمتِ جميع حقائبك؟

سأل الباشا حرمه، فردت:

ـ نعم.

ـ إذًا ودّعي قصرك، فربما لن نعود إليه مرة أخرى. سنشتاق إلى مصر.

ـ هذا أكيد.

ثُم سألته:

https://t.me/riwayat2025

- هل أنهيت ترتيب الأمور؟

- نعم. لقد كلفت شاكر أفندي بإدارة العزبة، وطلبت منه أن يراجع حسابات الدائرة كل شهر مع شقيقي عبد القادر بك.

- تمام.

- هيا بنا.

دفع الباشا قدمه للأمام وسارت السيدة حرمه خلفه في سكون، يتبعهما شاكر أفندي، وخرجا إلى حيث تقف عربة سوداء تقودها ثلاثة خيول جميلة. صعدا صامتين، قبل أن يهوي شاكر أفندي على يد سيده مُقبلاً. وانطلقت العربة.

***

لا سلام ولا كلام بينهما. نظرات شوق ومحبة ووله انسابت في مكتب مسز مارجريت، حيث جلست نُزهة تنتظر الأفندي الكاتب، الذي بعث إليها بخطاب قبل أيام. لقد أثار مشاعرها حُسن حديثه، وحفظت كلمات الخطاب كلمة كلمة لتتلوها ساعة بعد أخرى حتى موعد اللقاء، مُتيمة برقته. «الشكر لله على أنني وجدتك. بحثت عنك كثيرًا وآمل أن أرى وجهك المشرق، آملاً في غدٍ أجمل لكلينا. هل تقبلين بلقائي في مكتب مصلحة الرقيق صباح الخميس؟ سأنتظر من الضُّحى. حسن أفندي».

رمقته بعينين ناعستين حاسرة بُرقعها، مُطلقة الحُرية لملامح طفولية بريئة، وغمازتين لذيذتين، وأنف رفيع، وشفتين دقيقتين. كان حسن أفندي يرتدي بذلته الداكنة التي كان ينوي الزفاف بها، فوق قميص أبيض وفوق رأسه طربوش أحمر منفوخ، بينما كان عطر الفل الجذاب ينبعث من ملابسه، وعلى وجهه الصغير ارتسمت ابتسامة رضا وإعجاب. اقترب رويدًا بعد أن منح العسكري المصري الواقف بالخارج مليمين، وجلس إلى جوار الفتاة صاحبة الملاءة السوداء، التي جلست على الدكة الخشبية الوحيدة بصالة الانتظار. كانت مسز مارجريت مُستغرقة في أوراق أمامها، وتقرأ دون صوت لتبدو مُنشغلة عن حديث العاشقين خفيض الصوت.

قال همسًا:

- بحثت عنك.

ردت بصوت لا يكاد يُسمع، سائلة وحمرة الخجل تُغطي وجنتيها:

- لِمَ؟

- كُنت أريد أن أراك. أولاً كي أحييك على تعلُّمك، ثُم على نيلك الحُرية. وثانيًا لأني مُعجب بك. أنت مثال للمرأة المصرية الشجاعة. أنت...

لم يُكمل وقد قاطعته قائلة:

- أنت تعرف أنني لست مصرية. أنا من بيت لحم.

ابتسم قائلاً:

- صحيح.

ثم مُنكرًا:

- أنت لا تشبهين أهل مصر. أنتِ أجمل كثيرًا.

لو قتل الحياء لصاح: «أنتِ مُذهلة. جسدك لين، رشيق، وعيناكِ تفيضان سُكرًا وخدرًا».

حدجت بعينيه مُستغرقة، وقالت:

- شكرًا.

ثم فاجأته بإنجليزية سليمة قائلة:

- شكرًا على لطفك أيها السيد.

ابتسم ونظر إلى عينيها، قارئًا سحرًا مُميزًا يشع منهما، وقال:

- ممتاز، تعلمت الإنجليزية.

- تمامًا.

تهلل وجهه غير مُصدق أن الجالسة إلى جواره هي الفتاة الفنحتية ذاتها، التي رآها عند عبد الغفار باشا، وسألها:

- ماذا تعملين الآن؟

- مُربية أطفال ومُدرسة.

هز رأسه مرة أخرى مُرددًا:

- هذا شيء عظيم.

ابتسمت وقالت له:

- العلم هو الحرية.

- صحيح. العلم هو الحرية. هذا ما أؤمن به.

قالت:

- شكرًا على كُل ما فعلته من أجل نبوية. لقد عرفت كُل شيء.

هزَّ رأسه مُتمنيًا طبع قُبلة واحدة فوق هاتين الوجنتين الحمراوين، وسألها بصوتٍ خفيض:

- وماذا بعد؟

- أفكر أن أسافر مع السيدة ماريا إلى لندره.

استغرب فأردفت:

- لقد عرضت علي ذلك، لقد ملّت العيش في مصر، وأخبرتني أنها ستعود خلال ثلاثة أشهر إلى بلادها، وقالت لي إنها تستطيع أن توفر لي عملاً هُناك، ويمكنني استكمال دراستي.

تريث قليلاً وسألها:

- وزوجها؟

- سيبقى في عمله حتى تنجح مساعيها في إعادته، أو نقله إلى مكان آخر.

ثم أضافت:

- إنهم غيرنا. يملون سريعًا ويحبون التغيير.

فغر فاه اندهاشًا، وسأل:

- وماذا تريدين أن تدرسي في بلاد الإنجليز؟

حصريا على روايات وكتب عربية و عالمية https://t.me/riwayat2025

- سأدرس العالم. الآخرين. التاريخ والجغرافيا والطب والرياضات. اللغات الأخرى. كُل شيء. العلم لا حدود له.

تذكر الشيخ علي الصعيدي، وتذكر قاسم بك أمين وردد في سره: «إنه حقًا بلد الأضداد».

مزيج من السرور والهم، الرضا والاستغراب، التحمس والخوف، كلها مشاعر فجائية تولدت في داخله، سائلاً إن كانت نُزهة على صواب أم خطأ. هل يُحبها فيحاول إثناءها عن اللحاق ببلد آخر، وناس آخرين يكرههم في ذاته، لكنه يحترم تفوقهم؟ أو يُحبها فيشجعها على ما فيه خيرها، وسلامها، وحريتها في تعلُم ما لم يتعلم، والعيش في كنف حياة أفضل؟

فكر للحظات قبل أن يقول لها:

- أنا لدي عرض إضافي.

بدت ملامحها مُركزة عليه، وهو ينطق في هدوء:

- أتمنى أن تبقي معي إلى الأبد.

ابتسمت فأضاف:

- نتزوج، ولكِ عليّ عهد من الله أن أصونك، وأفعل كُل ما أستطيعه لتسعدي.

رقصت عصافير البهجة بين أضلعها، وغردت مشاعرها مُعلنة أنها حُرة لتقبل أو ترفض، وحُرة لتختار، وحُرة لتقرر حياتها المقبلة، وقالت في جدية:

- هل تمنحني بضعة أيام لأفكر في الأمر؟

- بالطبع. هذا يُسعدني.

رمت همومًا وأوجاعًا خلف ظهرها، وأكدت أن الماضي صار ماضيًا ولا بد من نسيانه. قالت لنفسها إنها فتاة جديدة، اسمها نُزهة، مسؤولة عن أمرها، ولا سُلطان لأحد عليها. هي قارئة بينما لا توجد قارئات في القُطر كُله، سوى عدد محدود لا يتجاوز أصابع اليدين، وكاتبة وعدد اللواتي يكتبن في المحروسة أقل من أصابع اليد الواحدة. جميلة، وجذابة، ولبقة. إنها فتاة من ألف ليلة وليلة.

قامت مُستأذنة عندما لمحت نبوية هابطة إليها، واحتضنتها مُقبلة خديها يمينًا ويسارًا، ومنحتها قروشًا وجلبابًا أبيض، وقطعًا من الشوكولاتة بعثت بها السيدة ماريا كهدية إليها. ابتسم حسن أفندي راضيًا، وغادرهما بعد أن شكرته نبوية على ما فعل. فكر أن يُخبرها أن أحمد سليم يبعث إليها بالسلام والتحية، لكنه أحجم خوفًا من زلات لسانها.

***

في غُرفة نصف مُظلمة وقف فيليب أمام مكتب مُدير البوليس السري الإنجليزي، الذي وصل توًا إلى القاهرة لتصحيح مسار أعمال المؤسسة في مصر. شعر بغصة في قلبه عندما تذكر حالة السأم التي انتابت حبيبته ماريا، بعد توقف هدايا الغربي ومنحه المالية، ثُم تكرار خلافها معه بسبب غيابه الطويل عقب انتقاله للعمل في الأمن السري، وعدم كفاية راتبه لمعيشتهما وتربية ابنهما الوحيد. عرض عليها السفر للاستجمام بضعة أشهر في برمنجهام، لكنها أخبرته أنها ستسافر إلى الأبد، ولن تعود إلى مصر مرة أخرى.

لم يبن له وجه مديره في ظل الظلام المُتعمد الذي ران على المكان، لكنه سمعه آمرًا بالجلوس. كان صوت المدير رخيمًا وهو يُكرر في حكمة تتناسب مع عُمره المُتقدم:

- كُل شيء يفشل ما دمت بعيدًا عنه.

وأضاف لائمًا:

- لو كُنتم تفكرون قليلاً لما وصلت بنا الحال إلى ما نحنُ عليه.

قال فيليب مُدافعًا:

- إننا نعمل وفق الخطة المُعدة سلفًا و...

خرج المُدير الهادئ عن سمته وصاح:

- غلط. لا توجد خطة ثابتة. الخطط تتغير وفق تبدل الأحوال.

وفتح ملفًا أمامه قبل أن يسأل في غطرسة:

- لماذا تبحث عن قاتل الخواجة الفرنسي فرانسوا؟ هه، لماذا يا فيليب؟

- لنُقدمه للعدالة.

قالها فيليب في تسليم، وأضاف بحماس:

- لقد حددنا الجاني بواسطة عيوننا، وعرفنا مُنذ يومين أنه يُقيم في حارة بجوار حديقة الأزبكية و...

صاح المُدير:

- خطأ.

وقال وهو يضغط كُل كلمة:

- مَن قال لك إننا نُريد تقديم الجاني للعدالة؟ لقد منحنا هذا القاتل السري خدمات لا تعد ولا تحصى. لاحظ أنه قتل فرنسيًا، وأن لذلك أثرًا مُباشرًا في تعكير صفو المساندة الفرنسية لمصر، ولاحظ أن القتيل مُثقف فرنسي، وأن مقتله على يد مُتطرف مصري يؤثر في الأوساط السياسية بأوروبا كلها.

استغرب فيليب قليلاً، وقال:

- لكنه قتل يونانيًا أيضًا من قبل، وقتل موظفًا إنجليزيًا، وهُناك دلائل حول تخطيطه لمزيد من أعمال القتل العشوائي.

فاجأه المدير قائلاً:

- مُمتاز. هذا ما نريده.

واصل شارحًا:

- نحنُ موجودون في مصر بدعوى حمايتها وتحقيق الأمن العام فيها، ولو صارت آمنة تمامًا لما صار لوجودنا مُبرر. وهذا جعلني أفكر في ضرورة عمل حوادث عنف واعتداء ضد الأجانب، تؤكد فكرتنا عن أن الجاليات الأوروبية ستصبح في خطر حال خروجنا من مصر. من هُنا فإن المدعو أحمد سليم لا يجب أن يسقط ويختفي، بل علينا أن نساعده دائمًا على الهرب، ونغُض أيضًا الطرف عن وجوده تمامًا. أن نحوله إلى شبح أسطوري.

وأضاف مُكررًا:

- لو لم يكُن لدينا ذلك الشقي لكان علينا أن نصنعه.

عاد فيليب برأسه إلى الوراء مُتفكرًا، وبدا أنه اقتنع كثيرًا برأي مُديره، فهز رأسه تسليمًا، وبدت على شفتيه ابتسامة لطيفة قبل أن يقول:

- لكننا بذلك نسمح للمصريين بتعظيم الإرهاب، وقد يؤدي ذلك إلى تزعزع الثقة في نفوس جنودنا.

أخرج المدير سيجارًا غليظًا من علبة خشبية موضوعة أمامه وأشعله بثقاب، ولم يُقدم واحدًا لفيليب وقال:

- في كثير من الأحيان، فإن بعض الإرهاب ضروري لدعم السياسة. إن جنودنا بعيدون في ثكناتهم، وفي الغالب هُم آمنون، وحتى لو تعرض واحد أو اثنان كل بضعة أشهر للاعتداء، فذلك لن يضرنا كثيرًا. لقد قُلت لك إن التطرف الوطني والعنف من جانب المصريين مُفيد، ومفيد جدًا.

عاد بظهره قليلاً إلى الوراء ثُم فتح دُرج مكتبه ليخرج ملفًا آخر، بدا منفوخًا بكثرة الأوراق داخله، ورمى فيليب بنظرة استصغار قبل أن يقول:

- وهذا ملف إبراهيم الغربي. رجلك الذي يمدك بالمعلومات والأخبار. أخشى يا فيليب أن ينقلب الأمر لتصبح أنت رجله.

نفث دخان سيجاره في سماء الغرفة، وقال وقد علا صوته:

- يُمكنني أن أغض الطرف عن هداياه إليك، يُمكنني أيضًا أن أصمت عن هرولتك لمضاجعة فتياته. كُلنا نعشق النساء. يُمكنني ألا أذكر شيئًا عن نفحاته المالية لك، عندما كُنت ضابطًا في قسم الأزبكية. يُمكنني أن أفعل ما تريد لحمايتك، لكن ينبغي أن تعرف أنك هُنا، أو في أي مكان لخدمة مصالح بريطانيا العُظمى. وخدمتها أولاً تعني أنك بلا صديق، ولا صاحب، ولا مُقرب سوى دولة صاحبة الجلالة.

تذكر فيليب هجران ماريا له وران عليه بعض الضيق، وأكمل مديره قائلاً:

- هذا الرجل لا بد من ضربه. نحن لن نقضي عليه، لكن يجب تأديبه وتهذيب صورته. لا يُمكن أن يتحول إلى دولة داخل الدولة، ولا يصح أن يمد علاقات مع قناصل الدول الأجنبية كافة. لا يصح أبدًا أن يتصور نفسه أكبر من قوانيننا.

- لكنه يا سيدي عُنصر مُهم، يقدم لنا المعلومات والأخبار، وهو في الوقت نفسه يساهم في نشر الانحلال في المجتمع، وإلهاء الناس عن قضية استقلال مصر.

- سيبقى عنصرًا مهمًا، وسيبقى شاء أم أبى يُقدم لنا خدماته، لكن التعليمات صريحة، لا بد من ضربة قاسية له. ربما لسنة أو اثنتين أو أكثر. سنقوم بالقبض عليه وإلقائه في السجن لنبرهن للناس أننا معهم. لقد توحش القواد وتصور أن هُناك حاكمًا في مصر غيرنا. لا يا فيليب، لا هو ولا الخديو ولا غيرهما. نحنُ الحُكام في مصر ولا بد من درس يؤكد هذا.

دُهش فيليب من قدرات مُديره، وأبدى إعجابًا بطريقة تفكيره، وتمنى أن يجلس يومًا على مقعده، لكنه تذكر ضعفه تجاه ماريا وعائلتها، ثُم تذكر اندحاره وقبوله الخضوع لإبراهيم الغربي. قال لنفسه: «إن المُخبر لا يجب أن يحمل ضعفًا، لا يخضع لأحد، لا يهاب شخصًا، ليس لديه حساب لخطر، ولا يحمل في ذاته ثقة أو محبة أو حتى كراهية. هو مرآة مُصمتة، كرة ثلج جامدة، حجر صلد لا يلين».

قال لنفسه إن مُديره يؤمنه بكشفه لهدايا الغربي له. إنه يُخبره أن ذلك لا يعيبه، إنما يعيبه أن يصبح رجلاً من رجال شيطان مملكة الليل. فهم المغزى تمامًا. لا أحد يُمكنه السيطرة على واحد من رجال المخابرات، وما تهديدات الغربي بكشفه سوى قبض الريح. خاطب الغربي كأنه أمامه قائلاً: «أنا مكشوف أيها الأبله الغر، وما تجرأ لسانك على التلفظ به في زيارتك الحمقاء، ستدفع ثمنه». لاحظ نظرات مديره فقال على الفور:

- تمام سيدي.

استأذن الرجل، وعاد إلى مكتبه ليستدعي مُساعده الكونستابل لوكس، ويطلب منه أن يوصد الباب، قبل أن يقول له في جدية:

ـ أبلغهم في نظارة الداخلية أن يقبضوا على الغربي الليلة. قُل لهم ألا يرسلوا إخبارية إلى قسم الأزبكية. يجب أن تتم العملية في سرية وسرعة. وأغلقوا بيت بولاق وتحفظوا على ما به من جوارٍ وأثاث.

ـ تمام.

***

سألتها في جدية:

ـ هل تُحبينه؟

نظرت نُزهة بامتنان إلى ماريا، التي جلست تُصفف شعرها الذهبي المسترسل خلف جيدها كزرعٍ هائم، وقالت:

ـ نعم.

وسألت هي ماريا:

ـ سيدتي. وهل تُحبين أنت مستر فيليب؟

بدا وجه السيدة الأبيض باهتًا وهي تُحاول استجماع لحظات سعادتها المنصرمة، وقالت:

ـ كُنت أحبه.

ـ والآن؟

ـ لا أعلم. القلوب تتغير، لكن هُنا تحديدًا في القاهرة لم أعد أشعر بسعادة اكتشاف الغرائب. كما أن فيليب صار غائبًا لفترات أطول، ولم يعد يشاركني الاهتمام بالفنون واللوحات، وأتصور أنه لا يمنح جون الحب المفترض. لقد صار العمل هو كُل شيء في حياته، وأتصور أنه تغير بعد ترقيته، ونقله من المكان الذي كان يعمل به. إنه يحسب نفسه اللورد كرومر.

قالت نُزهة بعد تفكير:

ـ أنا أيضًا لا أعرف تمامًا إن كان إعجابي بحسن أفندي سيدوم أم لا. لا أعلم أيضًا إن كان إعجابه بي مجرد استحسان لجمال بادٍ، أم هو إعجاب بالروح. هل يريدني طلبًا لجسدي أم لعقلي؟ هل أصلح في نظره كشريكة له في الحياة، أم مُجرد خادمة ومؤنسة لوحدته؟

ابتسمت ماريا وقالت:

ـ ياااه يا نُزهة. لقد أصبحتِ فيلسوفة. أنت تقرأين أكثر مما يعمل فيليب. أنت أغرب امرأة أراها في هذه البلاد.

بدت نُزهة جادة وهي تحكي لماريا بسعادة بالغة حكاية القاضي الشاب، الذي يطالب بسفور المرأة وخروجها للعمل وللحياة العامة، واختلاطها بالرجل. وقالت لماريا إن العبودية لم تعد مقصورة على الجواري، والعبيد، والأغوات مثلما كان يحدُث في الماضي، ولكنها الآن صارت سياجًا لشعوب وأمم بأكملها، وقالت أيضًا إن أحد مظاهر تلك العبودية هو حبس النساء في بيوتهن، وحرمانهن من التعليم والعمل، وتحويلهن إلى مجرد أدوات إسعاد وإمتاع للرجل.

بدا الاهتمام واضحًا على وجه ماريا، التي قالت لنُزهة إنها تعتقد أن تهميش المرأة رُكن رئيس في الدين الإسلامي، لكنها تلقت ردًا وافيًا بأن كُل ما يردده الجُهال من المشايخ عن حجاب المرأة، وقلة عقلها، وضيق أفقها، وضعف تفكيرها، لا علاقة له بالإسلام ولا برسالته، واستشهدت بأن نبي الإسلام نفسه كان يستشير زوجاته، وكان يوصي بحُسن معاملة النساء، فضلًا عن أن تاريخ المسلمين يتضمن تفوقًا لكثير من نماذج

النساء، في مجالات السياسة والأدب والعلوم.

هزت ماريا رأسها سعيدة بتبحر نُزهة في قراءات أوسع من قراءات وجهاء، وأعيان، ومتعلمين بالأزهر. قالت لها إن مُجتمع المُثقفين ببريطانيا سيسعده انضمام فتاة مثلها إليه، وأخبرتها أنها كانت تتمنى أن تتعلم أكثر من القراءة والكتابة والرسم والموسيقى، لكنها انساقت لمشاعر فجائية، دفعتها نحو حلم الزواج والأمومة والسفر إلى مُستعمرات بلادها. أكدت لها أن بقاءها في مصر مهما تعلمت لن يُغير وضعها، خاصة أن الناس يُعايرون الفتقاء بأصولهم، كما أن المجتمع لا يعرف حتى الآن عملاً للمرأة سوى الشغل كخادمة، أو دلالة، أو عاهرة. قالت ماريا مُعززة كلامها:

ـ ليس لديكم طبيبة، ولا مُهندسة، ولا مُدرسة، ولا محررة، ولا مديرة. ما زال أمامكم كثير من الوقت ليتغير البلد والمُجتمع.

استوحشت نُزهة قليلاً، وتذكرت عرض الزواج، وسرحت في حكايات مأمونة، وذكريات أم الحسن، وأحلام نبوية، وقالت بعد لحظات صمت:

ـ إنني أريد الحُسنيين.

ـ كيف؟

سألتها ماريا، فقالت:

ـ سأتزوج حسن أفندي، وسأسافر إلى بلادكم.

استغربت ماريا، فأوضحت الفتاة:

ـ سأخبر حسن أفندي بموافقتي على عرض الزواج، بشرط أن يسمح لي بأن أصاحبك عند سفرك لأدرس في مدارسكم. إن وافق سأتزوج به، وأسافر بعدها للتعلم ثُم أعود، ووقتها يُمكنني أن أعمل بوظيفة من تلك الوظائف، التي ذكرتها كمثال على تهميش المرأة. وإن لم يوافق، سأودعه وسأسافر معكِ. وفي كلتا الحالين سأكون راضية. موافقته تعني أنه يُحبني ويقبل بأي شيء يحقق أحلامي، وعدم موافقته تعني أنه يراني مجرد فتاة طيبة، تصلح زوجًا له.

ـ مُمتاز.

هتفت ماريا وأضافت:

ـ أنت مُدهشة جدًا.

وكررت:

ـ هناك ستكونين في مأمن، وسيسعد جون بصحبة مُعلمة مثالية مثلك. وستسعدين بتحقيق حلمك في التعلم.

وابتسمت وقالت:

ـ أنت على صواب يا نُزهة. العلم هو الحرية الحقيقية.

***

طرق الباب ثلاث طرقات قبل أن ينفتح عن غرفة مُستطيلة مُظلمة، صعد إليها أعلى بناية الوحدة الصحية الخاصة بالوقاية من الأوبئة، والتي لم يمر على إنشائها ثلاث سنوات. قال لنفسه إنه من المُدهش أن يختبئ المطلوب الأول للإنجليز، في بناية أنشأوها للبرهنة على رغبتهم في نقل المدنية والصحة إلى مصر. دخل حسن بقدم حذرة قبل أن يسمع صوت إغلاق الباب خلفه، ليلتفت أمام شبح ضئيل الحجم عرفه على الفور، ولم

يلبث أن احتضنه بشدة ليشتم فيه رائحة عرق كريهة، مختلطة بدخان سجائر. منعته ظُلمة المكان من قراءة حال صديقه المرسومة على وجهه، مزيجًا من القلق والهم. قبله قبلة صداقة ومحبة قبل أن يدعوه مستقبله للجلوس على وسادة مربعة، مصنوعة من الجريد.

- يااااه يا أحمد. كيف أفلت منهم وكيف اختبأت هُنا؟

سأل حسن أفندي صديقه المطارد، والذي جلس في خيلاء مشعلاً نصف سيجارة كانت ملقاة على الأرض. نفث نفسًا في الهواء كأنما يطرد هموما، ومخاوف، ووساوس احتلت صدره.

- الثوار لا يعجزون.

قالها بثقة العالم ببواطن الأمور، قبل أن يسأله:

- أحرقت الرسالة؟

- حدث.

- وهل عرفت الرسول؟

هز حسن رأسه وهو يقول:

- تقريبًا. عامل الصحة ذو الملابس المتسخة. أليس كذلك؟

- نعم.

قال حسن:

- الرجل الذي يكرهه الجميع ويعامل المرضى بقسوة وتجبر.

وسأل صاحبه:

- هل تثق به؟

- بكل تأكيد. أثق به ثقة هو أهلٌ لها.

أسند حسن ظهره إلى الجدار وقال:

- تعرف يا أحمد. إنها بلاد عجيبة، وهؤلاء أناس مدهشون. مَن يعرف هذا الشخص يعرف أنه مرتش، وفاسد، ومساعد للغواني والعاهرات، وموظف لدى إبراهيم الغربي.

ابتسم أحمد سليم ابتسامة ناعمة وقال:

- وهذا سر نجاحه.

- من أي مجموعة هو؟

- لا تسأل. انس أمره. قُل لي أنت ما الأخبار؟

- مفاجآت.

واستحثه على التفصيل، فحكى له أن الشرطة قبضت على إبراهيم الغربي، وعدد من حراسه، وأنه تم إغلاق مقهى السعادة، وبيت بولاق، واحتجزت كثير من النسوة بقسم الشرطة، وتم توقيع الكشف الطبي عليهن، واتضح أن كثيرات منهن مصابات بالزهري. أخبره أيضًا أن عساكر البوليس وجدوا في مقهى الرجل كميات من الحشيش والأفيون، وأنه سيتعرض لعقوبات قاسية، خاصة بعد توجيه اتهام استرقاق النساء واستغلالهن. قال له إن الغريب أن بعض خواصه ما زالوا يشيعون أنه قادر على النجاة، وأن البوليس يعمل له

ألف حساب.

علق أحمد:

- عظيم. الفرصة سانحة.

ران الوجل على وجه حسن الذي سأل عما يعنيه، فأجاب بإشارة الذبح وهو يقول:

- الإعدام.

انزعج حسن بشدة، وأبدى معارضته مؤكدًا أن طريق الدم لا آخر له. وقال محذرًا صديقه:

- لقد أفلت بأعجوبة من براثن البوليس، ولا تحسب أن سكوتهم يعني أنهم أغلقوا ملف القضية. لقد كانوا مُصرين على معرفة كُل شيء عنك عندما استجوبوني.

- أعلم.

ثُم ردد:

- أنا العفريت يا صديقي. علي الزيبق لهذا العصر.

مصمص حسن شفتيه وهو يقول:

- أما زلت تُصدق هذه الترهات؟ إنه أسطورة. لا وجود له إلا في القصة التي نشرها أحد الأفندية منذ سنوات قليلة، واتضح أنها لم تقع، وإنما هي خيال كاتب. نحنُ في زمن العلم. انظر إلى المسدس الذي معك، وحاول أن تقول لي متى يُمكننا أن نصنع مثله؟

قاطعه أحمد بحدة:

- ليست مهمتي العلم. نحنُ في زمن الذبح. مَن لا يَذبح يُذبح. المعركة لا تحتمل ما تقوله أنت وشيخك الواهن. لقد سمعت بغضب الخديو عليه، لأنه يُساند قاسم أمين، وهذا هو ما يغفر له عندي تواكله وركونه إلى تثبيط الهمم.

أنكر عليه حسن، وبادر أن يرد بغضب، لكن أحمد امتص غضبه، وقال مُعتذرًا:

- اعذرني يا حسن. لم أرد أن أغضبك. لك ما تريد ولي ما أشاء. ألم نتفق يومًا على ذلك.

ثُم قال:

- اسمع. دعك من تنفيذ الإعدام الآن في إبراهيم. لا إعدام لسجين، عندما يخرج سأقتله. إنني واثق بأنه سيفلت وينجو من السجن سريعًا. لا بد أن يتدخل قناصل الدول الكافرة. إنه قوادهم، ومثل هؤلاء لا يستغنون عن الخنا واللواط. لكن ألا ترى أن الفرصة سانحة لقتل تابعه العبد الفاسد عُثمان؟ لقد صار هدفًا سهلاً.

- أنت لست موكلاً من السماء بتطبيق حد الحرابة.

هز أحمد رأسه مُمتعضًا وقال:

- لا عليك يا صاحبي الطيب. دعني أنا لهذا الدم أتبرك به.

اقترب حسن مُتفحصًا وجه صاحبه الباهت في ظل بصيص ضوء خفيض، تسرّب عبر كوة تعلو الباب الخشبي، وسأله:

- وكيف تفعلها وأنت مرصود، ومطلوب من جانب العدالة؟

أجاب بنبرة فخر:

- ألم تسأل نفسك كيف هربت من بيت الغربي، ثم من بيتي، ومن بيت أخي في بلبيس؟ أنا أخرج كامرأة بهذه الملابس السوداء.

وأشار بيده إلى سبلة نسائية دون أكمام، وإيشارب وبرقع، وضعت جميعها على طرف طبلية مستديرة، قصيرة الأطراف تتوسط الصالة، ثم قال:

- لا تخش شيئًا، معي مستر كولت نفسه، صاحب مبدأ تساوي الفرص بين الأقوياء والضعفاء.

ولمح حسن الفسدس الذي شاهده معه من قبل، ملفوفًا بخرقة إلى جوار الملابس النسائية فوق الطبلية، ففهم، وقال بلهجة تحذير:

- لا تفعل أرجوك يا أحمد. دع الفلك لصاحبه. جرائمك تُسيء إلى الإسلام والمصريين.

- جرائمي؟

صاح أحمد، وهو يُحملق إلى وجه حسن، وقال:

- أتسمي بطولاتي جرائم؟ أترى أن قتل القتلة والخونة والقوادين ولصوص الأمة وعبدة الإنجليز فعل شر؟ كيف وصلت بك الغيرة إلى أن تصم عملياتي الوطنية بذلك؟ ها؟ لا أكاد أصدق.

اقترب حسن أكثر وصرخ فيه:

- نعم جرائم يا حسن. أنت لا تعرف كيف خسرت القضية الوطنية بسبب قتل الخواجة فرانسوا. لا تعلم ماذا تكتب عنا صحافة أوروبا. إنهم يصورونا مجموعة من الهمجيين المتوحشين. إنهم يقولون...

قاطعه أحمد:

- كفى يا حسن. كفى.

وأطل الشرر من عينيه، ورمى نظرة خاطفة إلى الفسدس، لاحظها حسن الذي قال:

- اقتلني يا أحمد. ما دام نُصحي لك غيرة. اقتلني لأنني لا أعترف ببطولاتك.

هدأ أحمد قليلاً، واعتذر قائلاً:

- أنت أخي وصديقي الوحيد.

وبكى وهو يحتضنه، ثم قبله في رأسه وقال له:

- حسن. سأطلب منك خدمة أخيرة. لن أزعجك بعدها. أعدك.

هز حسن رأسه موافقًا، فقال صاحبه:

- أريد منك أن تبعث إليّ البنت نبوية لأراها.

رانت على ملامح حسن بعض الدهشة، وسأل:

- كيف يكون ذلك؟

أجاب أحمد قائلاً:

- في بيت الغتقاء هُناك سيدة اسمها الست سنية، تعمل قوادة لنساء البيت. أرسل إليها مَن يمنحها قرشًا لتبعث نبوية إلى بيت زبون جديد، إلى عنوان بيت لي في حي المغربلين ما زال شاغرًا. ستجدني هُناك.

- هل تريدني أن أعمل قوادًا لك؟

هز أحمد رأسه مُنكرًا وقال:

- حاشا لله. هل أنا في ظروف تسمح لي بارتكاب المُنكر؟ إنني أريد أن أخبرها أنني أحبها جدًا. لقد أنقذتني من موتٍ مُحقق، ولا بد أن أنقذها من التورط في البغاء. ألم تُصبح حُرة؟ سأمنحها مالاً يُجنبها العيش في الوحل.

لم يُصدق حسن تلك المشاعر الفياضة التي باح بها قلب صديقه القاتل. قال إنه مُجرم جميل، وقاتل رقيق. عانقه للمرة الأخيرة ومضى بعد أن قال له:

- سأفعل يا صديقي.

***

عبر المارد الطويل ذو الوجه الصامت والملامح الخشنة كوبري قصر النيل، ممتطيًا جملاً عاليًا يسير عن جنبيه رجلان ضخمان، ليُكمل السير إلى جوار نهر النيل مُتجهًا إلى بولاق أبو العلا. لم يكن أحد من المارة أو القاطنين في الحي القديم يتصور أن يكون هذا الرجل الجاد، ذو النظرات المُخيفة، والد إبراهيم الغربي صاحب الصوت الأنثوي، والملابس المزركشة. كان ذهن الرجل يعمل بسرعة مُستوحشًا أن يتعرض ابنه للسجن، والاحتجاز بعيدًا عن بلاده التي كان يمكن أن يعيش فيها كأمير عظيم. كم نصحه وأوصاه، لكنه لم يستمع لشيء، وتصور أن عقله يُمكن أن يُدير بلدًا عصيًا مثل المحروسة. قال لنفسه إن الحماقة والتهور وحب الانفلات المسيطر على ابنه، منذ أن كان طفلاً صغيرًا، دفعه أن يتصور أنه يمكنه إقامة مُلك بديل في القاهرة. لولا رحيل أمه المُفاجئ وإشفاقه عليه من كآبة اليُتم لتعامل معه بقسوة يستحقها. هكذا فكر بعد أن وصل إلى مقهى السعادة، والذي أغلقت أبوابه الخشبية بمزلاج كبير، ليجد غثمان الطوشي واقفًا في انتظاره. نزل بعد أن أسند خُفيه إلى كفي أحد تابعيه، وتلقى قُبلة على يده اليُمنى، وانحناءة كاملة من العبد الأسمر الذي ارتسمت على وجهه ملامح القلق، ثُم سار خلفه ليدخلا إلى منزل صغير على يمين المقهى المُغلق.

كان يعرف أن تجارة ابنه وأنشطته تعدت الحدود المسموح بها من جانب دولة الاحتلال، وأن عليه إعادة ترتيب الأمور. كان يتخوف أن يستمر حبس ابنه لبرهة متوقعًا ألا يحتمل الشاب الرقيق المُترف قسوة الحبس وغلظة السجانين. سأل غثمان الطوشي عن أخبار الفتيات، فأجاب بأنه نقلهن إلى بيت آخر حديث بشارع الخليج، وأنه دبر لهُن المؤن، ولم يبق معه في بولاق سوى الفتاة حوا.

- والناس ماذا يقولون؟

- البعض شامت والبعض صامت، لكن أحد الرجال سأل حوا عن ذلك العسكري الذي كان واقفًا بالأمس أمام المقهى، فأخبرته أنه يحرس بيت سيدنا إبراهيم الغربي.

- عظيم.

هز الغربي رأسه في رضا قبل أن يقول:

- الذهب سيُغير كُل شيء.

وأخرج من جيب عباءته صُرة قماشية مملوءة بعملات ذهبية، ووضعها بين يدي غثمان وهو يقول آمرًا:

- ستوصل هذه الصُرة إلى السيد روفائيللو قُنصل إيطاليا دون أن تنطق بشيء. هو يعرف ما سوف يفعله.

هز غثمان رأسه في طاعة قبل أن يسأل:

- ألن تُعين لسيدنا إبراهيم مُحاميًا؟

رد الغربي بنظرة ردع قائلاً:

- لقد فعلت. ليس عليك أن تُعرفني ما يجب عليّ فعله.

هز غثمان رأسه مرة أخرى وهو يتمتم في تسليم:

- بالطبع يا سيدي.

استفسر الوالد من عبد ولده عن كل شيء في بيوت إبراهيم، المؤن، الملابس، الممنوعات، المسكرات، الأسلحة، الذهب، ودوّن على ورقة صغيرة كلمات غريبة للغة ذات رسم غير معتاد لدى غثمان، والذي أجاب عن كل شيء بدقة وبتفصيل، قبل أن يغادر إلى مبنى القنصلية الإيطالية بشارع الخديو إسماعيل.

مضى غثمان الطوشي في طريقه نافضًا حزنًا كالجبال حطّ عليه منذ حلت المصيبة. فكر أن اهتزاز مملكة سيده يسلبه سطوته وينهي تسلطه على النسوة الغانيات، أولئك اللواتي يرتعشن خوفًا من بريق عينيه. تذكر الأفندي الساهي أحمد سليم، وكيف رفض سيده نصائحه بقتله، متصورًا أنه من الممكن جرجرته وإهداؤه إلى الإنجليز. برقت في مخه صورة الفتاة اللعوب نبوية، التي غدرت وفجرت وأنكرت فضل سيدها، مندهشًا كيف يتسلل نكران الجميل إلى قلوب النساء، ثم قال مُراجعًا نفسه بأن معظم النساء كذلك. لاحظ هدوء الشارع رغم مرور عربات الخضراوات والفاكهة يمينًا ويسارًا، ربما بسبب الوحل المتكون نتيجة زخات مطر شتوي مُعتاد. فكر في أعماقه في أن طيبة سيده وراء ما يعانيه الآن من متاعب، لكنه كان على يقين بأن الوالد ذا السطوة والنفوذ لن يترك ابنه فريسة لتحرشات المجرمين والسفلة، لأن أولاد الناس لا يُذلون. تذكر طفولته البائسة، محاولاً أن يستعيد لذاكرته صورة أب أو أم أو إخوة دون طائل. طافت برأسه مشاهد الرجال الخرطوميين الذين يقودهم رجل أبيض، وهم يضعون الأفخاخ لأفراد القبائل البرية عند نهر السوباط. كانت الرزايا تتوالى على رأسه مُكررة مشهد القائد الأبيض، الذي يأمر بقتل هذا أو ضرب ذلك، أو تقييد آخر، ليهتف في أعماقه بأن الشيطان أبيض. تذكر كف الرجل القصير في تل الجنادرية وهي تمتد بسرعة نحو ذكره الصغير المُرتعش، لتذبحه بخفة ومهارة ودون تردد. تساءل ماذا ستكون عليه حياته لو لم يقع أسيرًا ليُباع ويُخصى؟

وصل إلى مقر القنصلية وانتظر كثيرًا حتى سُمح له بالدخول، ليقف أمام خواجة قصير القامة، لم يسأله سوى إن كانت الصُرة معه أم لا، فهز رأسه مُجيبًا وقدمها ليد اختطفتها سريعًا، وألقت بها في درج مكتب خشبي. قال له الخواجة في استعلاء ظاهر:

- يا ولد. قُل لسيدك إن ورقة بالجنسية الإيطالية ستكون لديه الليلة.

لم يفهم شيئًا، فهز رأسه وخرج، وذات الوساوس والهواجس تلعب تحطيبًا في رأسه. بالخُطى الكئيبة نفسها سار عائدًا إلى بولاق أبو العلا، وشعر أن أحدًا يتبعه. نظر خلفه فلم يلمح أي منظر غريب، فواصل السير مُبشرًا نفسه بأن الأمور ستعود إلى نصابها سريعًا. ولاحت في رأسه صورة لسيدة سوداء دامعة العينين، واستبعد أن تكون أمه. سمع صوت الصبية يلعبون في الغابة، وترامى لأذنيه نفير الأبواق مُعلنًا هجوم الخرطوميين. سأل نفسه: هل يختبئ؟ لكن أين؟ ثم تذكر أنه يسير في شارع الخديوي إسماعيل. قال مرة أخرى بصوتٍ هامس: «الويل لشياطين الماضي»، مُكررًا مقولة سيده إبراهيم الغربي: «ما مضى مضى. ولا شيء يهم سوى اللحظة الراهنة».

- غثمان. غثمان.

أنكر اسمه، والتفت ليجد ملاءة سوداء تلتف حول سيدة تمد الخُطى خلفه. لم يكد يستبين الأمر حتى دوى صوت رصاص ألجم سمعه. شعر بملوحة في حلقه، ولامس سائلاً ساخنًا يتدفق من جنبه الأيمن. حاول الاستنجاد بالمارة لكنه شعر بانحباس صوته، سقط على الأرض بعد أن دارت بمن عليها دورتين كاملتين، نظر إلى الناس فرأى وجوهًا فزعة تلتف حوله. أنكر ملامحهم، ثم أنكر أصواتهم وهم يكررون: «لا حول ولا قوة إلا بالله».

«أنا المارد يا خونة. أنا مُساعد سيد الليل. المهيب دائمًا. الذي ترتعد النسوة من بريق عينيه. الذي يُتاجر بالسعادة والملذات»، قالها دون نُطق، قبل أن تنسحب صور ومشاهد المحيطين به رويدًا، ويغيب في النسيان

ويعود إلى اللا مكان.

***

تلاطمت أفكاره بعد أن تلقى رد حبيبته. لا مناص من إهدار الفرصة. السفر إلى لندن. بلادهم. السفر هو مهري. هذه كانت رسالتها. كيف واتتك الشجاعة؟ سأل حسن أفندي خيالها وهو لا يكاد يصدق. ماذا يقول الناس؟ أبوه؟ صاحبه؟ ومَن يعرفونه؟ هل من الممكن لفتاة خارجة من الرق أن تتغير وتتبدل ظروفها على هذا النحو؟ هل يصل بها العِلم إلى أن تُبصر حُقوقًا تعمى الحرائر عن معرفتها؟ وكيف تتعلم في بلاد الإنجليز حيث الخلاعة والفساد؟

مشى رانيًا بنظرات تعجب إلى هؤلاء النساء السائرات مُتشحات بسبلات سوداء، تحجب وجوههن وعقولهن وأحلامهن. كم واحدة منكن يُمكن أن تُصبح «نُزهة»؟ مَن يصل بها الطموح إلى أن تطلب العِلم في بلاد المُحتلين؟ ولِم؟ وهل تعود؟ كرر السؤال إن كانت تختبره فقط، لكنه استبعد مُتذكرًا بريق وجهها وهي تحكي عن عرض السيدة ماريا.

تذكر كيف فتحت الجارية الساذجة عقلها أمام كلماته الأولى، عندما أخبرها ألا سيد لها ولا مالك، وكيف تعلمت القراءة والكتابة واختارت لنفسها طريقًا في الحياة، والتفكير والتعامل. كيف حررت نفسها بنفسها، ثُم تعلمت لغة الأجانب وفاقت عمائم، وطرابيش، وأفندية لا يعرفون سوى كلمة «شكرًا جوني»، التي يرددونها في بلاهة هُنا وهناك.

لو سأل الشيخ علي الصعيدي الرأي لأطلق عليه وصلات السخرية، ولو عبد الغفار باشا شكري لاعتبره مجنونًا، ولو عرفت أمه للطمت خديها. ولو عَلِم أحمد سليم رُبما وضعها في قوائمه. وربما وضعه هو الآخر لو عرف بقبوله. هكذا فكر وهو يتذكر حوارهما الأخير. لقد أعمته الكراهية الشديدة للأجانب، وجعلته دمويًا بلا رحمة. مهرها غالٍ جدًا، وعليه أن يحسب ألف حساب قبل أن يوافق على دفعه. هكذا قال لنفسه وهو يمضي في طريقه إلى حارة الخرنفش، حيث بيته الهادئ الذي يستطيع فيه التفكير بعمق وروية.

***

توالت الزفرات وتعقبت خُطاها القلقة خُطى أكثر رسوخًا، عندما دلفت في حارة صغيرة صاعدة إلى بيت بسيط يبدو مهجورًا، لتطرق الباب بهدوء وخفة. كانت تتوقع أن ترى الوجه الخائف الذي ظلت تنتظره شهورًا، بعد أن مدت إليه يد العون بحماس ومحبة، وما إن لمحته حتى ألقت بجسدها وروحها بين يديه. لثمته في خديه ورقبته ومسحت دموعًا مُنهمرة فوق رقبته، ساكبة بحرًا من الهموم والأوجاع، مُستعذبة اسمها بين شفتيه الجافتين «نبوية»، ومُكررة نُطق اسم أحمد مقرونًا بلفظ «سي» كلقب مُستحق. احتضنته بتنهيدة شوق كمن وجد راحلته الضالة، بعد ليالٍ في صحراء قاحلة، قبل أن تُغلق بذراع عارية امتدت من تحت ملاءتها السوداء باب البيت في عجل.

كانت تتمنى لو تفتك به تقبيلاً تعبيرًا عن حُبٍ حقيقي ملأ جوارحها، وفاض على حياتها المتحولة من وجع إلى وجع. قالت لنفسها إنها المرة الأولى التي تُطلق شفتيها لتعمل بُحرية وإخلاص، ودون إرغام أو إكراه كأنها تُعوض غمزًا من الجبر. بروح ملهوفة تنقلت بلذة عشق بين جبينه ورقبته، وامتصت في وله لسانًا لزجًا قبل أن تحل ثيابها في خفة وسرعة، لتخلص إلى جسد أبنوسي رقيق مُثير للجنون. دفعها قليلاً كأنه يتجنب إغواء اللحظة، في ظل شعور طاغٍ بالتصوف والزهد في هذا الجمال المنبعث كينبوع خمر مُعتق. تذكر قوله لصديقه حسن إنه لا يريدها للمُتعة، وإنما للعظة والنُصح، لكن ترجرج صدرها النافر طغى على كُل قول أو ذكرى، فاندفع مُقبلاً ومُعتصرًا ناسيًا هول الموقف أو خطر اللحظة. احتضنته بقوة كما لم تفعل من قبل مع رجل من كثيرين منحتهم جسدها، وذابت بين يديه مُعلنة الانسحاق والخضوع كجارية، لكن برضا وسعادة غامرة.

دقائق وساعات لم يشعرا بمرورها ملتصقين كفرعي شجرة عتيقة، نازفين همومًا وأوجاعًا وهواجس، مع

دموع ندم عن سنوات مرت دون أن يلتقيا. لو عرفها قبل سنوات ربما ما اندفع في طريق الدم والقتل العبثي، ولو لاقته فور قدومها ما كان لها أن تضطر إلى فتح ساقيها لدود الأرض، وتحمل الإهانة والضرب ونظرات الاحتقار.

قال أحمد وهو يُسند خده الأيمن بشق بين نهديها:

- لن تشقي بعد اليوم يا نبوية.

ثم أشار إلى لفة كبيرة إلى جوارهما قائلاً:

- في هذا الكيس حُلي ذهبية وجنيهات تكفيك الذل والهوان.

شعر بسخونة دمعها المنسكب رطبًا على جبهته، كأنها تقول له: أين كُنت منذ سنين؟ كانت تنتظر رجُلاً مثله يغسلها من الأدران والأوساخ، يسترها، ويمنحها حياة هانئة، طيبة. كانت تتمنى يدًا حانية تُطبطب على روحها، وتمسح عنها عذابات الجوع والحرمان والبؤس.

- يااااااه. بعد ماذا؟

- ما زال الباب مفتوحًا.

قالها بصوتٍ مكتوم، ثُم أضاف:

- لن تحتاجي إلى البغاء.

وتابع:

- الحرية تحتاج إلى مقابل. هذه الأموال نُهبت من مال المصريين وأنا أعيدها لتُنفق على الخير. ليس أفضل من أن تصونك عن أن تبيعي...

أوجعتها الكلمات، لكنها تذكرت أن الحياة الوحيدة التي قد تُرضيها هي الحياة مع رجل حقيقي، شهم، وقوي مثله، وأن المال دونه لا شيء. قالت ودموعها تواصل طريقها فوق وجهه:

- أنا أحتاج إليك أنت فقط. سأهرب معك.

رد بأسى:

- إلى أين؟

- أي مكان.

- لن يتركوني.

بكت وقالت بصوتٍ مُتهدج:

- أعرف بحارًا يونانيًا سيمنحنا تذكرة سفر إلى بلاد اليونان، لو أعطيناه قليلاً من هذا المال.

شبك أصابعه بيديها وقال:

- اسمعي يا نبوية. إنني أشعر بقرب النهاية. أشتم رائحة الراحلين وأرى كثيرًا من الغائبين. سيقتلني الإنجليز لا محالة، فالثأر لديهم لا يموت.

نهض بتثاقل ليرتدي ملابسه، لكنه بوغت بخبطات قوية على الباب الخشبي الذي لم يصمد طويلاً، لينفتح عن فتاة سوداء التف حولها رجال ضخام الجثث، بدت مُبتسمة ابتسامة باردة وهي تتقدم نحو أحمد سليم، الذي تجمد من هول المفاجأة وقالت وعيناها تبثان شررًا:

حصريا على روايات وكتب عربية علامية https://meriwayat2025

ـ شعورك في محله يا ولد. أنت مكشوف عنك الحجاب. لكننا لسنا الإنجليز.

ارتعبت نبوية وهتفت:

ـ حوا.

ابتسمت الفتاة رغم غضبها وقالت:

ـ نعم يا نبوية. كُنت أعرف أنك ستقودينا نحو قاتل غثمان الطوشي. الفحل الذي غدرت بسيدك من أجله. هل أمتعكِ إلى حد خيانة تاج رأسك وولي نعمتك. صحيح يا نبوية. العشق مُميت. قالها سيدنا إبراهيم الغربي.

أمرتهم أن يوثقوه، ولم يجد وقتًا ليصل إلى مُسدسه أو خنجره، فاستسلم بلا مبالاة بينما تجمدت نبوية حتى غابت عن الوعي. على الأرض تمددت عارية إلا من تبان من الحرير، وغطى شعرها الغجري نصف صدرها.

ـ اتركوها، ليست لها فائدة.

قالت حوا، وهم يخرجون بعد أن أوثقوا أسيرهم، وحملوه حملاً ليضعوه في عربة كبيرة كانت بانتظارهم خارج البيت. شعر بقوة الأيدي الحاملة فاستبعد أي محاولة للمقاومة، وغاب نظره تحت عمامة رُبطت حول رأسه، وتقلب جسده يمينًا ويسارًا وهو يسمع دقات حوافر البغال مُنتظمة، بين قهقهات الرجال وحديثهم مع حوا عن قُرب عودة السيد إبراهيم، ولم يطُل بهم الطريق طويلاً، وتوقف الركب بعد دقائق، وسمع أحمد صوتًا خشنًا يسأل في ثقة:

ـ هل هو هذا؟

ثُم أردف:

ـ عظيم.

وشعر أحمد برائحة المسك تقترب من أنفه، قبل أن يلحظ يدين غليظتين تربطان أثقالاً حول ساقيه، ثُم نُزعت العمامة ليرى وجهًا مُستطيلاً بجبهة عريضة لرجل أسود، له حاجبان كثيفان، وعينان واسعتان. بدا جسده ضخمًا وابتسم في وجهه وقال:

ـ أنا الملك الغربي. هل سمعت بي؟

هز أحمد رأسه بالنفي، فواصل محدثه:

ـ لا عليك، أنا ملك جنوب مصر. والآن أحكم عليك بالموت. أبلغ سلامي لغثمان الطوشي وقُل له إن سيده إبراهيم نجا، وإنه عنه راضٍ.

استجمع أحمد شجاعته وقال مُبتسمًا:

ـ لن أفعل. غثمان في الجحيم، ولي طريق آخر. خُذها مني هدية.

وبصق في وجهه، قبل أن يتلقى ضربة قاسية أضاعت من عينيه الرؤية، وسمع صياحًا، ليشد جسده بسرعة ويُرفع لأعلى ثُم يلقى في ماء بارد، شاعرًا بسعادة أن يكون النيل، استسلم راضيًا وهو يهوي ببطء في قاع النهر العظيم، فاتحًا رئتيه بشوق لمياهه لتقتل آخر بقايا الأوكسجين فيهما.

رأى صديقه حسن مُصليًا عليه، وأوجعته دموع مُنهمرة من عيني نبوية، ولاحت أمامه وجوه فرانسوا وغثمان الطوشي وضحاياه، مُلطخة بالطين، ثُم اندهش كثيرًا عندما سمع صوت الضابط فيليب زاعقًا:

ـ أيها الأغبياء. لم نكُن نُريد له الموت. لقد خسرنا عميلاً مُهمًا.

واصل موته ظنًا منه أنها همزات الشياطين.

***

فرح الناس بعد حزن طويل عندما سمعوا نبأ عودة عرابي. وضعت الحوانيت الكبرى الزينات، ووزع الموسرون الشربات استعدادًا لاستقبال الرجل المُبعد لنحو عشرين عامًا.

وحده حسن أفندي كان حزينًا وهو يسترجع ذكريات صديقه الراحل أحمد سليم، تذكر أنه لم يذرف دمعة واحدة عليه لعدة سنوات مضت، بعد موته الغامض الذي أكدته نبوية. قرأ حسن ما قاله عرابي للصحف عقب عودته. كانت كلماته مُنسحقة ومُستكينة أشبه بحشرجة احتضار لأسد عجوز. قال عرابي: «إنما كان ما كان بقضاء الله وقدره، وليس فيه إلا مجرد الكسب الاختياري الذي أثاب، أو أعاقب عليه، ولم يخطر ببالي أصلاً الاقتداء بالفاتحين والمتغلبين كما ذكرتم، ولا بتأليف دولة عربية كما أرجف المرجفون، لأني أرى ذلك ضياعًا للإسلام عن بكرة أبيه، وخروجًا عن طاعة الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، والبرهان على ذلك ارتفاع صوتي بالمحافظة على حياة المرحوم الخديو السابق، كمحافظتي على نفسي بكرة وعشيا، مع احترام أعضاء عائلته الكريمة، ويشهد لي بذلك ما هو واضح بدفتر الأخبار اليومية المحفوظ بالديوان الخديوي».

«وإني أضرع إلى الله سبحانه وتعالى ببركة سيد الأولين والآخرين، المبعوث رحمة للعالمين، أن يوفق الله بين الحكومة الإنجليزية والحكومة العثمانية، ويهديهما إلى التوافق على إخلاء مصر من الاحتلال الإنجليزي، وتسليم مصر إلى المصريين، وبذلك تكون الأمة الإنجليزية قد أتمت عملها وحفظت شرفها، وبرهنت للعالم أجمع على نزاهة قصدها عن عوامل الطمع، واكتسبت محبة المصريين عمومًا».

مصمص حسن شفتيه مُتحسرًا، وجلس يكتب خطابًا لحبيبته الجميلة التي التحقت بالمدرسة العُليا بلندره. تذكر زفافهما الهادئ بعد أسابيع قليلة من حادث وفاة صديقه، كان لا بد لهما من الاقتران على الرغم من الخبر المفجع، وتذكر حسن دعوته لقاسم بك أمين للحضور، وامتعاض بعض الناس من جلوسه وسطهم، واستعذب مشهد والديه مشاركين بالعُرس بعد أن ترجاهما للصفح عنه، ثُم انساب الشوق إلى روحه وهو يستعيد أيام الزواج الأولى، مُستحضرًا طعم قُبلاتهما المفعمة بالحب. كانت نُزهة كما تمنى، مثالاً للرقة، وحافزًا على الرُقي والتحضر، وما زال يشم عطرها الأثير وهو يحتضنها يوم سفرها من ميناء الإسكندرية. قال لنفسه إن وفاءه بوعده بالسماح لها بالسفر، للتعلم والنهل من ثقافة ومدنية أوروبا، أضاء قلبها حُبًا وعشقًا وهيامًا به.

كتب لها على صوت موسيقى غربية انسابت من مُسجل أسطوانات، أهدته إليهما السيدة ماريا يوم العرس:

«حبيبتي:

يوجعني غيابك ويرجرجني الشوق إليك، لكنني صابرٌ ومُقتنعٌ بأن ما يُسعدك يُسعدني، وما يُرضيك ويُحقق آمالك لا شك يُرضيني.

البيت ينتظرك. السرير النُحاسي الذي اشتريناه قبل عامين يشتاقك، خزانة الملابس تئن كُل يوم حنينًا ليدك، ومشربية البيت تسألني متى تطلين منها. المرآة تخفت مُنتحبة لخسنك. كُل شيء شهد رقتك وجمالك يسأل عنك.

الناس أيضًا يسألون عنك. قاسم بك يُبلغك تحياته وتقديره، ومسز مارجريت تنقل إليك تحياتها وتحيات كثير من العاملين بدار الحرية، وأمي تدعو الله أن يمد في عمرها لتشهد عودتك وتفرح بأبنائنا. في الأسبوع الماضي قالت لي أمي إن الناس لا يُصدقون أن حرمك المصون سافرت إلى أوروبا لتتعلم، لتأخذ من منبع العلوم والآداب، لتترجم إلى العربية الرُقي المُذهل الذي حققوه. إنها تُمصمص شفتيها عجبًا، لكن والدي يذكّرها بأن الزمن تغير، وأن الحال تبدلت، وكثيرًا ما يقول لها: مَن كان يظُن أن السُخرة ستُلغى.

كتبت لي في خطابك الأخير عن عربات عديدة وعجيبة تنتشر في شوارع لندن، تسير دون بغال أو خيول. وصلنا بعضها بصحبة أمراء وباشاوات، وأتمنى أن يأتي اليوم الذي نصنعها في بلادنا. لقد سبق أن شاهدت واحدة قبل سنوات في قصر الأمير عزيز حسن، وأتذكر أنها كانت مصنوعة في فرنسا، وتحمل ماركة «دي

ديون بوتون».

أخذت بنصيحتك في معاونة فارس بك نمر في الترجمة. بالأمس ترجمت إلى العربية صفحات من كتاب «عقارب الساعات»، وأقرأ الآن بحثًا كتبه خواجة أمريكي عن الجديد في العلوم العسكرية. من المُدهش أن نُساير الأمم ونُفتش ونبحث عن الجديد، ونستعين بما كشفه الأفذاذ شرقًا وغربًا لنهضة بلادنا.

عاد عرابي من منفاه بعد عفو الخديو، واستقبله الشاعر أحمد شوقي بقصيدة شامتة، نشرتها «اللواء»، يقول مطلعها: «صفارُ في الذهابِ وفي الإيابِ. أهذا كُل شأنك يا غرابي؟». تلك هي معاركهم لإرضاء الذات الخديوية والسُلطان الأكبر. إنها لا تشغلني. اجتهد الرجل وأخطأ أو أصاب، فليس لنا أن نصدر عليه أحكامًا، ففي يوم ما سيأتي من بعدنا من هُم أكثر إنصافًا، وانحيازًا لحقائق الأمور ليقولوا قولهم.

تسألينني عن دار الحُرية، إنها مُمتلئة بالهاربات من جحيم الرق. يعمل بعضهن في التمريض، وأخريات يعملن في تربية الأطفال، وهُناك مَن يُقبلن على التعلم، بعد أن أنشأت سيدات مُحسنات دورًا لإيوائهن وتعليمهن. اندحر الجلابة، واقتنع الناس بأن الإسلام لا يأمر باستعباد بعضهم لبعض، ويومًا بعد يوم ستُصبح أفكار محمد عبده وسعد زغلول وقاسم أمين منهاجًا للأمة. ثقي في الغد فهو لنا ولصانعي الخير والتحضر.

أما نبوية فقد انقطعت أخبارها، وآخر ما عرفته أنها ابتاعت حانوتًا للمأكولات بالإسكندرية، وأنها استقامت كما تمنيت، وأما الغربي فقد خرج من السجن كسيرًا ذليلاً، وانفض من حوله كثير من السفلة والقوادين، لكنني موقن بأنه سيعاود إجرامه، وهذه حال الدُنيا لا تستقيم دون شر، ولا سبيل أمامنا إلا أن نقاومه بالطُرق المشروعة، ولذا نحيا.

أقبلك قُبلة محبة، وأعد الأيام مُنتظرًا رجوعك يا هدية المولى، لك الحُب حتى ترضي، ولك الحُب بعد الرضا.

عاشقك الأبدي

.

محرم ١٣٢٠ هجريًا».

***

في غُرفة مُظلمة جلس مُستندًا إلى وسادة سميكة من القطن، عاريًا إلا من سلسلة ذهبية ثقيلة مُعلقة برقبته، وسراويل من الحرير يستر عورته. بدا إبراهيم الغربي مهمومًا وهو يهز رأسه في أسى، مُتأسفًا لنبأ وفاة والده الذي أخبر به للتو. لم يسمع حوا التي كانت تجلس خلفه وهي تقول:

ـ سيدي إبراهيم، سيدي إبراهيم. لي رغبة واحدة في الحياة. أود أن تعتليني.

كانت تنظُر إلى ظهره العاري في وله، مُكررة الاعتقاد بأنه بشر غير البشر، وأن روحًا سحرية تسكن جسده. سمع كلامها المُتكرر عندما لامست بأظفارها الطويلة ظهره، فالتفت ناظرًا بعينيه العميقتين إلى وجهها ليسألها:

ـ أحقًا؟

هزت رأسها في صمت، ذارفة دموع الخضوع والتذلل لمليكها الذي لم تحب أحدًا مثله، فجذب بساعده وجهها نحوه ليُقبلها قُبلة باردة، لم تشعر فيها بأي لهفة، حاولت التمادي، لكنه أزاح شفتيها برقة هاتفًا:

ـ يكفي هذا.

عقدت كفيها خلف رقبته مُكررة المحاولة، لكنه كرر بحدة:

ـ لن أفعل. أنتِ تعرفين أنني لن أفعل.

دنت أكثر سائلة:

ـ لم؟ أنت لست...

ـ لست عنينًا.

قاطعها ضاحكًا قبل أن يضيف:

ـ نعم. لكنني بلا شهوة. هكذا خُلقت. الرغبة ضعف، وأنا من سلالة ملوك، وفي دمي يتدفق سحر القوة. لم أرغب مرة واحدة في امرأة. سأريحك، أيضًا ولم أرغب يومًا في ذكر.

أراحت رأسها الصغير ذا الضفيرتين الطويلتين على كتفه وقالت:

ـ لهذا أعشقك. لقوتك وسحرك.

ضمته إلى صدرها وهي توشوشه قائلة:

ـ لا تحزن يا سيدي. لا تحزن. كل شيء سيعود كما كان وأفضل. أنا أثق في قدراتك.

ربت على ظهرها وقال:

ـ فراق والدي صعب، ومن قبله فراق عثمان. والخيانة يا حوا. الخيانة موجعة.

ـ لقد أطعمنا القاتل لسمك النيل، ولولا العجلة لذبحنا نبوية، وألقينا جسدها لسكارى الشوارع يفحشون به. سيدي الملك الغربي هو الذي رفض ذبحها، وقال لي إنها بلا فائدة لدى الآلهة لأن دمها مُدنس.

ـ هكذا كان يعتقد.

ابتسمت وسألته:

ـ وأنت فيم تعتقد سيدي؟

ـ في الشيطان. هو الإله الذي نتقرب إليه.

قالها في ثقة فاردًا ذراعيه على الوسادة السميكة، وهز ساقه اليُمنى المرفوعة فوق اليُسرى وسألها:

ـ هل دربت الفتيات الجديدات؟

ـ نعم. لكن هناك مُشكلة.

ـ ما هي؟

ـ جميعهن حبشيات وسودانيات، وهُناك كثيرون من أولاد البلاد يعشقون اللحم الأبيض.

ـ إذًا علينا اصطياد بعض فتيات بحري وإغرائهن بالمال. قولي لي، أين الولد جرجس مفتش الصحة؟

سكتت حوا كأنها تحاول التذكر قبل أن تقول:

ـ اختفى على نحو مُريب. فجأة ومن دون مقدمات لم نعد نراه. البعض يقول إنه عاد إلى الصعيد وآخرون يقولون إنه ترهبن، وهُناك مَن يقول إنه يخدم داخل ثكنات الجيش الإنجليزي، ولا شيء مؤكد.

ـ غريبة. من الصعب على هذا الشخص أن يترهبن. لا بد أن وراءه سرًا كبيرًا.

اعتدل إبراهيم قليلًا كأنما تذكر أمرًا وسألها:

ـ وما أخبار فيليب؟

ـ نقل إلى السودان بعد أكياس الذهب التي دُفعت لمساعد القائد العسكري، لقد أصدروا تقريرًا بعدم كفاءته،

بعد مقتل أحمد سليم. تصور يا سيدي، إنهم كانوا يريدونه حيًا ليمضي في قتل الخواجات.

ـ هؤلاء قوم يُفكرون.

وأضاف وهو يُطقطق أصابعه:

ـ الفهم الآن، لدينا مهام عظيمة. توقعي دائمًا المقاومة، وكوني على حذر. طريقنا صعب، لكننا سنصل إلى ما نريد يومًا ما.

***

جلس رجل الأمن السري المخضرم يُفكر في مخطط القوات البريطانية، للعمل في مصر خلال الفترة المقبلة، كان يشعر بالرضا عن كثير من الأمور، غير أن مقتل أحمد سليم الإرهابي الخاضع لرقابة المخابرات ضايقه، لقد اكتفى بنقل فيليب بعيدًا عن الإدارة، ثم استغل رشوة قُدمت لمساعد القائد العسكري، ليقوم بنقله إلى السودان، تحفيزًا لإبراهيم الغربي على معاودة العمل، وتأكيدًا على أنه استعاد نفوذه مرة أخرى. سر رجل المخابرات كذلك، عندما اكتشف أن جرجس أفندي ظهر بوجه آخر في الجيزة، وبشخصية تاجر غِلال يهودي. كان الاكتشاف الجيد أن جرجس الذي حصل على بعض أموال أحمد سليم، عاود عمليات القتل السرية للأجانب والمستخدمين الإنجليز، بعد أن اشترى عدة بيوت صغيرة في منطقة الأهرام. فكر الرجل في أن ذلك مهم وضروري، في ظل وجود شخوص كالحة تنتمي في الظاهر إلى معسكر الإنجليز، ومن الصعب التخلص منهم. في كثير من الأحيان يكون الإرهاب ضروريًا لاستتباب الأمن وإحكام السيطرة. هكذا كتب، وهو ينفُث دُخان سيجاره الغليظ في تقريره الشهري، المرفوع إلى الإدارة العُليا في بلاد صاحبة الجلالة.